



الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

الإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطورة إيرين. دراسة سياسية للعلاقات الأوربية الأوربية بين عامي

١٦٤-١٨٦ هـ / ٧٨٠-٨٠٣ م

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير اختصاص تاريخ عرب وإسلام

تقديم الطالب

نديم خليل لايقة

إشراف: أ. د. سهيل زكار

الإهداء

إلى من علمني أن الحق كلمة وفعل، وأن العلم نور يحرر الروح من ظلمة الأسر
إلى عالم رحيب يستحق الحياة ...

إلى أبي الغالي .

إلى من علّمت قلبي قبل عقلي حقيقة المحبة الصادقة، وأن لا حدود للعطاء، فكان
حنانها جنة خصبة، ريانة، أنهارها لا تنضب ...

إلى أمي الغالية

أهدي ثمرة جهدي المتواضعة

شكر

أتقدم بجزيل شكري، وعميق امتناني، وعرفاني بالجميل إلى أستاذي الفاضل

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الذي شمل هذا البحث بعطفه الفياض، ومنحه من علمه الغزير، وفكره الواسع الكثير، يفتح على الدوام خزائن التاريخ، يصوغ من أحداثها علماً وعبراً وحاضراً يدفق بالحياة.

أشكره على جهده المبذول، ووقته الثمين في سبيل أن يرى هذا البحث النور، بعد أن قَوِّمَ منه ما اعْوَجَّ، وصوب ما تخلله من أخطاء، فكان القبس المنير يهدي خطوات البحث صوب أضواء ألفة مشعة.

جزاه الله كل الخير، وأسأل الله له الصحة والعمر المديد مع مزيد من العطاء والإبداع.

الفصل الأول

الأوضاع العامة في الإمبراطورية البيزنطية قبيل تولي إيرين العرش

أولاً- الأوضاع السياسية والاقتصادية:

١- وصول الأسرة الهرقلية إلى الحكم.

٢- حروب الأسرة الهرقلية.

٣- تأثير الناحية الاقتصادية بالسياسية.

ثانياً- الأوضاع الدينية والاجتماعية:

١- المشكلات الدينية التي واجهت الأسرة الهرقلية.

٢- تداخل الناحية الدينية في الحياة الاجتماعية.

٣-- صفات المجتمع البيزنطي وأهم طبقاته.

ثالثاً- دراسة عن الأسرة الأيسورية:

١- وصول الأسرة الأيسورية إلى العرش البيزنطي.

٢- نهاية الأسرة وبداية الثورات في الإمبراطورية.

الفصل الثاني

الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم ليو الرابع وتتويج إيرين، بصفة إمبراطورة مشاركة.

١- أصل ومنشأ الإمبراطورة إيرين وتتويجها.

٢- الإجراءات التي قام بها ليو الرابع تمهيداً لاستلام ابنه العرش.

٣- عودة السياسة اللاأيقونية قبيل وفاة ليو وموقف إيرين منها.

٤- الإمبراطورية البيزنطية تحت وصاية إيرين.

الفصل الثالث

السياسة الداخلية للإمبراطورة إيرين أثناء الوصاية.

١- القضاء على المؤامرات الداخلية.

٢- التوجهات الجديدة لإيرين والأوضاع الدينية السائدة قبيل وصايتها.

أ- الأيقونات ظهورها وبداية عبادتها وتكريمها.

ب-الأجواء السائدة تجاه تقديس الأيقونات في زمن الأباطرة الذين سبقوا عصر إيرين .
ج-المجمع المسكوني السابع وآثاره.

٣- التوجهات الإدارية والعسكرية والتشريعية قبيل تسلم إيرين العرش وبعد تسلمها.

أ- التوجهات الإدارية والعسكرية.

ب-التوجهات السياسة الإدارية.

ج-التوجهات التشريعية للإمبراطورة إيرين.

الفصل الرابع

سياسة الإمبراطورة إيرين الخارجية أثناء الوصاية.

أولاً-علاقة الإمبراطورة إيرين بالفرنجة.

ثانياً- علاقاتها بالخلافة العباسية.

ثالثاً-علاقاتها بقبائل البلغار- السلاف - الخزر:

١- قبائل البلغار:

أ- البلغار من حيث المنشأ والموطن وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ب-دور الإمبراطورة إيرين في الحد من النفوذ البلغاري.

ج- سياسة بيزنطية عسكرية تجاه البلغار.

٢- قبائل السلاف:

أ- السلاف ظهورهم وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ب-دور الإمبراطورة إيرين في القضاء على السلاف.

٣- قبائل الخزر:

أ- الخزر من حيث نشأتهم وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ب-دورهم السياسي والاقتصادي.

رابعاً-علاقة بيزنطية بالبابوية في روما:

أ- المشكلات الكنسية حول الزعامة الروحية.

ب- سوء العلاقة بين البابوية و الإمبراطورية البيزنطية.

ج- الدور الذي قام به شارلمان لإبعاد البابا عن بيزنطة.

د- دور إيرين في رأب الصدع بين بيزنطة والبابوية.

هـ- الدور الدبلوماسي للإمبراطورة إيرين مع البابا و الفرنجة.

الفصل الخامس

الصراع بين إيرين وقسطنطين السادس على الحكم.

- ١- بلوغ قسطنطين السن القانونية واستمرار إيرين بالوصاية.
- ٢- سياسة الإمبراطور قسطنطين السادس ونتائجها.
- ٣- نشوب الثورات والاضطرابات في بند أرمينيا.
- ٤- تفرد الإمبراطورة إيرين بالعرش البيزنطي.

الفصل السادس

السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطورة إيرين.

- ١- أعمال الإمبراطورة إيرين من أجل تعزيز سلطتها.
- ٢- الصراع بين المستشارين ستوراكيوس وأيتيوس على خلافة إيرين.
- ٣- نهاية حكم إيرين واستلام الحكم من وزير ماليتها نقفور.
- ٤- الحروب والأوضاع التي أدت لانتقال العرش البيزنطي للأسرة العمورية.

خاتمة.

ملحقات:

الملحق الأول: تتويج قسطنطين السادس
الملحق الثاني: رسالة شارلمان إلى البابا ليو الثالث عام (٧٩٦م)
الملحق الثالث- المجامع الدينية:

- ❖ المجمع الأول عام ٣٢٥م
- ❖ المجمع الثاني عام ٣٨١م
- ❖ المجمع الثالث عام ٤٣١م
- ❖ المجمع الرابع عام ٤٥١م
- ❖ المجمع الخامس عام ٥٥٣م
- ❖ المجمع السادس عام ٦٨٠م
- ❖ المجمع السابع والأخير عام ٧٨٧م

جداول:

- جدول (١) السنوات الهجرية والميلادية و أهم الأحداث المعاصرة للإمبراطورة إيرين بين عام (١٦٤-١٨٧هـ/٧٨٠-٨٠٣م)
- جدول (٢) أسماء الأباطرة البيزنطيين الوارد ذكرهم في الدراسة
- جدول (٣) أسماء بابوات وبطاركة القسطنطينية وروما المذكورين سابقاً

خرائط:

- خريطة توضيحية (١) أقاليم وممتلكات الإمبراطورية البيزنطية
- خريطة (٢) ثيمات الإمبراطورية بآسيا الصغرى
- خريطة توضيحية (٣) مراكز النشاط السياسي بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ليو الرابع
- رسم تخطيطي (٤) حصار هارون الرشيد في منطقة نيقوميديا في عام (١٦٥هـ/٧٨٢م)
- خريطة (٥) بند تراقيا أثناء تعرضه لهجوم البلغار عام (١٧٢هـ/٧٨٨م)
- خريطة (٦) العناصر والدول المحيطة بالإمبراطورية البيزنطية

الصور والأشكال:

- صورة (١) العملة البيزنطية التي قامت الإمبراطورة إيرين بسكها واطاعة عليها صورتها وأسمها "إيرين مستبد وعظيم الرومان"
- صورة (٢) اجتماع مجمع نيقية المسكوني السابع مأخوذ من إنجيل إغريقي يرجع عهده إلى القرن التاسع للميلاد
- شكل (٣) الزخارف الجدارية من كنيسة سانت صوفيا- بسالونيك وهي إحدى الكنائس التي شيدتها الإمبراطورة إيرين بين عامي (٧٨٠-٧٩٧م)
- أطلال مضمار السباق البيزنطي "ملعب الهيبديوم" في القسطنطينية من لوحة مطبوعة بطريقة الحفر من القرن الخامس عشر الميلادي

ثبت بالمصادر والمراجع:

- أولاً: المصادر.
- ثانياً: المراجع العربية.
- ثالثاً: المراجع المعربة.
- رابعاً: الدوريات.
- خامساً: الموسوعات والقواميس والأطالس والندوات والمؤتمرات العلمية.
- سادساً: المراجع الأجنبية.
- ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية.

ملخص الموضوع

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على عصر الإمبراطورة إيرين Irene (١٦٤-١٨٦هـ/٧٨٠-٨٠٣م) ، هذه الفتاة العادية، التي قدمت من مدينة أثينا لتغدوا إمبراطوراً مطلقاً للإمبراطورية؟ وكيف استطاعت التغلب على المصاعب والعقبات التي اعترضت طريقها؟ ثم إلى أي مدى نجحت أولاً أن تصبح أول امرأة تقترب من العرش البيزنطي (وصية على ابنها القاصر)، ثم تصل إليه أخيراً بوصفها إمبراطورة تنفرد بالأمر متطلعة بمهام الحكم وتصريف شؤون الدولة؟

وهل كانت الإمبراطورة إيرين في كامل قواها العقلية حينما حكمت بالظلام الدائم على ابنها، قسطنطين السادس، بسمل عينيه؟ أم أنها كانت تنفذ فيه حكمها العادل نتيجة لتصرفات شائنة صدرت عنه وصلت إلى حد ضرورة قصاصها منه -وهو ابنها وجزء منها- على تلك الطريقة البشعة!

لقد كان لتلك الإمبراطورة وزنها وجبروتها. كانت لها سياستها ودبلوماسيتها الناجحة كإمبراطورة، بل كإمبراطور ممثل للشرق الأوروبي في وقت خلا فيه الكرسي الإمبراطوري في الغرب من إمبراطور يحميه، وكانت الإمبراطورية الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه العالم الإسلامي هي الإمبراطورية البيزنطية التي مثلت فعلياً شرق أوربا فقط، وعلى عرشها كانت تجلس إيرين بكامل ثقلها وذكائها وتدبر أمورها، وتوجه الجيوش للحرب وقتما تدعو الحاجة، وتعقد الهدنات بكل روية في الوقت المناسب أيضاً. وخير دليل على ذلك ما حدث بينها وبين الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٦ ربيع الأول ١٧٠هـ/٧٨٦م)، لا بل حتى عندما عادت للغرب عظمتها المفقودة سياسياً بنتويج شارلمان إمبراطور للغرب (١٨٣هـ/٨٠٠م) زاد تمسكها بنفوذها كإمبراطورة وحيدة لأوروبا. وما كان من شارلمان إلا أن أسرع بإرسال سفارة إليها بغرض الزواج منها وجمع شمل أوربا شرقاً وغرباً. لكن توقيتها لم يكن موفقاً، فقد قام تمرد في القسطنطينية أطاح بحكم إيرين، واعتلى العرش البيزنطي الإمبراطور نفقور. والواقع أن طلب شارلمان الزواج من إيرين يعد في حد ذاته غاية في هيبة جانبها، وإلا لانقلب الوضع وبدلاً من أن تصل إلى الشرق سفارة تحمل رايات الافراح، كان من الممكن أن تصل إلى الشرق سفارات الحرب بطبولها المدوية.

مقدمة:

يعد القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي الذي حكمت فيه الأسرة الأيسورية الإمبراطورية البيزنطية من الحقب التي شهدت اضطرابات في المستوى السياسي والعلاقات مع الدول المجاورة بصفة عامة، و فيما يتعلق بالمشكلة الدينية والعلاقة مع البابوية بصفة خاصة.

إذ لم يتوج الصراع البيزنطي في الشرق والشمال مع العرب، والبلغار، والسلاف، والخزر، في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي بنصر لصالح بيزنطة.

يتصف موضوع الدراسة المعنون بـ"الإمبراطورية البيزنطية في عصر الإمبراطورة إيرين، وهي دراسة سياسية للعلاقات الأوربية الأوربية بين عامي ٧٨٠-٨٠٣م" أهمية خاصة حيث تعد شخصيتها من الشخصيات التي لعبت دور بارز في الإمبراطورية البيزنطية، كما لعبت دوراً مهماً وأساسياً في جميع النواحي السياسية والاقتصادية في الإمبراطورية ولهذا الموضوع أهمية خاصة للباحث في تاريخ العصور الوسطى بصورة عامة، وللمختص بالتاريخ البيزنطي بصورة خاصة، إذ إن الموضوع لم يدرس دراسة تحوط جوانبه كافة، فضلاً عن أنه لم يُبحث بصورة كاملة.

دفعت بعض التفاصيل المتعلقة بالبحث والتي كانت بمعظمها غامضة أو مختصرة، فما نقله المؤرخون كان مختصراً وغامضاً في كثير من جوانبه، والشيء نفسه فيما يتعلق بالمصادر السريانية، فكان لابد من العودة إلى المصادر الإغريقية من أجل الوصول إلى تفاصيل دقيقة عن الموضوع، وقد كانت المعاناة كبيرة للحصول عليها لندرة وجودها في مكتباتنا الوطنية، ويضاف إلى ذلك صعوبة الحصول على ترجمة عنها وكل ما أمكن جمعه كان مادة متناثرة ضمن هذه المصادر، مما دفع الباحث إلى بذل جهود مضاعفة للحصول على معلومات الأكثر شمولية ووضوحاً من خلال الكتابات الأجنبية لبعض المختصين بالدراسات البيزنطية، والتي شملت ترجمات لكثير من المصادر الإغريقية، فتم نقل ما كتبه المؤرخون البيزنطيون الذين عاصروا الحقبة المدروسة وفي مقدمتهم ثيوفانيس، وفي العصر الحديث بيوري، وفازيلييف، وأوستروغوروسكي.

لا مفر من مواجهة صعاب البحث الشائكة في هذا الموضوع من الباحث في التاريخ، مما تطلب مزيداً من الصبر والسعي الحثيث لإيجاد القيم العلمية -قدر المستطاع- في هذا البحث.

إن موضوع البحث يُلقي الضوء على قضية مهمة جداً في التاريخ، تبلورت وتوضحت في خلال أحداث وصولاً لإمبراطورة إيرين إلى العرش البيزنطي، وهي الإمبراطورة التي أشار إليها بعض

المتعمقين بدراسة التاريخ البيزنطي، وفحواها إن الإمبراطورة إيرين هي التي حكمت الإمبراطورية البيزنطية باسم "الإمبراطور باسيلوس" (Basileus-Emperor)^(١)، وفي زي وهيئة إمبراطور^(٢)، وبكل سلطان الإمبراطور^(٣). وبذلك كانت أول إمبراطور أم.

تعد حقبتها الممتدة من عام ٧٨٠-٨٠٢م من أهم حقبة التاريخ البيزنطي على وجه الخصوص والتاريخ العالمي بوجه عام، وأن تزامن عصرها مع زمن أعظم الدول والخلافات في تلك الحقبة وأقواها ألا وهي الخلافة العباسية، التي كانت في مرحلتها تلك تعيش أزهى مراحل تاريخها العريق، إذ كانت تشع نشاطاً وحيوية متمثلة في أقوى شخصيتين عباسيتين هما الخليفة المهدي وابنه الخليفة هارون الرشيد.

أما الدولة الأخرى فتمثلت في الدولة ذات الأصول الإفرنجية ألا وهي الدولة الكارولنجية، التي يقف على رأسها شارل الكبير المعروف بشارلمان حكم في الحقبة الزمنية الممتدة من عام ١٤٧-١٩٩هـ / ٧٦٤-٨١٤م فضلاً عن وجود الاضطرابات على الجبهة البلغارية والخزرية والسلافية.

ومهما يكن من أمر فقد استطاعت الإمبراطورة إيرين أن تحافظ على وحدة الإمبراطورية وصيانة أملاكها وأن تقف في وجه هذه الدول الآخذة بالتوسع والقوة.

ويمكن إيجاد قيمة علمية رفيعة تحققها الدراسة من خلال الشأو الكبير للإمبراطورية البيزنطية وأثرها على العالمين الأوربي والإسلامي في عصرها إلى جانب دورها الهام بوصفها مركزاً لنقل الحضارة العربية الإسلامية إلى العالمين الغربي والشرقي الأوروبيين على السواء.

كما تكمن أهمية الحقبة الزمنية لموضوع الدراسة في كونها من أهم الحقبة التاريخية من النواحي الدينية على وجه الخصوص، وذلك بسبب اشتداد الجدل الديني المتمثل في ظهور الحركة الأيقونية واللاأيقونية، فضلاً عن كون الإمبراطورة إيرين والتي حكمت في هذه الحقبة انتمت إلى أسرة من أهم الأسر التي حكمت الإمبراطورية البيزنطية، فقد تولى بعدها سلسلة من الأباطرة المندفعين الضعاف الذين تميزت عهودهم بمدة حكم قصيرة.

^(١) Brehier(L.): Vie el Mort de Byzance, Paris 1947. P.93.

^(٢) Larousse: Encyclopedia of Ancient and Medieval History. General Editor: Marcel Dunan,

Foreword by Arnold Toynbee. P. 273.

^(٣) Vasiliev (A.A): Histoire de 1 Empire Byzantine, T. I Editions A Picard Paris, 1932. P.353.

شكلت الإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطورة مركزاً ووسيطاً تجاريين لنقل البضائع المتبادلة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، واستمرت بزخم وافر طيلة مدة حكمها.

يشكل الوقوف إزاء حياة الإمبراطورة إيرينا الهدف الرئيسي للدراسة، بسبب ما أدته من أدوار بارزة في تاريخ الدولة البيزنطية، والتاريخ العالمي في الآن نفسه، وتسعى الدراسة إلى الوقوف المتأمل حيال الجوانب المؤثرة من حياتها، وستحاول الدراسة الاستفادة من الدراسات السالفة، وإقامة بحث مستقل يحاول تقصي تاريخها الإنساني والسياسي.

اقتضت خطة العمل تقسيم البحث إلى مقدمة وستة فصول.

شملت المقدمة أهمية الحقبة المدروسة، وأسباب اختيار البحث، والصعاب التي واجهته. وفي المقدمة كان لا بد من مدخل لدراسة أهم المصادر على اختلاف أنواعها ودرجة أهميتها للبحث من: سريانية، وبيزنطية، وعربية، وتمت - كذلك - الإشارة إلى أهم المراجع والمؤلفات الأجنبية المختصة بالدراسات البيزنطية. وذيلت الدراسة ببعض الملاحق المستخدمة في إعداد الرسالة، وقائمة بثبت المصادر والمراجع الأجنبية والعربية.

الفصل الأول:

”الأوضاع العامة للإمبراطورية البيزنطية قبل تولي إيرين للعرش.”

سيسعى هذا الفصل إلى معالجة الأوضاع العامة في الإمبراطورية البيزنطية قبل تولي الإمبراطورة إيرين العرش، إذ يشمل الأوضاع السياسية المتمثلة في الحروب البيزنطية الفارسية ثم البيزنطية الإسلامية، ومن ثم الأوضاع الاقتصادية، وسيكشف عن أهمية العامل السياسي بما يحدثه من تأثير كبير على العامل الاقتصادي، بعد ذلك يأتي الحديث عن الأوضاع الدينية، والمشكلات المتعلقة بأمور الدين وظهور الآراء الدينية المختلفة، وكيف أنه كان لهذا العامل الأثر الكبير على الوضع الاجتماعي لاسيما في تلك الحقبة من التاريخ البيزنطي، وتقدم الدراسة من خلال هذا الفصل دراسة موجزة عن الأسرة الأيسورية في أصلها ونشأتها.

الفصل الثاني:

”الإمبراطورية البيزنطية تحت حكم ليو الرابع وتتويج إيرين، بصفة إمبراطورة مشاركة.”

ستحاول الدراسة فيه الحديث عن نشأة الإمبراطورة إيرين وتتويجها، وعن الإجراءات التي قام بها زوجها ليو الرابع تمهيداً لاستلام ابنه قسطنطين السادس العرش من خلال أداء قسم الولاء،

وستتحدث الدراسة عن عودة السياسة اللاأيقونية في السنوات الأخيرة من حكم ليو الرابع وموقف الإمبراطورة إيرين من ذلك، ومن ثم تم الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة ليو وتولي إيرين وصية عرش الإمبراطورية البيزنطية على ابنها القاصر قسطنطين السادس.

الفصل الثالث:

”السياسة الداخلية للإمبراطورة إيرين أثناء الوصاية”.

ستبين الدراسة في هذا الفصل كيفية القضاء على المؤامرات الداخلية، فضلاً عن محاولة بحث السياسة الدينية والمتمثلة في الحركة الأيقونية، ومناهضة الإمبراطورين ليو الثالث وقسطنطين الخامس لها، وكيف تمكنت الإمبراطورة إيرين من إعادتها من جديد وآثارها في الإمبراطورية البيزنطية داخلياً وخارجياً، وسيتم التعرض بعد ذلك إلى التنظيمات الإدارية والعسكرية والتشريعية، والتطرق إلى الحديث -من خلالها- عن أهم التنظيمات الإدارية والعسكرية للأسرة الأيسورية، وبصفة خاصة حقبة حكم الإمبراطورة إيرين، وسيشمل -أيضاً- الناحية التشريعية للأسرة الأيسورية مبيناً القوانين والمراسيم الإمبراطورية التي استحدثتها الإمبراطورة إيرين في نواحي الحياة كافة.

الفصل الرابع:

”سياسة الإمبراطورة إيرين الخارجية أثناء الوصاية”

سيخوض هذا الفصل الحديث عن الدول والقبائل التي كانت متاخمة في حدودها حدود الإمبراطورية البيزنطية، إذ تمثلت في الفرنجة، والخلافة الإسلامية العباسية، وكذلك قبائل البلغار والسلاف والخزر، إذ سيتطرق الحديث إلى النواحي الحربية والسلمية مع هذه الدول، ومن ثم سياسة الإمبراطورة بصفة عامة مع البابوية في إيطاليا، التي كانت في ذلك الوقت معرضة لاجتياح قبائل اللومبارد والفرنجة، والمساعي الدبلوماسية للإمبراطورة إيرين لإرجاع العلاقات الكنسية الدينية والدولية إلى سالف عهدها.

الفصل الخامس:

سيتحدث عن الصراع الذي نشب بين إيرين وابنها قسطنطين السادس على الحكم" كيف وصول الابن إلى سدة الحكم وسياسته في الإمبراطورية البيزنطية، وما نتج عنها من الثورات والاضطرابات ولا سيما في بند أرمينيا، وكيف استطاعت الإمبراطورة إيرين إقصاء ابنها عن العرش والانفراد به كإمبراطورة وحيدة.

والفصل السادس:

سيتقصى السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطورة إيرين"

من خلال إظهار أعمال الإمبراطورة إيرين الساعية إلى تعزيز سلطتها من خلال التقرب من الرهبان والشعب بتخفيض الضرائب، كما سيتحدث عن تأثير كل من المستشارين ستوراكيوس وأيتيوس على سياستها لا سيما تجاه ابنها قسطنطين السادس، ومن ثم نهاية حكمها بل وحياتها، في خضم اندلاع الثورات والاضطرابات في داخل الإمبراطورية البيزنطية وفي خارجها آنذاك.

الخاتمة:

لابد للباحث في نهاية أي بحث علمي أن يذكر النتائج التي تم التوصل إليها من الدراسة الطويلة.

ففي خاتمة هذا البحث تمت الإشارة ولو بصورة مختصرة إلى الهدف والمقصد الذي سعى إليهما هذا البحث، فضلاً عن فلسفة الرسالة، وإيضاح الأبعاد الخفية التي تراءت للباحث من هذا البحث. ووضع للبحث فهارس لسهولة الرجوع إلى المعلومة المطلوبة مع وضع قائمة بالمصادر والمراجع المستخدمة في البحث.

وفي الختام أسأل الله أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ولا يفوتني إلا أن أسجل شكري وأمتناني لأساتذتي الكرام الذين لهم الأيادي البيضاء وتعاليمهم وإرشاداتهم السمحاء هي التي أسهمت في خروج هذا البحث إلى النور.

ولن أفارق مجلسي هذا دون أن أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور سهيل زكار الذي كان لي عوناً ومعيناً وموجهاً وكان _ أطال الله بقاءه _ يبادرني بالسؤال عن العمل بين الفينة والأخرى سؤال الصانع صنيعته جزاه الله عني وعن طلبة العلم كل خير وجعل الحق أمامه ووصل بالسعادة أيامه، وأيضاً أتقدم بالشكر لكل من قدم لي العون والنصح والمشورة في هذا البحث

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبالشكر تدوم النعم والحمد لله رب العالمين.

ملحقات البحث:

لعله من الضروري دعم البحث وإغناؤه ببعض الملحقات ذات الصلة الوثيقة بموضوع البحث، ومنها ملحق تتويج قسطنطين السادس، وكان هناك خطاب شارلمان إلى البابا ليو الثالث عام ١٨٠هـ / ٧٩٦م، والملحق الثالث من حوليات الملكية الفرنجية ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠م، والملحق الرابع عن المجامع الدينية "المسكونية" بدأ من المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م وصولاً للمجمع المسكوني السابع عام ١٧١هـ / ٧٨٧م.

مدخل

في المصادر دراسة وتقويم:

تم الاعتماد على مجموعة متنوعة من المصادر والمراجع كالمصادر الإغريقية والسريانية والعربية وغيرها.....

وكان بعضها شديد الصلة بموضوع البحث ويغطي جزءاً جيداً من فصول الرسالة، وبعضها الآخر تطرق إلى جوانب بسيطة فقط، وقد تم تقسيم هذه المصادر وعرضها حسب أهميتها وهي كالآتي:

أولاً: المصادر الإغريقية:

تعد المصادر الإغريقية من أهم المصادر المتعلقة بموضوع البحث، وذلك لكون بعض المؤرخين البيزنطيين عاصروا الحقبة المدروسة، ومن المصادر الإغريقية التي اعتمدتها الدراسة:

❖ ثيوفانيس (Theophanes, Gofessor): "The Chronicle of Byzantine and Near Eastern History"

مؤرخ بيزنطي عاش بين عامي (٧٣٨-٨١٨م)، وهو من أشهر مؤرخي بيزنطة الذين أرخوا لهذه الحقبة، وقد كان من رجال الدين البارزين، وترجع أهمية كتابه إلى كم المصادر الأصلية المتنوعة التي رجع إليها المؤلف حين قام بوضع مؤلفه، إلى جانب اتصافه بصفة الحياد في كتابته.

وقد أفاد الباحث من هذا الكتاب في المقام الأول في سياق عرض قدوم إيرين إلى السلطة، وتحليل كثير من الأحداث والوقائع، التي أدت إلى تسلمها العرش، فضلاً عن إيراد تفاصيل صراعها مع ابنها قسطنطين السادس، وذكر ما تم من مفاوضات واتفاقيات مع دول الغرب الأوربي والشرق المسلم، كما أنه يقدم كثيراً من التفاصيل، ويحدد العديد من التواريخ التي كانت نقطة ضعف لدى أصحاب المصادر الأصلية فيما يتعلق بالعلاقة بين الإمبراطورية البيزنطية والبابوية في الحقبة الحرجة، التي بدأت فيها البابوية في تقليص تبعيتها للإمبراطورية البيزنطية بعدما وجدت في الفرنجة ضالتها المنشودة.

كما أنه أفرد العديد من الفقرات للحديث عن السفارات المتبادلة بين الإمبراطورة إيرين والملك الفرنجي شارلمان، وكان حريصاً على ذكر أسماء الأفراد الذين شاركوا في هذه السفارات، وأشار إلى دور البابوية في إفساد حالة التقارب التي كانت تسعى إليها الإمبراطورة مع الفرنجة.

ويمكن عدّ حوليته من أشهر الحوليات البيزنطية؛ فهي ذات قيمة علمية كبيرة بسبب ارتباطها بأحداث القرن الثامن الميلادي موضوع الرسالة، فقد سار ثيوفانيس على النظام الحولي المؤلف حسب السنين فأمد البحث بمعلومات قيمة وبصفة خاصة - ما يتعلق بحملة الخليفة العباسي المهدي على البوسفور المسماة بموقعة خليج القسطنطينية عام ٧٨٢م من حيث تجهيزها، وإعدادها، وخط سيرها والحصار الذي تعرض له ابنه هارون في أثناء هذه الحملة، وكيفية خروجه من هذا المأزق الحرج.

في حين أغفلت المصادر العربية التفاصيل الأخيرة من أحداث الحملة العباسية، ونجد كثيراً من رواياته تتفق مع المؤرخين العرب كالطبري وابن الأثير في كل المعلومات كافة.

❖ أستروكوروسكي "History of the Byzantine State" Ostrokorski

وهو مؤرخ حديث صاحب كتاب ثر بالمعلومات، عالج دراسة تاريخ الدولة البيزنطية حتى سقوطها ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م، وأشار باختصار إلى تاريخ الإمبراطورية في الحقبة بين ٣٢٤ حتى ٦١٠م، وما يلي ذلك، راعى فيه التفصيل، واهتم بالمصادر والمراجع، واعتنى بما أورده من الحواشي، وأولى أوستروكورسكي اهتماماً خاصاً بالناحية السياسية، وما تأثرت به الدولة البيزنطية من التغييرات السياسية التي حدثت في داخل البلاد وخارجها، وتكمن أهمية هذا الكتاب في أن المؤرخ عاش حياته متنقلاً بين مناطق كانت في الأصل موطناً للسلاف، فلذلك جاءت معلوماته شبه جديدة حول تلك العناصر السلافية وتحركاتها وعلاقاتها بالدولة البيزنطية، إلى جانب سرده بعض المعلومات حول سياسة الإمبراطورة إيرين المؤيدة للأيقونات، وانعكاس تلك السياسة على علاقتها بالغرب الأوربي -بصفة خاصة- البابوية. وكان معارضاً لثيوفانيس في رأيه حول المجمع المسكوني السابع الذي انعقد بناءً على طلب الإمبراطورة إيرين المؤيد لإعادة عبادة الصور عام ٧٨٦م.

❖ جيبون "The History of the Decline and the Fall the Gibbon Roman Empire"

المؤرخ الإنكليزي الحديث إدوارد جيبون ١١٦٠-١٢٠٩هـ / ١٧٤٧-١٧٩٤م، مؤلف كتاب تداعي الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ولد في ٢٧ نيسان سنة ١٧٤٧م، وتلقى جانباً من تعليمه في وستمنستر، ثم على يد مؤدبين، وحصل في كلية مدلين Magdalen بأكسفورد سنة ١٧٥٢م على شهادة إتمام الدراسة الثانوية التي تؤهله للالتحاق بالجامعة، ثم ارتحل إلى لوزان بسويسرا، فعكف على دراسة اللغة الفرنسية، والآداب اليونانية واللاتينية، وكتب التاريخ والفلسفة.

❖ بيرري "History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene."

يُعدُّ من أعظم المشتغلين بالدراسات البيزنطية، كان أستاذاً بجامعة كمبردج: ألف ثلاثة مجلدات في التاريخ العام للإمبراطورية البيزنطية، تشمل التاريخ البيزنطي من سنة ٣٦٥م حتى سنة ٨٦٧م، نشر المجلدين الأولين سنة ١٨٨٩م بعنوان: "History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene." وانتهى في هذين المجلدين إلى سنة ٨٠٠م، أي إلى زمن تنويع شارلمان إمبراطوراً، على يد البابا ليو الثالث.

اعتمد على ما كتب في التاريخ البيزنطي من مصادر ومراجع روسية وبلغارية، بفضل إتقانه اللغات الروسية السلافية (الصقلية).

وتعد مجموعة كمبريدج العصور الوسطى Cambridge Mediaeval History تاريخاً شاملاً للدولة البيزنطية، فضلاً عن المصادر والمراجع الوافية في هذا الموضوع، وكانت الإفادة من هذا الكتاب فيما يتعلق بالجزء الرابع (الطبعة الحديثة)، الذي عالج التاريخ البيزنطي منذ سنة ٧١٧ حتى سنة ١٤٥٣م وافرة، وتناول أيضاً دراسة ما يرتبط بالدولة البيزنطية من الدول والشعوب المجاورة أمثال الصقالبة، والأرمن، والمسلمين والمغول، والشعوب البلقانية.

❖ فازيليف "History of the Byzantine Empire," Vaziliev

يمكن القول: إن فازيليف من أشهر المؤرخين الحديثين المشتغلين بالدراسات البيزنطية، وقد جرت ترجمة كتابه عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية إلى لغات عديدة، وظهرت الطبعة الإنكليزية الأخيرة سنة ١٩٥٢م في أمريكا -في ماديسون (ويسكنسن)-، ويتناول هذا الكتاب دراسة تاريخ الدولة البيزنطية منذ القرن الرابع الميلادي حتى سقوطها سنة ١٤٥٣م. كما اعتمد الباحث على كتب أخرى لهذا المؤرخ منها Byzance et les Arabes الذي يقع في ثلاثة مجلدات عن علاقة العرب بالروم، نقل الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة الجزء الأول إلى اللغة العربية بعنوان العرب والروم، وفازيليف مقالات عديدة في التاريخ البيزنطي، نشرها في مجلات عديدة ولا سيما مجلة Byzantion التي تختص بالدراسات البيزنطية. وقد أفاد الباحث في أغلب فصول الرسالة.

ثانياً: المصادر السريانية:

أهم المؤلفات التاريخية السريانية.

❖ ابن العبري: (٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)

غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي والمعروف بـ ابن العبري (بالسريانية: ܠܚܝܬܐ ܕܥܒܪܝܐ "بار عبري")، ويعرف في أوروبا باسمه اللاتيني "Bar-Hebraeus". هو لاهوتي وفيلسوف وعالم سرياني ولد عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦ ولد في مدينة ملطية، ولقب بابن العبري لأن جده أو والده قدم من قرية (عبري) الواقعة قرب نهر الفرات، وفر مع أبيه إلى أنطاكية، سنة ٦٣٢هـ / ١٢٤٣م، بسبب هجوم التتار، فتعلم العربية والطب، واشتغل

بالفلسفة واللاهوت^(١) ولابن العبري ما يزيد على ثلاثين كتاباً بالسريانية والقليل بالعربية وفيه تلتقي الثقافتان العربية والسريانية معاً^(٢)، وأهم كتبه المتعلقة بموضوع البحث:

❖ **تاريخ الزمان:** كتبه بالسريانية قبيل وفاته ويبدأ ابن العبري الكتاب بآدم ثم دولة قضاة إسرائيل وملوكهم وملوك الكلدانيين والفرس واليونانيين والوثنيين وملوك الإفرنج ثم الروم ليصل إلى دولة ملوك العرب والمسلمين وينتهي بدول ملوك المغول، وقام ابن العبري باختصار هذا الكتاب ونشر المختصر بالعربية تحت عنوان تاريخ مختصر الدول ولم يتبع ابن العبري الطريقة الحولية ولكن توالي الملوك^(٣)، كانت الإفادة من هذا الكتاب في الجانب المتعلق بحروب الروم البيزنطيين مع الفرس.

أهم المصادر العربية:

❖ **الأنطاكي (يحيى بن سعيد بن يحيى ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٧م) تاريخ الأنطاكي.**

ولد بأنطاكية سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م^(٤) وضع كتابه هذا بناءً على رغبة بعض أصحابه فانتهج النهج الذي سار عليه سلفه "سعيد بن البطريق" بطريق الإسكندرية، وبعد تأليفه قام بتغييره وألفه تأليفاً جديداً، ثم انتقل من الإسكندرية إلى أنطاكية سنة ٤٠٥هـ / ١٠١٦م، واطلع فيها على الأحداث، كما وقف فيها على مصادر جديدة، فقام بتتقيح كتابه وأجرى عليه تعديلاً كبيراً. ومن المعروف أن الأنطاكي كان من بين مصادر ابن الأثير، كما نقل منه ابن العديم الحلبي، كما نجد أصداء لكتابه عند العظيمي، وصاحب كتاب "العيون والحدائق في أخبار الحقائق"، وكتاب "تجارب الأمم" لمسكويه، وكتاب "ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسي، وغيره من المؤرخين^(٥).

(١) الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٠م، ج ٥، ص ١١٧.

(٢) مصطفى، شاكراً: التاريخ العربي والمؤرخون، دار العلم للملايين، ط ١، ١٩٩٠م، ج ٢، ص ٤٥٥.

(٣) برصوم: مرجع سالف، اللؤلؤ المنثور، ص ٤٢٥. مصطفى شاكراً: المرجع السالف، ج ٢، ص ٤٥٦.

(٤) عبد الله، يسرى عبد الغني: معجم المؤرخين المسلمين حتى القرن الثاني عشر الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩١م، ص ١٨٧.

(٥) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت: سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٧م): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتخا، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م، ص ٦-٩.

يعد تاريخ الأنطاكي المعروف باسم "صلة تاريخ أوتخا" من المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث، فكان صادقاً في عرضه للأحداث التاريخية على الرغم من أنه كان بطرياً على الإسكندرية، فلم يتعصب بل عرض الوقائع والأحداث كما جرت^(١).

وكانت الفائدة من هذا الكتاب كبيرة جداً ولا سيما لسبب علاجه لكثير من أحداث سياسية، وعسكرية، ودبلوماسية، في الدولة البيزنطية والخلافة العباسية، فضلاً عن الأحداث المهمة التي قدمها عن المشكلات الدينية التي واجهت الدولة البيزنطية أيام الأسرة الأيسورية.

❖ الطبري ابن جرير: (٢٢٤-٣١٠هـ/٨٣٩-٩٢٣م)

محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر المؤرخ المفسر من أهل أمل طبرستان استوطن بغداد وتوفي بها، من أبرز المفسرين والمؤرخين في التاريخ الإسلامي، عرض عليه القضاء فامتنع، تميز الطبري بالورع والزهد، حيث اقتصر في معيشته على ريع بستانه الخاص الذي ورثه عن أبيه، ورفض أية عطايا من الآخرين والملوك، حيث مال طوال حياته للزهد في الدنيا. وأهم مؤلفاته (تاريخ الرسل والملوك) يعرف بتاريخ الطبري، و(جامع البيان في تفسير القرآن) المعروف بتفسير الطبري، وغير ذلك، وهو من تقات المؤرخين.

يعد مؤلفه تاريخ الرسل والملوك الذي غلب عليه طابع السرد التاريخي وذكر الأسانيد، وقد جمع فيه بين تاريخ الأمم الخالية والسير والتراجم من الكتب المرجعية في مجاله، وسابق في فكرته، ويؤرخ للعالم من بدء الخلق إلى نهاية سنة ٣٠٢هـ، من قصة آدم إلى الزمن الذي عاصره الطبري فكان من أهم المصادر في التاريخ العام.

وقد أفاد البحث بشكل خاص ما يتعلق بالحملات العسكرية بين بيزنطة والمسلمين أيام ليون الرابع الإمبراطور البيزنطي و الإمبراطورة إيرين من بعده وأيام الخليفة العباسي المهدي وابنه هارون الرشيد.

(١) الأنطاكي، تاريخ الأنطاكي، ط١، ص ٥-٦.

❖ المسعودي (علي بن الحسين بن علي المكنى بأبي الحسن ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) التنبيه والأشراف - مروج الذهب ومعادن الجوهر.

عراقي رحالة نشأ في بغداد، ورحل في طلب العلم إلى أقصى البلاد، فزار معظم البلاد الإسلامية^(١)، وهو من ذرية الصحابي العالم العلامة الإمام عبد الله بن مسعود قال عنه الكتبي "كان إخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر"^(٢).

وقد أفاد البحث من كتابه التنبيه والأشراف في الفقرة المتعلقة بالبندود (الثيمات) البيزنطية وحدودها ومقاديرها، وبالحديث عن الاتصالات السلمية التي كانت تتم في الثغور بين البيزنطيين، وقد انفرد المسعودي بالحديث عن هذه الاتصالات السلمية دون غيره من المؤرخين العرب. أما كتابه الثاني مروج الذهب ومعادن الجوهر، فقد جمع بين الصبغة التاريخية والجغرافية، ويتناول الحياة الاجتماعية والثقافية لعصر الخلافة العباسية، وفي الوقت نفسه يصف الأنهار والملاحة مشيراً إلى رحلات التجار العرب إلى الهند والصين.

❖ ابن الأثير الجزري (أبو الحسن علي ٥٥٥-٦٣٠هـ / ١١٦٠-١٢٣٢م) الكامل في التاريخ.

هو عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، المعروف ابن الأثير، مؤرخ إسلامي كبير، ولد سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م، وقد غلب على ابن الأثير علم الحديث، بل أكثر من علم الحديث حب التاريخ قال الذهبي عنه: "كان إماماً، وحافظاً، ومحدثاً، وأديباً"^(٣) وكان كما قال -ابن خلكان- حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم ولاسيما الصحابة، توفي في الموصل سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م، ودفن فيها، ولا يزال قبره موجوداً هناك^(٤).

يُعد كتابه الكامل في التاريخ من أهم مؤلفات ابن الأثير في مجال التاريخ، وهو تاريخ عام في ١٢ مجلد منذ الخليقة وابتداء أول الزمان حتى عصره، حيث انتهى عند آخر سنة

(١) المسعودي: أبو الحسن بن علي بن الحسن بن علي (ت: سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح: قاسم الرفاعي، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، ج ١، ص ٧-٨.

(٢) الكتبي، محمد بن شاکر: فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ط ١، ج ٣، عام ١٩٧٤م، ص ١٢-١٣.

(٣) الذهبي، (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م): تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، ط ١، ج ٤، ص ١٣٩٩.

(٤) النويري، (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، عام ١٩٩٣م، ج ٢٩، ص ١٩٣.

٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م فقد أعطى ابن الاثير لتاريخه طابع التاريخ العام، إذ تناول فيه دراسة التاريخ الإسلامي ابتداءً من بدأ الخليقة وانتهاءً عند آخر سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م، أي أنه يعالج تاريخ العالم القديم حتى ظهور الإسلام، وتاريخ العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام حتى عصره، والتزم بالمنهج الحولي في تسجيل الأحداث، فهو يسجل أحداث كل سنة على حدة، وأقام توازناً بين أخبار المشرق والمغرب وما بينهما على مدى سبعة قرون وربع قرن، وهو ما أعطى كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي تاريخ عام لغيره، وفي الوقت نفسه لم يهمل الحوادث المحلية في كل إقليم، وأخبار الظواهر الجوية والأرضية من غلاء ورخص، وقحط وأوبئة وزلازل.

ولم يكن ابن الأثير في كتابه ناقل أخبار أو مسجل أحداث فحسب، وإنما كان محللاً ممتازاً وناقداً؛ حيث حرص على تحليل بعض الظواهر التاريخية وهذا ما جعل شخصيته التاريخية واضحة تماماً في كتابته على الدوام.

وكانت الفائدة من كتابه هذا كبيرة جداً في فصول الدراسة كافة؛ لاحتوائه على معلومات مفصلة عن العلاقات البيزنطية العربية في الحقبة المدروسة. لاسيما فيما يتعلق بهجرة مجموعات كبيرة من الأرمن من أراضي الدولة العباسية إلى بيزنطة أيام الإمبراطور قسطنطين السادس وأمه إيرين.

❖ مجهول دي خويه (العيون والحدائق في أخبار الحقائق)

يتألف هذا الكتاب من خمسة أجزاء، فقد الجزء الأول والثاني والخامس ولم يبق إلا الجزء الثالث والرابع وكان الاعتماد على الجزء الرابع الذي يبدأ بأحداث ٢٥٥هـ/ ٨٣٩م أي أواخر خلافة المهدي، وينتهي بأحداث ٣٥٦هـ/ ٩٦٢م، ولم يرد في القسم المخطوط أو المطبوع ما يشير إلى اسم المؤرخ أو عصره، ولكن هناك إشارة إلى أنه نقل عن أبي محمد الفرغاتي (ت ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م)، كما روى عن أشخاص جاؤوا بعد الفرغاتي بزمان كابن الجزار القيرواني (٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م) والعنقي المتوفى (٣٨٤هـ/ ٩٩٤م).

سار صاحب العيون في تدوين أخباره على طريقة الطبري الحولية، إلا أنه لم يلتزم حرفياً بهذا الخط، بل كان يشذ عن ذلك في كثير من الأحيان^(١).

تم الاستفادة منه فيما يتعلق بوصول الإمبراطور ليون الثالث إلى سدة العرش وأصله ونشأته.

(١) مجهول دي خويه: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، مطبعة النعمان، النجف، ١٩٧٢م، ج ٤، ص ١٠-١٧.

❖ **المقريزي (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية.**

مؤرخ الديار المصرية، أصله من بعلبك، ولد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م، وقد تتلمذ على يد كبار شيوخ عصره وعلمائه في الفقه والحديث والتاريخ^(١)، فتحت له مؤهلاته العلمية باب العمل الحكومي، فكان موقعاً أول الأمر في ديوان الإنشاء، ثم تولى وظائف الوعظ وتدريس الحديث في عدد من المساجد، وتقلب في عدد من وظائف القضاة والإدارة في مصر والشام^(٢). وللمقريزي مؤلفات تاريخية ضخمة بلغ تعدادها حوالي ٣٧ مؤلف، وأفاد البحث من كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار من خلال تفاصيل مهمة عن السفارات البيزنطية التي أرسلها الأباطرة البيزنطيون من أجل المفاوضات لتوقيع معاهدات الصلح.

❖ **الذهبي (شمس الدين محمد بن أبي أحمد بن عثمان بن الحافظ ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٧م) العبر في خبر من غبر.**

تركمانى الأصل دمشقى المولد والوفاء، ومن المؤرخين الدمشقيين الكبار بعد ابن عساكر، وهو مؤرخ الإسلام بصفة عامة، توفي في دمشق ودفن في مقبرة الباب الصغير^(٣). أفاد البحث من كتابه العبر في خبر من غبر في عدة جوانب من البحث.

(١) المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر، القاهرة، د، ت.

(٢) مصطفى المرجع السالف، ج ٣، ص ١٤١.

(٣) المنجد، صلاح الدين: معجم المؤرخين الدمشقيين وأثارهم المخطوطة والمطبوعة، دار الكتاب الجديد، بيروت، عام ١٩٧٨م، ص ٣٤.

ب-الكتب الجغرافية والرحلات:

توضح الكتب الجغرافية الإطار المكاني للمواقع التاريخية التي جرت فيها الأحداث، ويتوجب على كل باحث تاريخي أن يربط الأحداث التاريخية بإطارها الجغرافي العام ومن هذه القيمة العلمية تتبثق أهمية هذه المصادر.

❖ ابن خرداذبة (عبد الله بن أحمد ت ٣٠٠هـ / ٩١٣م) المسالك والممالك.

كان من موظفي الدولة العباسية، تولى البريد في ناحية الجبل^(١)، أفرغ معلوماته الجغرافية في كتابه المسالك والممالك، له عدة مؤلفات في إطار التاريخ والحضارة، غير أنه لم يبق منها إلا كتاب المسالك والممالك^(٢).

وقد كانت الإفادة منه في معرفة مواقع بعض الأمكنة الجغرافية والطرق التجارية البرية التي يسلكها التجار إلى بيزنطة، ويتناول إحصائيات عن الطرق والمسافات.

❖ قدامة بن جعفر (أبو الفرج الكاتب البغدادي ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) نبذة من كتاب

الخراج وصناعة الكتابة.

كتب حوالي سنة ٢٢٦هـ / ٨٤٠م من أهم الجغرافيين العرب، وقد أفاد كتابه "نبذة من كتاب الخراج" البحث في أثناء الحديث عن جبهة الحدود البيزنطية العربية "الثغور والعواصم"، وما أوضحه من تقسيم الثغور وتحديدها، وفي التفريق بينها وبين العواصم.

❖ الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان.

من مشاهير المؤلفين المسلمين، لم تقتصر كتاباته على الجغرافية بل كتب في الأدب والتاريخ أيضاً، كتابه معجم البلدان موسوعة جغرافية تاريخية صنفها على حروف المعجم في خمسة أجزاء، والتزم بترتيب كل كلمة منه على أول حرف وثانيه وثالثه، فجاء مصنفه مهماً دقيقاً سهل الاستعمال أفاد -بصفة خاصة- بالتعريف العام للمواقع الجغرافية الهامة.

(١) ناحية الجبل: وهي ما بين أصبهان إلى الدينور وقرسين والري اذربيجان وقزوین وهمدان. القزويني، زكريا بن محمد بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ١٩٦٠م، ص ٣٤٢.

(٢) ابن حجر، أحمد بن علي: لسان الميزان، مؤسسة العالمي، بيروت، ط ٢، ١٩٧١م، ج ٤، ص ٩٧.

❖ ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) المسالك والممالك (صورة الأرض).

يُعد ابن حوقل من مشاهير الرحالة والجغرافيين العرب، جاب ما بين الهند والأندلس وإيطاليا، صحح كتاب الإصطخري بطلب من مؤلفه قبل أن يكتب كتابه المسالك والممالك المعروف أيضاً بكتاب صورة الأرض^(١).

والكتاب يفصل بلاد الإسلام صقلاً وكورة كورة، وقد أفاد البحث بمعلوماته الجغرافية الهامة وما قدمه من معلومات وأخبار تاريخية مهمة.

❖ المقدسي البشاري (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٤٨٢هـ / ١٠٠٠م) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

ولد عام ٣٣٥هـ / ٩٤٦م. يُعد من كبار الجغرافيين العرب، تنقل في أرجاء العالم الإسلامي، وقدم شروحات وافية لكل ما شاهده في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم^(٢))، وقد أفاد البحث بتقديم معلومات تاريخية مهمة حول أجناس السكان وميولهم السياسية والدينية، وعاداتهم وتجاريتهم.

❖ رابعاً- الدراسات الحديثة باللغة العربية تأليفاً وترجمة:

لا تقل المراجع الحديثة أهمية عن المصادر الأصلية، ولا سيما أنها تسهل للباحث بعض القضايا الغامضة، والتي قد نجد صعوبة بمعرفتها من لغة المصدر، فضلاً عن ما تحويه هذه المراجع من معلومات مأخوذة من مصادر قد لا يتسنى للباحث فرصة الحصول عليها من المصادر مباشرة. ومن أهم هذه المراجع:

❖ غنيم، أسمنت: الإمبراطورية البيزنطية وكرت الإسلامية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

❖ عاشور، سعيد عبد الفتاح: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٢م.

❖ إسماعيل، ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية في عهد هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.

❖ توفيق، عمر كمال: تاريخ الدولة البيزنطية، تقديم محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

^(١) شاكر، مصطفى: ج ٢، ص ٧٠.

^(٢) Sturmd: The arab geographer al Muqaddasi witness popular customs tenth century p.p37-38.

- ❖ الشيخ، محمد محمد مرسى: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.
- ❖ صبرة، عفاف سيد: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ❖ طرخان، إبراهيم علي: الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م.
- ❖ يوسف، جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، ٢٨٤-١٤٥٣م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
- ❖ الجنزوري، عليّة عبد السميع: الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٩م.
- ❖ الجنزوري، عليّة عبد السميع: الإمبراطورة إيرين، القاهرة، ١٩٨١م.
- ❖ رمضان، عبد العزيز: عروض زواج العرائس في البلاط البيزنطي ٧٨٨-٨٨٢م، الدلالات السياسية والدينية، حولية التاريخ الإسلامي الوسيط، العدد الثاني، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- ❖ العريني، السيد الباز: الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
- ❖ عثمان، فتحي: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ج ١.
- ❖ أومان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ❖ عبد الحميد، رأفت: الإمبراطورية البيزنطية (العقيدة والسياسة)، دار قباء، ٢٠٠٠م، ج ١.
- ❖ هسي، ج.م: العالم البيزنطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، دار المعارف، ط ١، ١٩٨٣م.
- ❖ بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤م.
- ❖ رنسيان، ستيفن: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦١م.
- ❖ نورمان، ف. كانتور: التاريخ الوسيط، "قصة الحضارة البداية والنهاية"، ترجمة وتعليق قاسم عبدة قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ❖ رستم، أسد: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار الكشوف، بيروت، ط ١، ١٩٥٦م، ج ٢.

❖ اليوسف، عبد القادر أحمد: الإمبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، صيدا بيروت ١٩٦١م.

❖ ل. م. هارتمان، ج باراكلاف، ترجمة الدكتور جوزيف نسيم، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٧٠م.

كما عثرنا على بعض الدراسات الأجنبية ذات الأهمية الكبيرة، لما امتازت به معلومات نادرة وقيمة، بسبب اعتمادها على المصادر البيزنطية الأساسية وتتصدر في مقدمة هذه الدراسات:

- Anastos (M.V.): The Cambridge Medieval History Vol, IV, The Byzantine Empire Part I: Byzantium and its Neighbours, Cambridge, the University Press, 1966.
- Amann (E): Histoire de l'Eglise, No, 6, l'époque Carolingienne, Paris 1947.
- Brehier (L.): Vie et Mort de Byzance, Paris 1947.
- Diehl (C.): Histoire de l'Empire Byzantine, Paris 1924.
- Halphen (L.): Les Barbares, troisième Edition, Paris 1936.
- Hamlyn: The Medieval and Renaissance World, General Editor Esmond Wright.
- Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History General Editor: Marcel Dunan, Foreword by Arnold Toynbee.
- Michel Le Syrien: Chronique de Michel Le Syrien, Traduite en Français par J.B. Chabot, Tome II Fascicule 11, Paris 1902, Tome III, Paris 1905.
- Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine state, Translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.
- Previte-Orton (C.W.): The Shorter Cambridge Medieval History, V. I Cambridge University, 1977.

- Vasiliev (A.A.): *Histoire de l'Empire Byzantin*, T. I Editions A Picard Paris, 1932.
- Einhard: *The life of Charlemagne* Tenth, ed, Michigan, 1975.
- Judith Herrin: *Women in Purple*, Princeton Univ. Press, 2001
- Garland, Lynda: *Byzantine Empresses: Women and Power in Byzantium, AD 527–1204*. New York: Routledge, 1999.
- Diehl, Charles: *Theodora: Empress of Byzantium*. Trans. By Samuel R. Rosenbaum. New York: Frederick Ungar Publishing Co., Inc., 1972
- Gibbon, Edward: *The History of the Decline and Fall the Roman Empire, Vol III, The Modern Library Chicago:1952*.
- Hodgkin: *Italy and her Invaders*, Vol 4. Oxford 1896.
- Hussey: *Byzantine World* London, 1967.
- Joseph, MC: *Cape, the Empresses of Constantinople*, London, 1913.
- Romilly, J, H, Jenkins: *Studies on Byzantine History of the 9th and 10th Centuries* Variorum Reprints London, 1970.
- Theophanes, Gofessor: *The Chronicle of Byzantine and Near Eastern History AD. 284–813*, trans, C, Mango & R, Scott, Oxford, 1997.
- Treadgold, W: *The Byzantine REVIVAL 780–842*, Stanford, 1988.
- Kazhdan, A: (ed.) *Oxford Dictionary of Byzantium*, 3 vols, Oxford, 1991.

الفصل الأول
الأوضاع العامة في الإمبراطورية البيزنطية قبيل
تولي إيرين للعرش

أولاً- الأوضاع السياسية والاقتصادية:

أ- وصول الأسرة الهرقلية إلى الحكم.

ب- حروب الأسرة الهرقلية .

ج- تأثير الناحية الاقتصادية بالسياسية.

ثانياً- الأوضاع الدينية والاجتماعية:

أ- المشكلات الدينية التي واجهت الأسرة الهرقلية.

ب- تغلغل الناحية الدينية في الحياة الاجتماعية.

ج- صفات المجتمع البيزنطي وأهم طبقاته.

ثالثاً- دراسة عن الأسرة الأيسورية:

أ- وصولها إلى العرش البيزنطي.

ب- نهايتها وبداية التداعيات والثورات في الإمبراطورية البيزنطية.

أولاً_ الأوضاع السياسية والاقتصادية:

أ- وصول الأسرة الهرقلية للحكم:

منذ أن أصبحت القسطنطينية رسمياً عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية، والتي عرفت بالدولة البيزنطية في العام ٣٣٠م) تسجل الأحداث التاريخية سجلاً حافلاً بالدماء والقتل، ونشوب الثورات المسلحة، ولعل الوقائع التي صاغت الحقائق السياسية الجديدة المتمثلة في الإقدام على قتل الحاكم الشرعي، وإسقاط ولاية العهد شكلت جميعها سابقة خطيرة، ألقت بظلالها على مصير الدولة البيزنطية، ويمكن الاستشهاد بحدث وصول فوكاس إلى عرش بيزنطة (٦٠٢-٦١٠م) الجندي المتوحش، المتصف بصفات خُلقية تنافي القيم النبيلة، فقد كان قاسي الطباع، بعيداً عن المنطق في تفكيره، يغلب على ظنه التشكيك والسوء، أستولى على العرش بعد قتل الإمبراطور موريس الذي حكم في الحقبة الممتدة من العام ٥٨٢م إلى العام ٦٠٢م، وقد تمتع بمناقب حميدة منها الاعتدال والتقى، وكان مقتصدًا، غير أن أخطائه وحظه العاثر كانت جميعها الأسباب التي دفعت إلى إسقاطه.

ويُعدُّ عهد فوكاس فاتحة أسلوب جديد غير معهود في الحكم يقوم على الترويع والإمعان في القتل، إذ أقدم على قتل الإمبراطور موريس وزوجه قسطنطينا Costanneme، وقتل ابن الإمبراطور تيبريوس Theperus II الثاني وبناته الثلاث وهن في سن صغيرة بحجة قطع الطريق على من يحاول استغلال اسمائهن في تدبير مؤامرة ضده.

لم تقتصر أعمال فوكاس على الأسرة الإمبراطورية، إذ تخطت فعاله الشنيعة كل تصور عندما أحرق القائد نارسيس (٥١٨-٦١٠م) Narses حياً، وهو القائد المشهود صاحب الجوائز والثناءات على أمجاده، فقد نال كثيراً من أكاليل الغار بسبب انتصاراته في الحروب الفارسية^(١)، وحقق النصر المبين على الممالك الجرمانية في أيام أسرة جستنيان^(٢).

حفزت أساليبه العنيفة على استفحال الدسائس والمؤامرات ضده، وكان يقابلها بمزيد من العنف، إذ تمكن من القضاء عليها وقام بتعذيب المتآمرين عليه، وذبحهم، غير أن خطر الفرسي هذه

(١) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، تعريب: مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٠٠.
(٢) الحديثي، قحطان عبد الستار، وصالح الهادي: دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، منشورات جامعة العراق، البصرة، ١٩٨٨م، ص ٢٨.

الأثناء كان آخذاً بالتوغل التدريجي في آسيا الصغرى، يجتاح كبادوكية وغلاطية وخلقدونية، ترافق توغله عمليات حرق القرى والمزارع على الساحل الآسيوي قبالة العاصمة البيزنطية. واكتسح الصقالبة^(١)، وتراقيا، مما يعني أن الأخطار والهجمات والحروب أهدقت بأصقاعها، فلم يبقى جزء من أجزاء الإمبراطورية البيزنطية لم يلحق به أذى^(٢). تزامنت هذه الأحداث مع اشتداد ضغط الأوار على الجبهة البلقانية^(٣)، وكان مؤهلات الإمبراطور فوكاس لا تعينه على اتخاذ المواقف الشجاعة، مما دفعه إلى شراء السلم من الأوار عن طريق دفع الجزية إليهم في عام ٦٠٤م غير أن الأوار والصقالبة لم يتوقفوا عن اجتياح شبه جزيرة البلقان بكاملها، مما أدى إلى إيصال الإمبراطور إلى شفا هاوية سحيقة^(٤). لم يقتصر الخطر المحدق بعرش فوكاس على الهجمات الخارجية، إذ دفعت سياسته العنيفة، وجرائمه الدموية إلى استنهاض أخطار داخلية تمثلت في تخلي كبار قادة الجيش البيزنطي عن الخدمة العسكرية، واتصال أعضاء مجلس السناتو^(٥) -بصورة سرية- بالفرس يطالبونهم بالمعونة للإطاحة بهذا الطاغية المتعطش لإراقة الدماء^(٦)

(١) بروي، إدوار: تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، نقله إلى العربية يوسف أسعد تاغر، وفريد تاغر، منشورات العربيات، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٥٤.

(٢) رستم، أسد، الروم في سياساتهم وحضاراتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكتبات، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٢٣٠.

(٣) شبه جزيرة البلقان وهي بلد يمتد من البحر الإرياني في الغرب والبحر الأسود وبحر إيجة في الشرق، وتشمل الجبهات الحالية معظم شبه جزيرة البلقان وتشمل يوغسلافيا، بلغاريا، اليونان، .. محمد جلال الدين، أوروبا في مجرى التاريخ دراسة جغرافية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص ٤٣٩.

(٤) عاشور، سعيد عبد الفتاح: أوروبا في العصور الوسطى التاريخ السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ١٠٨.

(٥) مجلس السناتو، أو مجلس الشيوخ وهي مؤسسة سياسية مهمة لها وزنها السياسي في الدولة الرومانية الغربية، وكان يبلغ عدد أعضائه حتى مطلع القرن الأول ق.م ٣٠٠ عضو يمثلون الأسر النبيلة الكبيرة في المجتمع الروماني. الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت: سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٤٣.

علي، عبد اللطيف أحمد، التاريخ الروماني، عصر الثورة، دار النهضة العربي، بيروت، ١٩٧٣م، ص ٣٠-٥.

(٦) عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٢م، ص ١٠٨.

اتسعت دائرة الرفض لسياسات فوكاس وثار بعض أفراد المعارضة من الأهالي وأحزاب العاصمة^(١) مجتمعين في سالونيك^(٢) ملتجئين إلى هرقل حاكم شمال إفريقيا لطلب المساعدة، فاستجاب الإمبراطور إلى طلبهم وبعث بابنه هرقل فلافيوس أغسطس هرقل Flavius Heraclius Augustus ٦٠٩-٦٤١ م على رأس الأسطول الإفريقي لمحاربة فوكاس^(٣).

رسم هرقل الأول خطة سيره بصورة محكمة وجعل مروره بجزر البحر المتوسط التابعة للإمبراطورية البيزنطية^(٤) ليضم إلى جانبه بعض القوات وقطعاً من الأسطول، حيث لقي في تلك الجزر والمدن الساحلية ترحيباً كبيراً.

وجعل من مدينة سالونيك على سواحل بلاد اليونان مركزاً لعملياته العسكرية، واتجه نحو مضيق الدردنيل وعند اقترابه من العاصمة انتشرت الفتنة بين الجند الموالين للإمبراطور فوكاس ولم يصمد أسطول فوكاس طويلاً أمام ضربات أسطول هرقل وسقطت العاصمة، وألقي القبض على الإمبراطور فوكاس، وأُقتيد مقيداً حتى وصل إلى حضرة هرقل فتُليت عليه قائمة الجرائم التي ارتكبها وأدين بها، وسيق إلى الإعدام، وفي الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ٦١٠ م نودي بهرقل إمبراطوراً وتوج وفقاً للتقاليد المتبعة^(٥).

كان الإمبراطور هرقل جندياً نشيطاً وعلى درجة عالية من الكفاءة، جعله اعتلاء العرش بعد فوكاس المستبد بمثابة الحاكم المثالي في عيون معاصريه، والواقع أن هرقل يُعد من أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي على الرغم مما أهدق بالإمبراطورية من أخطار وما استفحل فيها من مشكلات، إذ حاول بذل قصارى جهده للتغلب على هذه الأخطار والمشكلات، وإذ كان قد

(١) أحزاب العاصمة: كانت القسطنطينية مقسمة إدارياً وسياسياً إلى أربع فرق يشار لها بالألوان الزرقاء والخضراء والحمراء والبيضاء، وسيطرت الفرقتان الخضراء والزرقاء منذ القرن الخامس الميلادي على المدينة وجميع مظاهرها، لأنها كانتا أقوى الأحزاب، وكانت لهما ثورات عديدة ضد الأباطرة البيزنطيين، كانت أقواها ثورة النصر عام ٥٣٢ م التي حدثت في زمن الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٧-٥٦٥ م).

اليوسف، عبد القادر احمد، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦ م، ص ٦٩-٧٠.

(٢) سالونيك: مدينة رومانية قديمة تقع في شبه جزيرة المورة (البيلو بونيز)، وقد كانت من أهم المدن التجارية وذلك لاحتوائها على ميناء مهم للإمبراطورية البيزنطية، وكانت تحميها أسوار ضخمة ومجانيق قوية مما جعلها قادرة على صد أية هجمات من قبل أعدائها خاصة الصقالبة. القيمري، بروكوبوس، الحروب القوطية، تر: عفاف سيد صبرة، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ب، ت، ص ٥١.

(٣) الحديثي، قحطان عبد الستار، صلاح الدين الحيدري: دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، منشورات جامعة العراق، البصرة، ١٩٨٦ م، ص ٢٨١. ص ٣٠٩-٣١٠.

(٤) ابن العبري، (أبو الفرج غريغوريوس بن هارون الملطي ٦٨٥ هـ/ ١٢٨٦ م)، تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه الأب انطوان، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٥٨ م، ص ٩١.

(٥) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٠٩-٣١٠.

أخفق في إحراز نجاح كامل في هذا المجال فذلك راجع إلى العوامل التاريخية التي كانت أقوى من شخصه وإمكانيات دولته في عهده^(١).

تولى من العام ٦١٠م عرش الإمبراطورية البيزنطية، ويُعدّ هذا التاريخ نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، مرد ذلك إلى سببين أولهما إنه بتوليّه الحكم اتخذت بيزنطة منعطفاً نحو حضارة وهوية ثقافية متميزة عن التراث الإغريقي والروماني الوثني القديم، بعد أن ثبتت المسيحية أركانها في الأراضي الرومية واقتلعت التراث الوثني القديم، فضلاً عن امتزاج حضارته مع حضارة الروم المبكرة فتأثرت بالفن والثقافات المختلفة كالفارسية والأرمينية والقبطية، ومن هذا المزيج بدأت ملامح حضارة رومية جديدة، وسيطر عليها تماماً الفكر الكنسي، بدأت هذه الحضارة الجديدة بالانتشار في شبه جزيرة البلقان حيث كانت لغة الكنيسة الشرقية هي اللغة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية، كما تنازل هرقل عن الألقاب اللاتينية التقليدية والموروثة كافة عن الإمبراطورية الرومانية. أما السبب الثاني فهو ظهور نور الإسلام في الجزيرة العربية على العالم بأسره^(٢).

ب- حروب الأسرة الهركلية:

ساعت الأحوال حين تسلم هرقل العرش، بسبب ما عانتها البلاد من خراب ودمار وتردٍ في أحوالها الاقتصادية والمالية والإدارية، ويضاف إلى هذا وذاك أن النظام الحربي القائم على الاعتماد على المرتزقة قد أضحى عديم الفائدة، إذ خوت الخزنة من الأموال ولم يعد باستطاعة الدولة أن تتخذ جنوداً من مصادرها القديمة، كما أن الأقاليم الكبيرة الواقعة وسط الإمبراطورية تعرضت لغارات العدو، ووقفت الدولة عاجزة إزاء ضربات الأعداء، مما دفع الإمبراطور هرقل إلى التفكير في نقل مركز قيادته إلى قرطاجة بإفريقية غير أن حمية نفوس أهالي القسطنطينية وما أبداه البطارقة لاسيما البطريرك سرجيوس الأول (٦١٠-٦٣٨م) من مقاومة شديدة لهذه الخطة، أثنى الإمبراطور هرقل عن هذا الاقتراح الأمر الذي دلّ على خطورة الموقف في الشرق، وعلى أهمية الأقاليم الغربية للدولة البيزنطية^(٣).

(١) توفيق، عمر كمال: تاريخ الدولة البيزنطية، تقديم محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ٩٩.

(٢) الناصري، ص ٣٣٨.

(٣) الباز العريني، الدولة البيزنطية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١١٥-١١٦.

ويبدو من الأحوال المالية المزرية أن الإمبراطور المغتصب فوقاس وضع يده على كل شيء بما في ذلك الأمور المالية وأنفق الأموال على شراء ذمم أصحابه ومرافقيه حتى أصبحت الخزينة خاوية^(١).

وبدأ الخطر الفارسي يتفاقم ضد الإمبراطورية البيزنطية إذ اتخذ الملك كسرى أبرويز (٥٩٠-٦٢٨م) - وتعني المظفر - من مقتل الإمبراطور السالف موريس ذريعة تذرعه بها لإعلان الحرب على الإمبراطورية البيزنطية^(٢)، وعلى الرغم من مقتل فوقاس إلا أن الحرب استمرت بعد ذلك، ففي عام (٦١٣م) بينما كانت الجيوش البيزنطية تدافع عن إقليم كبادوكيا Cappadocia بآسيا الصغرى هاجم الفرس أنطاكية والرها وقنسرين وحمص وقيسارية ومنيت حاميات الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تعسكر هناك بهزيمة كبيرة، الأمر الذي ساعد على تقوية مركز القوات الفارسية في تلك المناطق، وقاموا بالهجوم على دمشق والإسكندرية، وطُردت القوات البيزنطية من أرمينيا وحاصر الفرس بيت المقدس عام ٦١٤م حيث أرسل القائد الفارسي شهرباراز Chahrbaraz^(٣) من مقر قيادته رسلاً إلى حاكم بيت المقدس يطالبه بتسليم المدينة فكان له ذلك، فدخل الفرس المدينة واستولوا على خشبة الصليب الحقيقي والمنديل المقدس^(٤) الذي كان يعد من أهم الآثار الدينية عند المسيحيين، ونقلوه إلى عاصمتهم طيسفون "المدائن"^(٥)، كما استولى الفرس على جزيرة رودس^(٦)، وهكذا لم يبقَ للإمبراطورية البيزنطية سوى القسطنطينية وجزر بحر إيجه وجنوب إيطالية وولاية شمال أفريقية وجزءاً محدوداً من غرب آسيا الصغرى^(٧).

(١) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٠١.

(٢) كريستن، آرثر: إيران في عهد الساسانيين، تر: يحيى الخشاب، مراجعة عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٨٣.

(٣) شهرباراز: هو القائد الأعلى للجيوش الفارسية، وهو ليس اسماً بل لقباً، واسم هذا القائد هو خوريام، ويُطلق عليه الفرس كراز أو روميزان. ابن عبد الحكم، أبو القاسم، عيد الرحمن بن عبد الله القرشي: فتوح مصر والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، المعادي، ١٩١١، ص ٥٣.

(٤) الصليب والمنديل المقدس: وهي الخشبة التي يدعي المسيحيون أنه قد صلب عليها السيد المسيح، أما المنديل المقدس فيقال أن السيد المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورته فيه. غنيم، أسمت: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ٢٢١.

(٥) طيسفون: كانت عاصمة الإمبراطورية الساسانية، هي تيسفون كما ذكرت في كافة المصادر الفارسية، ووردت في المصادر العربية باسم المدائن (جمع مدينة)، وهي تتكون من مجموعة مدن صغيرة تقع على الضفة الشرقية من نهر دجلة مقابل سلوقية. الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٥٧.

(٦) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ٩٢.

(٧) جوناتوقه، يوسف عزت باشا: تاريخ القوقاز "يبحث عن أهمية بلاد القفقاس السياسية والحربية وعن منشأ أممها وشعوبها وقبائلها وتاريخها الحربي من قديم الزمان"، تعريب خوستوفه عبد الحميد غالب بك، (إسطنبول، ١٩١٢م)، ص ٣٤.

أخذ الإمبراطور هرقل إزاء هذا الخطر يعمل بجد فكانت له معهم حروب كثيرة، غير أنه لم يستسلم للوقائع القاسية وإنما قضى اثنتي عشرة سنة في تنظيم الإدارة الحكومية ومراقبة حركات أعدائه، فقد استطاع أن يؤمن المال اللازم من الكنيسة التي أظهرت شعوراً طيباً حين قدمت له ما لديها من حلي وذهب وفضة لتصهر وتُسك نقوداً، وعندئذ تيسر لهرقل تكوين جيش من المرتزقة كما أمن ظهره من جانب الآوار فاشتري مسالمتهم مقابل مبلغ من المال^(١).

وأبحر هرقل في ربيع عام ٦٢٢هـ/م إلى خليج أسوس عند الركن الجنوبي الشرقي لآسيا الصغرى حيث أنزل هزيمة ساحقة بالفرس، فاستعاد منهم كبادوكيا بآسيا الصغرى، وأرمينيا وأجبرهم على الانسحاب من آسيا الصغرى، ولم تمر ثلاث سنوات أخرى حتى كان هرقل قد أجبر الفرس على الجلاء -أيضاً- عن بلاد الشام ومصر وأعادها إلى حظيرة الدولة البيزنطية، واستعان هرقل بقبائل الخزر والقوقاز ضد الفرس وأصبحت تلك المناطق المتاخمة لحدود إيران ميادين قتال مريرة، وأحرز البيزنطيون انتصارات حاسمة على الفرس في مدة ١-٧هـ/ ٦٢٢-٦٢٨م وفتحت معركة نينوى (الموصل) سنة ٦هـ/ ٦٢٧م في العراق التي اندحر فيها الفرس، فأصبح الطريق أمام البيزنطيين مفتوحاً للزحف على بلاد فارس^(٢).

كما أن سوء العلاقات بين كسرى الثاني أبرويز وقائد الجيوش الفارسية شهرباراز الذي تحالف مع هرقل ضد كسرى كان من بين الأسباب التي ساعدت هرقل على تقوية مركزه^(٣). فقد عجز كسرى بعدها عن تعبئة قواته مرة أخرى، وكان في ذلك فرصة استغلها هرقل من أجل الاستيلاء على قصر كسرى ويسمى دسنكرد^(٤)، ووزع على جنوده الغنائم، فلجأ كسرى إلى المدائن ولكنه فر منها بعد اقتراب القوات البيزنطية منها، وبعد أيام حلت النهاية بكسرى إذ قبض عليه ابنه قباد شيرويه Kabba Siroes ٧هـ/ ٦٢٨م بمساعدة كبار رجال الدولة، وبعد ذلك مات كسرى هماً^(٥).

(١) عاشور، تاريخ أوربا، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣١٣.

(٣) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي: فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، ليدن ١٩٣٠م، ص ٣٧.

(٤) دسنكرد: هي مدينة فارسية بنى فيها كسرى قصراً له، عُرف بقصر دسنكرد، وبجواره بنى قصراً آخر عُرف بقصر

شيرين وقد شيده كسرى لعشيقته شيرين، لمزيد من التفاصيل ينظر إلى كرستين، ص ٤٣٨.

(٥) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: التاج في أخلاق الملوك، تحقيق ونشر دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٢٩٨-٢٩٩.

أرسل ملك دولة الفرس الجديدشيويه رسالة يعتذر فيها من هرقل عما اقترفه أبوه من جرائم ووعده أن يرد جميع ما سلبوه واستولوا عليه ومن ضمنه الصليب الحقيقي، وفي مارس عام (٦٢٨م) ختمت الست والعشرون سنة من الحروب بين الفرس والبيزنطيين بصلح عظيم^(١)، وقد مكنت الانتصارات التي حققها هرقل ضد الفرس من التفرغ لتأديب القبائل الأوارية والسلافية، وزادت من هيبة هرقل في الخارج فتودد إليه الحكام من الشرق والغرب، حيث أرسل إليه إمبراطور الهند وفداً للتهنئة، كما أرسلت ملكة الفرس وتدعى بوران بنت كسرى^(٢) ٨-١٠هـ/٦٢٩-٦٣١م مبعوثاً إلى هرقل لتبرم معاهدة الصلح معه، وترتب على هزيمة الآوار بعد نقضهم معاهدة الصلح أن خرج عن طاعتهم الصقالبة، والبلغار وتحالفوا مع هرقل، وبذلك زادت شوكة العنصر البيزنطي، ونعمت بيزنطة بقدر من الراحة والهدوء^(٣).

لم يطل الاستقرار بالدولة البيزنطية، إذ أعقبته ظهور قوة متنامية في الشرق الأدنى تمثلت في الدولة العربية الإسلامية.

وكان لفرض الجهاد في سبيل الإسلام ونشره، الأثر الأكبر في توسع الدولة الإسلامية في الشرق والغرب، مما يعني فقدان الدولة البيزنطية الأجزاء الشاسعة من مساحتها أمام الفتح الإسلامي، لم تكن الدولة الفارسية المنهكة بسبب الحروب مع بيزنطة بمعزل عن هجوم الدولة الإسلامية، فقد سقطت في زمن الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-^(٤) ٢٣-٣٥هـ/٦٤٤-٦٥٥م.

سلف حروب الفتح الإسلامي دعوات من الرسول الكريم (ص) إلى ملوك العالم القديم وأباطرته، إذ قام بإيفاد الرسل إلى كل من هرقل وكسرى والمقوقس والحارس الغساني يدعوهم إلى الإسلام، وقد ختم رسائله إليهم بخاتمه المنقوش عليه (محمد رسول الله)^(٥).

ومما جاء في رسالته إلى هرقل "بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتيك

(١) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) العصفري، خليفة بن خياط البصري: تاريخ خليفة بن خياط، رواية بقي بن مخلد، حققه سهيل زكار، القسم الأول دمشق، ١٩٦٧م، ٦٦/١.

(٣) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٣٤١.

(٤) رايس، تالبوت: تراث فارس، فارس وبيزنطة، ترجمة محمد كفاقي وآخرون، مراجعة يحيى الخشاب، أشرف على نشر: أ. ج. أدبيري، دار إحياء الكتب العربية، ب، م، ١٩٥٩م، ص ٦٥.

(٥) الطبري، (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت ٣٠٩هـ/٤٣٨م)، تاريخ الرسل والملوك، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٧٤١.

الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين" ^(١)، فرد عليه الإمبراطور هرقل رداً حسناً وأرسل إليه الهدايا ^(٢).

بدأ المسلمون أولى حملات فتوحاتهم على المناطق البيزنطية سنة ٦٢٩هـ/٦٢٩م لنشر الدعوة الإسلامية وللسيطرة على طريق اليمن- الحجاز- سورية، ذلك الطريق التجاري التاريخي المهم ^(٣)، وكانت هذه الحملة بقيادة زيد بن حارثة الذي استشهد في معركة مؤتة عام ٦٢٩هـ/٦٢٩م الواقعة عند الجهة الجنوبية الشرقية من البحر الميت. كما قاد الرسول صلى الله عليه وسلم حملة بنفسه إلى تبوك عام ٦٣٠هـ/٦٣٠م وسار الخليفتان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما على ذلك النهج، وانتصر المسلمون في سنة ٦٣٤هـ/٦٣٤م على البيزنطيين في معركة أجنادين.

وسقط في أيديهم العديد من المدن أهمها بصرى ودمشق عام ٦٣٥هـ/٦٣٥م ^(٤). أثارت هذه الانتصارات هرقل فقام بجمع جيش كبير لمقاتلة المسلمين بقيادة أخيه ثيودوروس Theodorus حيث اشتبك الفريقان في معركة اليرموك الحاسمة عام ٦٣٦هـ/٦٣٦م، وأسفرت عن مقتل ثيودوروس فاضطر هرقل إلى الاستسلام للأمر الواقع بانسحابه النهائي من سورية وتوديعها ^(٥)، كما تم للمسلمين فتح مصر عام ٦٤٢هـ/٦٤٢م على يد القائد عمرو بن العاص ^(٦). وهكذا تمكن المسلمون في منتصف القرن السابع الميلادي من السيطرة على سورية ومصر والعراق وعلى قسم كبير من الأجزاء الجنوبية الشرقية من آسيا الصغرى وتمكنوا في نهاية هذا القرن من فتح شمال أفريقية بأجمعه ^(٧).

^(١) الأريسيون: هم أتباع مذهب أريوس الذي ينكر ألوهية السيد المسيح. إسماعيل، ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٢٦.

^(٢) ابن الاثير، حوادث عام ٦هـ، ص ٢١١-٢١٣. نصار، حسن: أدب المراسلات في العصر الأموي، مجلة عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد الرابع عشر، الكويت، ١٩٨٣م، ص ٦٣٥. ابن سلام، أبو عبيد القاسم: كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل مراس، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٣٩.

^(٣) علي، إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام، الجاهلية- الدولة العربية- الدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٢٠٨.

^(٤) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠٦.

^(٥) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٤٢.

^(٦) خليفة بن خياط، ص ١٣٦-١٣٧.

^(٧) عثمان، فتحي: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الثاني في التاريخ الحربي، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٩.

واصل المسلمون فتوحاتهم في أراضي الإمبراطورية البيزنطية فاستولوا على جزيرة قبرص^(١) بالمهادنة، وذلك في أيام ولاية معاوية بن أبي سفيان^(٢)، وأنزلوا هزيمة ساحقة بالأسطول البيزنطي بقيادة الإمبراطور قنسطانز الثاني، كما استولوا على جزيرة رودس وتوغلوا في بحر إيجه وكان هدفهم القسطنطينية وذلك عام ٤١١هـ/٦٦١م^(٣)، وبلغ الخطر الإسلامي أقصاه في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع إذ فرض المسلمون حصاراً على العاصمة منذ عام ٥٢هـ/٦٧٢م حتى عام ٥٧هـ/٦٧٧م غير أنهم لم يستطيعوا فتحها لمناعتها، ولبرودة الشتاء فيها، ولاستبسال البيزنطيين في الدفاع عنها، وكذلك بفضل السلاح الجديد الذي استخدمه البيزنطيون وهو النار الإغريقية أو السائل النفطي الملتهب مما اضطر الأسطول الأموي إلى رفع الحصار عن القسطنطينية وهو الأمر الذي اضطر معه معاوية لعقد هدنة مع الإمبراطور قسطنطين الرابع^(٤).

وتعدُّ معركة ذات الصواري عام ٣٥هـ/٦٥٥م التي وقعت بالقرب من ثغر فينيكوس Phoenicus على ساحل آسيا الصغرى بداية موقعة للمعارك البحرية بين الدولتين حيث كانت معركة قاضية على تفوق الأسطول البيزنطي^(٥)، غير أن الأمويين أخفقوا في استغلال انتصارهم بسبب الاضطرابات الداخلية التي ألمت بالدولة الأموية فقد أخفقوا، ولم يواصلوا تقدمهم إلى القسطنطينية، تتابعت الحملات البحرية على الدولة البيزنطية وجزرها كما ساندتها الحملات البرية مما اضطر الدولة البيزنطية إلى إبداع نظام البنود وإدخاله في ولاياتها البحرية لمواجهة

(١) جزيرة قبرص قام معاوية بن أبي سفيان في عهد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، (٦٤٤-٦٥٦م) بفتح قبرص عام (٦٤٩م) ونجح جستنيان الثاني في الانتصار على المسلمين عام (٦٨٩م) واضطر الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥م) إلى الموافقة على أن يكون حكم قبرص مشترك بينهما، ولكن تجدد النشاط الإسلامي من حين لآخر إما لتأكيد قوتهم وإما لنشر الهدوء، وقد تم استرداد بيزنطة للجزيرة في عهد الإمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) الذي أرسل إليها حملة بحرية بقيادة البطريك نفيثاس. الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر: كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخرسان، مطبعة المحروسة، القاهرة، عام ١٨٩١م، ص ١٤٤-١٤٧-١٤٨. إسمنت غنيم، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٢) الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غربال، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٩٦١م، ص ٥١.

(٣) أبو الفداء، الملك المؤيد اسماعيل: المختصر في أخبار البشر "أوله ذكر ابتداء الدولة الأموية بالأندلس، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م، ص ١٠١.

(٤) اخترعه كالينيكيوس Callinicus وهو يوناني من أصل سوري. الأطرقجي، رمزية: نشاط العرب البحري في البحر الأبيض المتوسط، مجلة المؤرخ العربي، العدد التاسع والثلاثون، السنة الخامسة عشر، بغداد، ١٩٨٩م، ص ١٣٤.

(٥) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري: بدائع الزهور في وقائع الزهور، مطابع الشعب، بدون مكان، ١٩٦٠م، ص ١٢.

خطر المسلمين المتصاعد^(١) تجددت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الحرب مع البيزنطيين تحت حكم الإمبراطور جستنيان الثاني فاصطدم الفريقان عند سيواس^(٢) وانضمت العناصر الصقلية والسلافية إلى المسلمين وكتب لهم النصر^(٣).

واصل المسلمون اندفاعهم من مصر ضد المراكز البيزنطية في الشمال الأفريقي فاستولوا على قرطاج وبلغوا سواحل الأطلسي ثم زحفوا إلى إسبانيا حيث قوض كل من القائد طارق بن زياد وموسى بن نصير حكم القوط الغربيين^(٤) فيها^(٥).

ج- الأثر الاقتصادي في السياسة البيزنطية:

أدى تأسيس القسطنطينية على مضيق البوسفور إلى إضعاف الملاحة المصرية والتجارة الخارجية، إذ تحولت صادرات الشرق الأقصى إليها عن طريق الخليج العربي ثم جزيرة العرب وبلاد الشام، وذلك خلال القرن السابع الميلادي، بحملها على ظهور جمال وحمير القوافل بدلاً من عبورها البحر الأحمر واختراق مصر إلى الإسكندرية ثم البحر المتوسط، غير أن الوضع تغير فيما بعد، إذ تمت العودة إلى طريق البحر الأحمر والثغور المصرية بعدما قطع الفرس طريق القوافل الآتي من الخليج العربي، وبذلك عادت الإسكندرية إلى أهميتها التجارية وأخذت تصدر الحرير والعطور والأخشاب وورق البردي والتوابل والقمح إلى القسطنطينية^(٦)، وسادت بيزنطة كقوة بحرية وصناعية كبرى عالم البحر المتوسط، بجانب كونها مركزاً رئيسياً للتجارة الدولية وسوقاً مزدهرة لشرق أوروبا، والهند، والصين، وفارس، والشام، ومصر، وشمال أفريقية^(٧).

(١) الحيارى، مصطفى علي، حياة الناس في الثغور "مدينة طرسوس" مجلة الدراسات التاريخية، العدد الرابع، دمشق، ١٩٨١م، ص ٨٦. نظام البنود البيزنطية أو ما يُسمى Them، وتعني فرقة من الجيش تُعسكر في إقليم، رنسيمان، الحضارة البيزنطية: تر، عبد العزيز جاويد، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٦١، ص ٩٧.

(٢) سيواس: هي مدينة بآسيا الصغرى يحدها شمالاً طرابيزون ومن الشرق طرابيزون وأرض الروم وديار بكر، ومن الجنوب مرعش وقونية، ومن الغرب أنقرة، وتبلغ مساحتها نحو ٢٥,٠٠٠ ميل مربع. الندوي، معين الدين، معجم الأمكنة التي لها ذكر في نزهة الخواطر، مطبعة دائرة المعارف، ب، م، ب، ت.

(٣) عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ص ١٥-١٦. الرئيس، ضياء الدين، عبد الملك بن مروان (موحد الدولة العربية، حياته، وعصره)، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ٢٦١، ٢٧٠.

(٤) القوط الغربيون: Visigoths وترجع جذورهم إلى القبائل الجرمانية عبروا البحر البلطي من إسكندناوة قبل القرن الرابع ق.م ووصلوا نهر الفستولا ثم استقروا في دالماتيا والبلقان واستوطنوا إسبانيا. عاشور، تاريخ أوروبا، ص ٦٥.

(٥) اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٧.

(٦) ماهر، سعاد: البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٥٢.

(٧) إبراهيم، سهير محمد أحمد: التطور الاقتصادي في العصور الوسطى ومصر الحديثة، كلية التجارة، مصر، ١٩٩٠، ص ١٢٧.

ونظراً لاشتهارها بأسواقها العالمية التي توجد فيها المصنوعات جميعها فقد عملت على أن تظل أسعار معروضاتها رخيصة لاجتذاب التجار^(١).

بقيت إفريقيا على نهجها القائم في التعامل التجاري مع القسطنطينية، ولم تتأثر العمليات التجارية بالأحوال المضطربة التي سادت الدولة البيزنطية في القرن السابع الميلادي، ولم تتأثر -كذلك- بإقدام الصقالبة على ركوب البحر^(٢).

كان للكنيسة البيزنطية أثرها الكبير في السياسة والاقتصاد، فضلاً عن الدين، فقد ساندت الإمبراطور هرقل في بداية حكمه، وأمدته بالذهب والفضة والمال اللازم، من أجل الصمود في وجه الأخطار المحدقة- في ذلك الوقت- بالإمبراطورية البيزنطية^(٣) واستطاع بهذا المال وغيره من الدعم الاقتصادي والمادي زيادة عدد الجيش وشراء العدة والعتاد لهم، كما استخدم هذا المال لبناء مدينة عظيمة وأسماها باسمه^(٤) وهي مدينة هرقل^(٥)، فوصلت الكنيسة بهذا إلى درجة عالية من الثراء مكنتها من امتلاك أسطول تجاري ضخم في البحر المتوسط استخدمته في استيراد القمح من جزيرة صقلية^(٦)، بعدما تمّ قطع القمح عن الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تستورده من مصر^(٧)، الأمر الذي دفع الإمبراطور هرقل إلى تغيير سياسته الاقتصادية بأن تخلص عن توزيع القمح المجاني في أنحاء الإمبراطورية^(٨)، وعملت الكنيسة على إرسال إمدادات كبيرة من هذا القمح إلى بيت المقدس في أثناء مهاجمة القوات الفارسية لها، وفضلاً عن حملها القمح على متن أسطولها التجاري، حملت على ظهر أسطولها الذهب والفضة والملابس أيضاً^(٩).

(١) المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٤٨.

(٢) بينز، نورمان: الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، ويوسف زبد، الدار القومية، بدون مكان نشر، وبدون تاريخ، ص ٢٨٣.

(٣) عاشور، ص ١٠٩-١١٠.

(٤) القزويني، أبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٥٦٦.

(٥) هرقل: تقع هذه المدينة في إقليم قيليقية بآسيا الصغرى، وفي شرقها تقع مدينة أصحاب الكهف (أفسوس). القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ب، ت، ص ٣٥٠.

(٦) العبادي، مصطفى: مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٣٣١.

(٧) العدوي، إبراهيم أحمد: تاريخ العالم الإسلامي، (عصر البناء والانطلاق)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥٨.

(٨) لويس، ارشبيلد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة أحمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ب، ت، ص ١٢٥.

(٩) العبادي، ص ٣٣١.

استفاد الأباطرة البيزنطيون في المجال الاقتصادي من علاقاتهم بالدول المجاورة، سواء عن طريق عقد هدنة أو مصاهرة، مما أتاح للبيزنطيين بعدما استولى العرب على الطريق الفارسية أن يتاجروا مع الصين عن طريق بلاد الخزر^(١)، ونتيجة لصعاب الحرب فقد ظلت التجارة العالمية في أيدي الفرس الذين سيطروا على أسواق سيلان^(٢)، متمتعين بامتيازات خاصة فيما يتعلق بتجارة الحرير^(٣)، حيث ظل الفرس وحدهم هم وسطاء نقلها وتعرضت كثيراً للضغط والخطر، وكذلك للانقطاع نتيجة تداعيات الحرب والسياسة^(٤)، الأمر الذي أثر تأثيراً مباشراً في اقتصاد بيزنطة وتجارها سواء مع الفرس أم العرب أم البلغار أم غيرهم من الشعوب.

خير دليل على ذلك نشوب الحرب بسبب العامل الاقتصادي بين الخليفة عبد الملك بن مروان والإمبراطور جستنيان الثاني عام ٦٩٥م. إذ أمر فيها الخليفة بضرب الدنانير والدراهم بنقش إسلامي -الشهادتين-^(٥) ولم ينقش عليها صورة القيصرية أو الأباطرة البيزنطيين كما جرت العادة من قبل بعدما دأب المسلمون من أجل الحصول على النقود البيزنطية عن طريق التجارة والتبادل التجاري، فقد كانت هي العملة الوحيدة المتداولة حتى ذلك الوقت^(٦)، هذا فضلاً عن إعلان الخليفة عبد الملك ابن مروان بوقف تصدير ورق البردي إلى القسطنطينية، وإزالة علامة الثالوث

(١) لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) سيلان: تُسمى قديماً تابروباني Taprobane، وهي تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة الهندية، وتحتوي على سهول خصبة واسعة إلا في جهتها الجنوبية الغربية التي تضم سلاسل جبلية وعرة، وتُعرف حالياً بسريلانكا. حافظ، أحمد: أطلس حافظ تخطيط أقاليم الكرة الأرضية طبيعياً وسياسياً واقتصادياً، مطبعة الفجالة، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١-٣.

(٣) كان الحرير من أندر كماليات العالم القديم والوسيط، سواء من ناحية القيمة والتداول أو الاستعمال، فقد كان الصينيون القدماء أول من عرف دودة القز، وعدوا ذلك سراً من أسرار بلادهم لا يباح به لأحد، ولقد حاول أهل القسطنطينية اكتشاف وسيلة لزيادة كمية الحرير المصدرة إليهم، ولكنهم كانوا في كل مرة يخفقون، وفي عام ٥٥٢م عرف مبشران بيزنطيان سر انتاج الحرير خلال زيارتهما للصين وقاما بتفريب بعض من دود القز إلى القسطنطينية، وذلك زمن الإمبراطور جستنيان الأول، ولم يمض وقت طويل حتى تأسس أول مصنع حكومي في العاصمة لغزل ونسج الحرير. فرح، نعيم: أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة. مجلة دراسات تاريخية، العدد الخامس عشر، دمشق، ١٩٨٤، ص ١٦٩. العريني، ص ٨٧-٨٩.

(٤) موس، هـ، سانت ل. ب: ميلاد العصور الوسطى الأوروبية (٣٩٥-٨١٤)، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، والسيد الباز العريني، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ١٦٢.

(٥) ابن عذاري، أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٠، ٢٢/١.

(٦) بروكلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤، ص ١٣٥. وينظر أيضاً: رحالة، إبراهيم القاسم، الثغور ودور الإسلام في القرنين الأولين (٧٤٩-٩٧٥م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٤٠-٤١.

المقدس من الورق واضعاً مكانها لفظ الشهادتين، الأمر الذي أغضب جستنيان وجعله يستعد لملاقاته، لينتهي به الأمر إلى هزيمة نكراء^(١).

بنت الإمبراطورية البيزنطية اقتصادها على الزراعة بسبب توافر المساحات الشاسعة التي تتيح الإنتاج الزراعي، وبسبب نجاح الزراعة في إيجاد استثمار مالي مضمون، توفر لأصحابها مورداً مالياً ثابتاً بعيداً عن الهزات والمفاجآت التي يتعرض إليها رأس المال المستثمر في غير مجال الزراعة^(٢).

أما فيما يتعلق بالنظام الضريبي الذي كان سائداً قبل حكم الأسرة الهرقلية فقد طرأ عليه كثير من التعديل، إذ كان يقضي في السالف بفرض ضريبة محددة على كل قرية، وأن يكون سكان هذه القرية مسؤولون جميعاً عن دفع تلك الضريبة إلى جباة الدولة وفصلت ضريبة الرؤوس عن ضريبة الأرض مما أكسب الفلاح حرية التنقل لعدم ارتباطها بالأرض من أجل الضريبة عنها إلى الدولة، كما فرضت هذه الضريبة أيضاً على جميع المكلفين بدفع الضرائب في بيزنطة، وانقسمت الإدارة المالية المركزية إلى عدة إدارات محلية، ولكل منطقة إدارتها المالية المحلية الخاصة بها^(٣).

وقد استبقى هرقل في كل بند ثغري Theme - من بنود الحدود - جيشاً دائماً يموّن نفسه من المنتجات الزراعية التي في الثغر^(٤)، إذ كانت هذه الثغور تموّن الإمبراطورية البيزنطية بغلاتها وحاصلاتها المتمثلة في كل من جزيرة رودس وسردينيا وصقلية وكريت^(٥).

أثرت الحروب التي خاضتها الدولة البيزنطية مع الدول والقبائل في اقتصاد البلاد، وفي خزينة الدولة المتمثلة في الضرائب والجزية التي كان على السلطة الأوتوقراطية أن تدفعها لأعدائها مقابل شراء السلام معها، زادت السبعون سنة التي سلفت حكم الأسرة الأيسورية ٩٩-١٢٢هـ / ٧١٧-٧٤٠م الأوضاع تدهوراً وسوءاً؛ إذ إن المسلمين كانوا قد استقطعوا من أملاك الإمبراطورية

(١) لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ٩٩-١٥٠.

(٢) العدوي، إبراهيم أحمد: قوانين الإصلاح الزراعي في الإمبراطورية البيزنطية وأهدافها والثورات المضادة لها، مجلة كلية الآداب والتربية، العدد الثالث، الكويت، ١٩٧٣، ص ١٥٠م.

(٣) فرح، نعيم: تاريخ بيزنطة منذ القرن السابع حتى القرن الثامن للميلاد، مطبعة طربين، دمشق، ١٩٧٧م، ١/٢٣٢-٢٣٣.

(٤) اليوسف، عبد القادر أحمد: الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦م، ص ٩٩.

(٥) ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي: كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٢٠-١٨٤.

أخصب المقاطعات وأغناها، والتي تتمثل في سهول العراق وسوريا وحوض النيل وسواحل طرابلس الغرب، إذ تعدّها الإمبراطورية البيزنطية مخازن غلالها ودعامة تجارتها الخارجية^(١). لم تكن السياسة والاقتصاد هما العنصران الوحيدان اللذان أثرا في الدولة البيزنطية فحسب، بل حضرت عدة عوامل إلى جانبهما، متمثلة في العاملين الديني والاجتماعي، مما سيتطرق الحديث عنهما في الفقرة الآتية.

ثانياً_ الاوضاع الدينية والاجتماعية:

أ- المشكلات الدينية التي واجهت الأسرة الهرقلية:

يعد عصر الإمبراطور هرقل نقطة تحول بارزة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية بين الحقبة الزمنية المسماة (التاريخ القديم) والحقبة الزمنية المسماة تاريخ العصور الوسطى، ومن المعلوم أنه لا توجد حدود فاصلة واضحة السمات بين الإمبراطور قسطنطين الأول والإمبراطور هرقل على الرغم من أن مساحة الإمبراطورية، ومظاهر حياتها الاجتماعية، وديانها قد تغيّرت تغييراً كبيراً على امتداد الثلاثمائة سنة التي فصلت بينهما^(٢)، فبعد أن فرغت الإمبراطورية البيزنطية من حروبها ضد الفرس أخذت توجه عنايتها نحو المسألة الدينية التي كانت تشغلها، وكانت أقصى ما ترنو إليه هو توحيد المذاهب المسيحية المختلفة حتى تصبح كتلة واحدة في ضوء الشقاكات المذهبية التي هزت كيانها^(٣).

لذا أخذ الإمبراطور هرقل يسعى لاستمالة المونوفيزتين^(٤) لتثبيت دعائم الحكم البيزنطي في جهات جهات الإمبراطورية الشرقية والاستفادة منهم في مقاومة المسلمين، فأصدر عام ٦٣٨م المرسوم الإمبراطوري المسمى الاكتيسيس Ecthesis قصد به التخفيف من الفوارق التي كانت سائدة بين الأرثوذكسيين والمونوفيزتين^(٥) باتباع طريق وسط في تفسير طبيعة المسيح، إذ اعترف المرسوم بطبيعتي المسيح الإلهية والبشرية ذات الإرادة الواحدة، غير أن مرسومه لم يعد بالنفع

(١) البافي، سامي: الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب في عشرة قرون ٢٦٤ ق.م، ٧٥٠م، مطبعة العالم العربي، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٠٠.

(٢) أومان، ص ١٠٠.

(٣) يوسف، جوزيف نسيم: معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩م، ص ١٠٨.

(٤) المونوفيزتين Monophysites: هو المذهب القائل بأن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية امتزجتا وكونتا طبيعة واحدة مقدسة. نعيم فرح: أضواء على الصناعة والتجارة، ص ١٦٩.

(٥) اليوسف، معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، ص ٩٨.

المرجو، بسبب تمسك كنيسة روما بوجود طبيعتين وإرادتين للسيد المسيح، ولإصرار المونوفستيين على غلبة المظهر الإلهي على المظهر البشري، وبذلك أدت سياسة هرقل التوفيقية إلى خلق مذهب جديد يُعرف بمذهب الإرادة الواحدة Monotheism المونوثيلية^(١)، أي أن ما للمسيح من طبيعتين إلهية وبشرية تتسمان بإرادة واحدة، وبدأت المفاوضات بهذا الشأن مع بطاركة الكنائس الشرقية وبابا روما ورجال الأكليريوس، فنجحت إلى حدٍّ معين، إذ أيدَّ المشروع العقائدي الجديد كلٌّ من سرجيوس (٦١٠-٦٣٨م) بطريرك القسطنطينية، وكيرولس (٦٣٠-٦٣٩م) بطريرك الإسكندرية، وأثناسيوس (٦٣٠-٦٤٠م) بطريرك أنطاكية،

وآزر (٦٢٩-٦٤٠م) بطريرك أرمينيا، وأنوريوس (٦٢٥-٦٣٨م) بابا روما وعلى الرغم من تحفظ الأخير وغموض موقفه^(٢) لكنه اشتهر بقوة بيانه وفصاحته وأرسل بعد مدة إلى بطريرك القسطنطينية رسالة يشير فيها إلى عدم سلامة المذهب الجديد^(٣)، وعدّه صورة فاسدة من أرثوذكسية المذهب الخلقوني^(٤)، وقام سرجيوس بتعديل موقفه وأصرَّ الإمبراطور هرقل على المضي في سياسة الوفاق العقائدي^(٥)، غير أن هذه العقيدة لم تلبث أن فقدت أهميتها بوفاة البابا سرجيوس، فأنكرها الأرثوذكسيون والمونوفستيون، كما تنكَّر لها خلفاء البابا أونوريوس في روما، وبذلك أحبطت المونوثلستية مثلما أحبطت جهود الكنيسة والدولة في إيجاد نوع من التوفيق بين الكنائس المختلفة في الأزمنة الماضية^(٦) كالمذهب الدوناتى مثلاً، الذي نشأ في شمال أفريقيا خلال القرن الرابع الميلادي، وقد سميت بالدوناتية نسبة إلى مؤسسها دونا توس أسقف قرطاجنة الذي توفي عام ٣٥٥م^(٧)، أما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠-٦٤٢م) فإنه حرم المشيئة الواحدة، وبعد أن تمَّ للمسلمين فتح الشام وأنطاكية صعبت الصلة وأوشكت أن تنقطع بين هذا المركز الديني والقسطنطينية، ففي حروب هرقل ضد الفرس نجح في الضرب على الوتر الحساس، برغبته في

(١) اليوسف، معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، ص ٩٨.

(٢) عبيد، اسحق: الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في مدينة الله، تقديم جورج شحاته قناتى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٩٣.

(٣) العربي، الدولة البيزنطية ص ١٣٣-١٣٤.

(٤) المذهب الخلقوني: يُنظر الملحق الرابع.

(٥) فرح: تاريخ بيزنطة، ص ٢٣٨.

(٦) العربي، الدولة البيزنطية، ص ١٣٣-١٣٤.

(٧) ابن ناصر، خليفة أبو بكر: الدوناتية Donatism من مظاهر المقاومة للسيطرة الرومانية على شمال أفريقيا، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، جامعة التحدي، سرت، ١٩٩٣م، ص ٧-١٢.

استعادة الصليب الحقيقي الذي اغتصبه الفرس من بيت المقدس، وبذلك نجح في توحيد أجزاء الإمبراطورية البيزنطية أمام هذه الأخطار^(١).

توفي الإمبراطور هرقل عام ٦٤١هـ/٦٤١م وظلت المشكلة الدينية قائمة كما هي، وسار الإمبراطور قسطنطين الثالث في البداية حسب مرسوم الإيمان، إلا أن فتح المسلمين سورية ومصر أدى إلى انفصال هذه الكنائس عن الإمبراطورية البيزنطية، مما دفع الإمبراطور إلى إصدار مرسوم ديني يشار إليه بنوع الإيمان يدعى التيبوس Typos قصد به قطع دابر الفتن الدينية في أجزاء الإمبراطورية الأخرى عام ٦٤٨م، إذ منع المرسوم المجادلات الدينية كافة حول طبيعة المسيح، إلا أن كنيسة روما استتكرت ذلك في عهد البابا مارتن الأول ٦٤٩-٦٥٤م، مما دفع الإمبراطور قسطنطين إلى إصدار أوامره إلى حامية رافنا-بإيطاليا- بإلقاء القبض على البابا وإرساله إلى القسطنطينية، وأمر بنفيه من هناك إلى شبه جزيرة القرم، حيث توفي فيها، وأدت سياسته هذه إلى نفور الرأي العام في إيطاليا وشمال أفريقيا^(٢).

حاول الإمبراطور قسطنطين الرابع تسوية الأوضاع فأمر بعقد مؤتمر ديني عالمي^(٣) عُرف بالسادس في القسطنطينية عام ٦٨٠م، وتقرر فيه اعتماد المذهب الأرثوذكسي القائل بأن للمسيح طبيعتين ومشينتين^(٤)، مما أعاد العلاقات مع البابوية إلى حالة من الهدوء النسبي، وقد عارضت كنائس كل من أنطاكية والقدس والإسكندرية هذا المذهب، ورأوا أيضاً -أي زعماء كنائس الشرق- أن الإمبراطور لم يكن راغباً في إيجاد تسوية معهم لعدم تبعيتهم لسياسته^(٥).

عادت الأوضاع إلى التكرار مع بابوية روما، ففي عهد الإمبراطور جستنيان الثاني خلال الحقبة الأولى من حكمه اختلف مع كنيسة روما في عهد البابا سرجيوس سنة ٦٨٧م، إذ أراد إزالة الفوارق بين الكنيستين، لكنه لم يوفق في مسعاه، واضطرّ في حقبة حكمه الثانية إلى استرضاء

(١) ساليان، أ. ريتشارد: ورثة الإمبراطورية الرومانية الغرب الجرمان- العالم الإسلامي- الدولة البيزنطية، تر: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ٥٩-٦٠.

(٢) اليوسف: معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، ص ٩٨-٩٩.

(٣) المؤتمر الديني العالمي: هو ما يُطلق عليه اسم المجمع المسكوني، وهي المجامع التي تقوم بتسوية ما يحدث من مشاكل عامة ترتبط بالعقيدة بالدرجة الأولى، وكذلك السلوك وبتولي الإمبراطور بنفسه دعوة هذه المجالس للانعقاد أو ينيب عنه من يقوم برئاستها، وقد بلغ عدد هذه المجامع الرسمية نحو سبعة مجامع كان آخرها على يد الإمبراطورة إيرين عام ٧٨٧م. لانجر، وليام: موسوعة تاريخ العالم العصور الوسطى، تر: محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ٣٨٥/٢. حول المجامع المسكونية السبعة ينظر الملحق الرابع.

(٤) الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى: تاريخ الأنطاكي، تح: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، طرابلس، ١٩٩٠، ص ١٨.

(٥) الدبس، يوسف: تاريخ سورية "من أيام الخلفاء إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي" المطبعة العمومية، المجلد الخامس، بيروت، ١٩٠٠م، ٩٣-٩٢/٣.

كنيسة روما التي كانت تحت رئاسة البابا قسطنطين الأول ٧٠٨-٧١٥م، إذ دعاه الإمبراطور إلى الحضور إلى القسطنطينية، واستقبل هناك بمظاهر التكريم والترحيب^(١).

وبعد مقتل الإمبراطور جستنيان الثاني عام ٩٣هـ/٧١١م ظلت الأمور الدينية كما كانت عليه أيام حكمه، إذ قام الإمبراطور فيليبكوس بعزل البطارقة، واستبدل بالبطريك فيروس ٨٧-٩٤هـ/٧٠٦-٧١٢م البطريك يوحنا السادس ٩٤-٩٧هـ/٧١٢-٧١٥م الذي أنكر عقيدة المشيئة الواحدة وأصدر أوامر بإحراق قرارات المجمع السادس^(٢)، لكن الإمبراطور فيليبكوس تمّ عزله من الجيش، وعين مكانه أحد الوزراء ويدعى أرتيموس أنستاسيوس الثاني ٩٥-٩٧هـ/٧١٣-٧١٥م إمبراطوراً على بيزنطة وعزل البطريك يوحنا السادس وعين مكانه جرمانوس الأول ٩٧-١١٢هـ/٧١٥-٧٣٠م الذي أمر بعقد مجمع محلي في العام نفسه ألغى بموجبه قرارات مجمع عام ٩٤هـ/٧١٢م، وأعاد قرارات المجمع السادس الذي ينكر عقيدة المشيئة الواحدة^(٣)، وبعد عام واحد من تنصيب الإمبراطور تمّ خلع من العرش وسُملت عيناه، ونصّب الجيش على العرش ثيودسيوس الثالث عام ٩٧-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م، غير أن الوضع الديني ظل متأرجحاً بين جميع الطوائف^(٤). وعلى أية حال فقد سلف السيف العزل وذلك أن الكنائس المونوفيزيتية المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح كانت قد انسحبت وانتهى أمرها، كما أن الكتلة العظمى من أتباعها كانت قد اعتنقت الإسلام، وبذلك وقعت أغنى أجزاء الإمبراطورية وأكثرها سكاناً في أيدي الفاتحين المسلمين والمتمثلة في مصر، وسورية، وشمال أفريقية، وسواحل البحر المتوسط^(٥).

ب- تداخل الناحية الدينية بالحياة الاجتماعية:

أثر الدين في صلب الحياة الاجتماعية في الدولة البيزنطية، حيث يعيش المواطن البيزنطي في شعور مستمر بوجود القوى الخفية، ذلك أن ميله إلى اللاهوت كان يظهر في صغائر الأمور وكبائرها^(٦)، ولم يكن سكان العاصمة يعيشون في جو ديني وحسب، بل إنه في عهد هرقل قد تغيرت الإمبراطورية البيزنطية تغيراً اجتماعياً على وجه الخصوص، حيث أخذ العنصر الهليني

(١) العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٧٤.

(٢) رستم، أسد: حرب في الكنائس، بيروت، ١٩٦٧م، ص ١٣-١٥.

(٣) فرج، وسام عبد العزيز: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص ٣٤١.

(٤) عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١م، ص ٨٦-٨٧.

(٥) كانتور، نورمان: العصور الوسطى الباكورة القرن الثالث، التاسع الميلادي، تر: قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٢٧.

(٦) بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٢-٢٣.

يرقى وأخذ الأدب يستلهم أفكاره ونماذج من الأساليب الجديدة، وكذلك اصطبغت العادات والتقاليد والأعراف التي كان يتبعها الناس في حياتهم بصبغة يونانية^(١).

اعتاد البيزنطيون على تخصيص شطر من يومهم للصلاة، فضلاً عن دوام ذهابهم إلى الكنيسة أيام الأحاد، وإذا تخلف أحدهم عن ذلك لمدة ثلاثة أسابيع متتالية عوقب بالطرد من رحمة الكنيسة ما لم يكن له عذر مقبول، فقد كانت الكنيسة تشغل دوراً أساسياً في حياة الناس وتهيمن على عواطفهم، وتتحكم في سلوكهم وتصرفاتهم.

ج- صفات المجتمع البيزنطي وأهم طبقاته:

تتكون الحياة الاجتماعية في الإمبراطورية البيزنطية من طبقات اجتماعية متفاوتة، أعلاها طبقة النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية الراقية واتخذوا لأنفسهم دوراً بالمدينة ومساكن بالأرياف، وشغلوا غالبية الوظائف الإدارية في الإمبراطورية، سواء في الجيش أم في الكنيسة، بعد ذلك تأتي طبقة الأرستقراطيين، وهم من كبار الملاك، ثم الفلاحين والعبيد، والكوريال وهم مجموعة من موظفي البلديات الذين يملكون بعض الأملاك الزراعية في ضواحي المدن^(٢)، يتيح البناء الطبقي تخيل شكل المجتمع في الإمبراطورية البيزنطية كهرم كبير يجلس الإمبراطور على رأس قمته العليا، ودون القمة يأتي بطريرك الكنيسة، وبعده يأتي أفراد الأسرة الإمبراطورية^(٣)، يلي ذلك الحرس الخاص للإمبراطور، يليهم رجال البلاط والقصر والوزراء، ومن بعدهم يأتي قادة الشعب والكنيسة ثم يأتي بعد ذلك كوادر الموظفين ورتب الضباط، يليهم العلماء والفقهاء والفنانون ووجهاء التجار وكبار الفنيين، ومن بعدهم يأتي صغار التجار وأصحاب الحرف والمهن الذين كانوا يترأسون نقابات مهنتهم، يليهم الحرفيون من أعضاء النقابات الحرفية والمهنية، ثم بعد ذلك أصحاب المهن غير الخاضعة للنقابات والعمال اليدويين والأحرار من الفلاحين، وفي نهاية الهرم الاجتماعي وعند قاعدته السفلى يأتي الرقيق.

وعلى الرغم من أن كل طبقة قد قُيّدت بحقوق وحدود في الوقت نفسه غير أن المواطن فيها مُنح قدراً من الحرية اقتصر على تمتعه بالحرية بين أفراد طبقته أو نقابته، أما فيما عدا ذلك فكل المواطنين رعايا الإمبراطور، فهم الرعية وهو وحده الراعي، وكان بمقدور الفرد أن ينتقل من طبقة

(١) بيزنيز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣٣٥-٣٣٦-٣٣٧.

(٢) فرح، تاريخ بيزنطة، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله: المسالك والممالك، بإعتناء دي خويه، مطابع برييل، ليدن، ١٨٨٩م، ص ١٠٩.

إلى طبقة أعلى بدافع التيارات الاجتماعية عن طريق النبوغ أو الكفاءة العسكرية، أو الفنية، أو الرياضية، أو الأدبية، أو عن طريق مصاهرة طبقة أعلى.

وتقول المؤرخة هسي Hussey إن المجتمع البيزنطي لم يكن مقتصرًا على طبقة معينة أو فئة خاصة من الناس "لأن ابن الفلاح يستطيع أن يصل إلى منصب الإمبراطور. وابنة الخادمة تتزوج إمبراطورًا وتصل إلى العرش، فأى فرد يتمتع بقسط من الذكاء والعمل يستطيع أن يتدرج إلى أعلى المناصب^(١).

ويؤكد قول المؤرخة؛ إذ إن هناك من وصل إلى العرش البيزنطي وهو من أسر متواضعة وفقيرة بل ووضيعة في بعض الأحيان - مثلما حدث مع الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان الأول، التي كان تعمل كراقصة في ملهى ليلي وكان أبوها يعمل في السيرك (مروض دبية) - وينطبق الأمر على الأسرة الأيسورية التي وصلت إلى العرش وهي من الأسر الفقيرة عن طريق كفاءة الابن ليون الثالث العسكرية والإدارية. وغيرهما من الأمثلة أو الشخصيات العديدة عبر التاريخ البيزنطي الطويل.

ولعل أهم سكان القسطنطينية والمناطق المحيطة ترجع أصول معظمهم إلى عناصر من سكان البحر المتوسط، فقد كانوا إغريقين في مظهرهم وحديثهم^(٢).

وقد كانت آسيا الصغرى المعين الذي لا ينضب من السكان؛ إذ إنها زودت الإمبراطورية بخيرة الجند والفئات المختلفة، كما أدى الغزو الصقلي وتدفقه عبر البيلو بونيز إلى استغلال هذا الفيض البشري^(٣)، الأمر الذي استطاعت به الدولة أن تضاعف من عناصر السكان، بحيث تمّ توطينهم بوصفهم طبقة ملاك صغار عسكريين في آسيا الصغرى، وعلى الرغم من أن الإمبراطورية البيزنطية تمكنت بهذه الطريقة من تحويل هذا التدفق إلى مصلحتها إلا أن النذر اليسير من هؤلاء النزلاء الجدد قد تمّ استيعابهم داخل الإمبراطورية كرعايا^(٤).

كان هناك عنصر مهم من عناصر السكان لم يمتزج بمن حوله بسبب ديانته، وهم اليهود الذين لم تحدث زيادة في أعدادهم بعد القرن السابع الميلادي، إذ كثيراً ما تعرضوا في ظل الحكم

(١) Hussey: Byzantine World. London, 1967, p.125.

(٢) صبرة، عفاف سيد: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢١٤.

(٣) هسي جون: العالم البيزنطي، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، منشورات الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ١٠٤-١٠٥.

(٤) هسي، العالم البيزنطي، ص ١٠٥-١٠٩.

البيزنطي للاضطهاد والمضايقات، وفرضت عليهم ضرائب متعددة، فضلاً عن -عدم تقلدهم الأعمال والوظائف التي كان يتقلدها الأرمن مثلاً، وكان لا يمكن لليهودي أن يعامل معاملة حسنة، أو أن ينضم إلى الطبقة الأرستقراطية إلا في حالة واحدة هي اعتناقه الديانة المسيحية^(١). وفيما يتعلق بمكوّن بشري هام في المجتمع البيزنطي المتجلي بالمرأة، يمكن التثبت من أنها تمتعت بحقوق واسعة، فقد كفلت لها الديانة المسيحية حماية فعلية، إذ حرّمت الزيجات المؤقتة، وقلّلت من نسبة الطلاق، وكانت المرأة البيزنطية تعيش في خدر الحريم ويقوم بحراستها الخصيان من الرقيق، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت العادات والأخلاق البيزنطية أشد صرامة لدى أفراد الشعب البيزنطي في مواجهة الحرية الشديدة التي كانت تتمتع بها أميرات الأسرة المالكة، فلم يكن لديهن أمكنة للتسلية يمكن أن تتوجه إليها المرأة البيزنطية، إذ حرّمت من الخروج بمفردها، وكان لا يُسمح لها بالخروج إلا إلى الصلاة في الكنيسة أو الذهاب إلى الحمامات العامة، وإذا خرجت فلا بدّ وأن يصحبها أحد العبيد، ولعل اللافت للنظر أن وجود العبيد لم يكن حكراً على الطبقات العليا في المجتمع البيزنطي، فقد امتلكت أسر الطبقة الوسطى العبيد أيضاً، وكان لكل أسرة اثنين منهم على الأقل، للقيام بخدمة الأسرة ومساعدة الزوجة في تدبير شؤون المنزل، وقد تقاضى العبيد أجوراً مالية مكّنت كثيراً منهم من شراء حريتهم، ويعود أصل العبيد إلى جنسيات متعددة استوطنت الإمبراطورية البيزنطية وشكلت شعباً من شعوبها^(٢).

ويمكن استشفاف حقيقة واضحة تتجلى في أن شعوب الإمبراطورية البيزنطية لم تكن مقتصرة على الأصل اليوناني وحسب، وإن كان اليونان هم الكثرة الكاثرة من السكان، وتشكّل الأقاليم الناطقة بلهجات شبه الجزيرة الإيطالية، ركناً واسعاً من السكان فقد كان الصقالبة نصف سكان شبه جزيرة البلقان، كما كان الأتراك والأرمن والعرب يمثلون نصف سكان آسيا الصغرى، ومن ثم كانت الرابطة التي تجمع بين هذه الشعوب جميعاً هي العقيدة التي يدين بها الباسيليوس، كما كانوا يرون أن عاهلهم هو الوريث الشرعي لقيصرية روما، فلم تكن الإمبراطورية تعني شعباً بعينه، بل كانت أخلطاً من أجناس عدة يجمع بينها خضوعهم لسيد واحد ودين واحد^(٣)، وكان هؤلاء السكان غير موزعين بالتساوي على الإمبراطورية البيزنطية، إذ كان هناك تفاوت كبير جداً

(١) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٢٠٠.

(٢) هسي، العالم البيزنطي، ص ١٠٦-١١٥.

(٣) عكاشة، ثروت: الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن (العين تسمع والأذن ترى)، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٣ م، ص ٩-١٠.

في حجم السكان يختلف من مدينة إلى أخرى، وكانت السواحل هي أكثر المناطق كثافة سكانية على امتداد خليج البوسفور وبحر مرمرة ومنافذ الشوارع الكبيرة^(١).

لذا تعد الناحية الاجتماعية مسألة متشعبة وتحضر فيها صعاب كثيرة، تزيدها قلة الكتب التي تتحدث عن هذه الحقبة من التاريخ البيزنطي صعوبة، وسيتم التطرق إلى المساكن التي كان يسكنها المواطن البيزنطي وكيفية تأثيثه إياها، فضلاً عن استعراض بعض أنواع الطعام وأدوات المطبخ التي سادت في تلك الحقبة، والملابس والإضاءة، وكذلك ذكر نوع من مدافن الموتى.

شرع المواطن البيزنطي في نهاية القرن السادس وبداية السابع في بناء المنازل ذات الطوابق العالية التي ترتفع من خمسة إلى ثمانية أدوار مقسمة إلى شقق صغيرة، غير أنها تميّزت بالفقر والقدارة وكذلك الازدحام، لذلك فضل السكان العيش في المنازل التي تشبه الأكواخ، أما الأغنياء فقد عاشوا في شقق فاخرة ذات طابقين أو ثلاثة تُبنى من القرميد أو الحجارة المطلية بالجص وذات ألوان متعددة، أما الرخام فهو لا يُستعمل إلا في القصور، وهذه الأبنية لها أسقف مسطحة أو مثلثة تزينها الفوانيس الصغيرة المعلقة بالقباب، وكانت الأبواب على شكل نصف دائرة مستطيلة وبجانب هذه المنازل توجد الإسطبلات والحظائر، احتوى الأثاث على الأسرة المرتفعة قليلاً من ناحية الرأس، وكذلك الخزائن ورفوف للكتب والساعات ذات الأحجام الكبيرة والصناديق التي تُستعمل لحفظ الملابس والأشياء الثمينة، فضلاً عن الموائد المختلفة كالمستديرة، والمربعة والمستطيلة وهما شائعتا الاستعمال، كما أن الكنيسة استخدمتها كهيكل (محراب)، أما أثاث المطبخ فقد احتوى على غلاية وغريال ومشعل، وكذلك الأطباق المسطحة والعادية والأواني الزجاجية والأقداح والقصعات ذات الأحجام المختلفة والكؤوس والقوارير والفخار والملاعق المصنوعة من الذهب والفضة والموازين^(٢).

وفيما يخص الطعام والمأكولات فقد كان أفراد الأسرة يتناولون معاً وجبات الطعام إلا أن النساء لا يظهرن على المائدة في حالة وجود ضيوف غرباء عليها، وهو يحتوي على ثلاث وجبات رئيسية هي الإفطار والغداء والعشاء، وتوضع على المائدة المناشف والأقداح لغسل اليدين، ويرتلون صلاة المائدة قبل تناولهم الطعام، أما موائد الفقراء فلم يكن عليها إلا قطعة من الخشب يغترف منها الضيوف طعامهم بأيديهم؛ إذ إن ملاعق الذهب والفضة كانت قاصرة على الأغنياء،

(١) عفاف صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٢١٧.

(٢) هسي، العالم البيزنطي، ص ١٠٦-١١٥.

وتحتوي المائدة على اللحم المشوي والحلوى والفواكه وطبق السلطات وطبق السمك والخبز وكؤوس النبيذ، وهذه المأكولات جميعها تحتوي على كثير من التوابل والزيتون المخل والتونة وطبق الضفادع، أما رجال الدين فتميّز طعامهم بأكل الكرنب والسمك المملح والبيض والجبن والزيت والتوابل والخبز المدحرج بالرماد، وكانت جميع هذه الأطعمة تُطهى على الفحم. أما أنواع التسلية وطرق الترفيه فكانت وافرة منها الذهاب من أجل مشاهدة سباق الخيل أو المهرجانات، أو الخروج إلى الصيد، فضلاً عن إنشاء الحمامات العامة التي تميّزت بالفخامة في بعضها والقدارة والفقر في بعضها الآخر.

كانت الإضاءة المنزلية تتم عن طريق مصابيح تُضاء بالزيت، أو بوسطة الشموع أو المشاعل، المصنوعة عادةً من البرونز أو العاج أو الذهب والفضة، وكانت على شكل مثلث أو قرص له ثقب تمسك أو تعلق بوسطة سلاسل أو على شكل شمعدان له ثلاثة أرجل.

وفيما يتعلق بالثياب والأزياء فقد كانت واسعة وفضفاضة، ومع نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن أصبحت تلك الثياب ضيقة تكاد تلتصق بالجسم، وأهمها السكارامنجيوم Scaraminium التي استخدمها الفرسان وكذلك الأباطرة والنبلاء عند ركوب الخيل، وكانت ذات ألوان جميلة ورقيقة النسج، أما في الأوساط الشعبية فنجد التونيك Tonic وهو رداء ضيق ذو أكمام ضيقة، وكذلك المونابلون Monopoly وهو نسيج خفيف ضيق نسبياً. وكانت الأحذية متميزة برقبتها القصيرة بجانب الصنادل، غير أن النبلاء البيزنطيين كانوا يفضلون ارتداء أحذية بدون كعب ومفتوحة من الأمام وتُسمى كامبايا Campaya، أما الفرسان فقد انتعلوا الأحذية ذات الرقبة الطويلة، وارتدى العمال المعاطف القصيرة التي تُدعى هيماتيون Hemation.

وبالنسبة لغطاء الرأس فقد اقتصر على النبلاء إذ كان يُزين باللآلئ والأحجار الكريمة ويُطلق عليه اسم التوفا Altaova، وهو عبارة عن تاج يعلوه ريش يتدلى حول الرأس^(١).

واشتملت أزياء النساء وملابسهن على المعاطف بأشكال مختلفة، فتكون مستطيلة أو مربعة أو مستديرة، يُرفع طرفها الأعلى عن الكتف لينسدل إلى الأمام، ومعظم الأقمشة كانت من الكتان والقطن، وكذلك الحرير الذي اقتصر على النبيلات، وكانت المرأة المتدينة تغطي رأسها بحجاب عند خروجها من البيت، أما الأميرات والإمبراطورات فكن يلبسن قفطاناً أو تونيكاً طويلاً من

(١) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٢٢٩-٢٥١.

الحير تحت ثوب ضيق يُسمى الدالمانيك ويُطرز بالآلي حول الرقبة والأكتاف والأطراف كما شاع استخدام الخواتم والعقود والأقراط^(١).

انتشرت المدافن في الأمكنة التي تحوط الكنائس، إذ عملت الكنيسة على تحديد يوم معين لاجتماع الأهل حول قبر الميت والبكاء عليه من جديد وتقديم القرابين والفتائر، وكانت تتم في اليوم الثالث والتاسع، والأربعين من موته، ومن مظاهر الحداد قص الشعر والجلوس أرضاً وتمزيق الثياب.

إذ يوضع الميت في تابوت من الحجارة أو الرخام، وأعظم هذه التوابيت توابيت الأباطرة، وكانت المقابر تنقسم إلى نوعين، هما مقابر الطبقة الراقية وهي مستديرة الشكل ويتم الحفر في الشسيت، وهو صخر بركاني صفائحي، مقسم إلى أربع حجرات يُغطى بسقف على شكل قبة نصف أسطوانية، ومقابر محفورة في الأعمدة لحماية التوابيت، أما المقابر الأخرى فهي لعامة الشعب إذ تتميز بالبساطة الشديدة ولم تكن سوى حفر في الأرض^(٢).

يكشف تدخل الكنيسة في مراسيم الدفن، وتحديد أوقات زيارة قبور الموتى وأمكنة دفنهم مدى أثرها الكبير في الحياة الاجتماعية، وقد تخطى أثرها حدود المراسيم والطقوس إلى السيطرة على العقول، والاحتكام على العادات والتقاليد الاجتماعية ووسمتها بطابعها.

تميزت السنوات الأخيرة من العصر الهركلي بالفتن والاضطرابات المتمثلة في سرعة اختيار الأباطرة وخلعهم، إذ أصبح تقليداً معمولاً به طوال تلك الحقبة، فكان همّ الواحد منهم وشغله الشاغل التخلص من إخوته بشتى الطرق الوحشية^(٣)، بجانب انصراف هؤلاء الأباطرة إلى متعهم ومسراتهم غير عابئين بشؤون الحكم فتتابعت المشكلات وتفاقت الأزمات على الإمبراطورية، وكثرت الثورات الداخلية وازدادت هجمات القوات الإسلامية حدة وشراسة، واعتزى الدولة انحطاط ثقافي وأخلاقي عام^(٤) ظهرت آثاره واضحة في المجتمع البيزنطي، كما تسلّطت الخرافات على العقول وانتشرت عبادة الأيقونات^(٥)، واستحوذ الرهبان على نفوذ كبير في المجتمع^(٦).

(١) هسي العالم البيزنطي، ص ١١٠-١١٧.

(٢) صيرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٢٢٩-٢٥١.

(٣) البافي، سامي، الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب في عشرة قرون، مطبعة العالم العربي، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٠٠-١٠١.

(٤) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٢٤.

(٥) Gibbon. Op. p. 529.

(٦) البافي، الحضارة الإنسانية، ص ١٠١.

يضاف إلى هذا وذاك المشكلات الدينية والهرطقات التي زجت الإمبراطورية بنفسها من أجل خوضها^(١)، وفي تلك الفوضى والاضطرابات التي ضربت أطنائها جميع أنحاء الإمبراطورية ومجالاتها بدا كأن الحصن المنيع يكاد ينهار، وفي هذه اللحظة الحرجة ظهرت شخصية قوية على ساحة الأحداث تسلمت زمام الأمور متمثلة في شخص يُدعى ليو الثالث Leo III الذي سيفتح - بتوليهِ عرش الإمبراطورية البيزنطية- الطريق أمام حكم أسرة جديدة، هي الأسرة الأيسورية التي حكمت بيزنطة حتى عام (٨٠٢م).

ثالثاً_ الأسرة الأيسورية:

أ- وصولها العرش البيزنطي:

تعد السنوات التي تقدمت على ارتقاء ليون الأيسوري (٧١٧-٧٤٠م) عرش الإمبراطورية البيزنطية من أحلك السنوات في عصر بيزنطة الطويل؛ إذ إن حيويتها أخذت تتداعى بسبب انكماش حدودها، الأمر الذي أدى إلى اضمحلال الآداب والفنون، وتدنّى مستوى التعليم، وازدياد الخزعات والخرافات انتشاراً بين أفراد طبقات المجتمع كافة، ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مراكز قلق في ذلك الوقت، مما اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً رغبة في الإبقاء على وجود بيزنطة، فإن ذلك قد قوبل بتحدٍّ عنيف من المعارضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تعاقب الأباطرة على العرش البيزنطي، إذ تولى العرش ما لا يقل عن سبعة منهم في عشرين عاماً، وكان كثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء وملاك الأراضي بالإمبراطورية البيزنطية.

لقد كان نظام الإمبراطورية البيزنطية يتجه إلى التحطم بوضوح، تكشف من خلال إهمال شؤون الإمبراطورية وعدم الاهتمام بالمصالح العليا، أمام تفشي الفساد واستفحاله في مفاصل الدولة. في مقابل تراجع التعليم، وانحلال المؤسسة العسكرية، ووسط هذه الفوضى والأوضاع الداخلية المتدنية والمتردية بدأت الأوضاع الخارجية بالتدهور والتراجع أيضاً، فقد أخذ البلغار وكذلك المسلمون يكتسحون ولايات الحدود وفي كل سنة كانت غاراتهم تزداد في الداخل توغلاً واندفاعاً^(٢)، إذ انتهر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٧م) الفرصة السانحة فأعدّ العدة لحملة كبيرة تخرج من موانئ سورية بقصد حصار القسطنطينية، ولم يكن ليعترض سبيله

(١) بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٧.

(٢) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٣-١٤٤.

أحد لأن الجيش الذي كان قد أعد لصد حملته تحول عن وجهته ليشترك في الحرب الأهلية التي قامت بين الإمبراطورين السالفين أنستاسيوس وثيودوسيوس، حيث سقطت في أيدي المسلمين بعض المدن الواقعة بآسيا الصغرى كمدينة ثيانا Tyana عام (٧١٠م)، وأماسيا Amassi عام (٧١٢م)، وأنطاكية Anticch عام (٧١٣م)، وتوغل المسلمون حتى فريجيا عام (٧١٦م)، وحاصروا قلعة عمورية Amorium^(١)، وكان ينتظرهم النجاح، ولكن بظهور ليو الأيسوري تبذرت الانتصارات الإسلامية تلك وراحت الإنجازات العسكرية أدراج الرياح.

كان ليون الأيسوري وهو أحد الضباط الحربيين القلائل الذين نالوا حظاً وافراً من الشهرة في أثناء الكوارث المخيفة التي وقعت في السنوات العشر الأخيرة، إذ كان في ذلك الوقت قائداً للمنطقة الأناضولية Anatolicon، وهي الألوية التي كانت تضم كبادوكيا، ليكاوونيا بآسيا الصغرى، ويحدها جنوباً البحر المتوسط، وتعد أكبر ثغور الإمبراطورية البيزنطية^(٢).

كان ليون الثالث قائد الأناضول من مواطني المنطقة الجبلية في إقليم أيسوريا، وهو من أسرة فقيرة ولكنه قضى وقت طفولته في مدينة مرعش^(٣). على الحدود الإسلامية البيزنطية^(٤)، وبذلك أتيح له أن يعرف اللسان العربي، ويفهم تقاليد الإسلام ومطامح المسلمين^(٥)، ثم انتقل مع والديه في الحقبة الأولى من حكم جستنيان الثاني إلى تراقيا^(٦)، ثم واثاه الحظ حين دخل في خدمة جستنيان الثاني في أثناء زحفه على تراقيا عام (٧٠٥م) بعد هروبه من منفاه لاستعادة ملكه،

(١) عمورية: هي مدينة بآسيا الصغرى بها قلعة حصينة بأقاليم الأناضول، وتحتوي على بساتين ونهر وعيون جارية، تميّزت بمناعتها بسبب تحصيناتها القوية وأبراجها العالية الكثيرة، التي بلغت أربعة وأربعين برجاً، كما أنها محاطة بخندق كبير. ابن خردادبة، ص ١٠٧ - ياقوت الحموي، ص ٧٣ - القلقشندي، ص ٣٥٣.

(٢) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٤.

(٣) في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي وتحديدًا عام ١٨٩٦م ظهر رأي جديد يقول بأن ليو الثالث لم يكن أيسورياً وإنما سورياً Syrian والسبب في ذلك راجع إلى المؤرخ ثيوفانيس الذي قال عنه أنه من أبناء جرمانكية (مرعش) ومن أصل سوري، ويؤيده في ذلك بعض مؤرخي العرب لأنه يجيد اللغتين العربية واليونانية، وإلا كيف نفسر تعاونه مع الخلافة الأموية

Theophanes, the chronicle of theophanes confessor: byzantine and near eastern history pp. 784-813.

-مؤلف مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق (من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم)، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٩م، ص ٢٥.

(٤) المسعودي، أبو الحسن بن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٣٣٠.

(٥) العدوي، إبراهيم أحمد: الأمويون والبيزنطيون (البحر المتوسط بحيرة إسلامية)، الدار القومية، بدون مكان نشر، ١٩٦٣، ص ٢١٤.

(٦) العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٨٦-١٨٧.

فكافأه جستنيان الثاني بأن عينه في إحدى وظائف الدولة الإدارية، ومنذ ذلك الحين ذاع صيته فخدم جستنيان والأباطرة الذين خلفوه على الحكم، وسنحت له الفرصة بأن يُظهر مواهبه العسكرية والدبلوماسية باشتراكه في الحملة ، الموجهة إلى منطقة القفقاس، إذ صادف في هذه الحملة عقبات وصعاباً كثيرة استطاع التغلب عليها بمهارة، فعينه الإمبراطور أنستاسيوس الثاني Spartharius- وهي تعني قائداً على الثيم أو البند أو الثغر - على ثغر الأناطوليك، فصادف بذلك حصوله على رئاسة أكبر الأقاليم البيزنطية وأكثرها أهمية فاستغل ليون الثالث مركزه للوثوب على العرش^(١) إثر الإطاحة بالإمبراطور ثيودوسيوس الثالث الذي لم يجلس على عرش الإمبراطورية البيزنطية سوى مدة قصيرة ٩٧-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م^(٢)، فقد عرف باسم الكاره أو الممتنع، تميز بضعفه وعدم رغبته في الحكم مما هياً لليون الثالث التحالف مع أرتاباسدوس Artabasdus قائد ثغر الأرمنياك البيزنطي العسكري، الذي وعده إذا ما نجحت ثورته وتسلم العرش بأن يزوجه ابنته ويضفي عليه لقباً هاماً في الدولة وهو لقب كروبالاتس Curopalates، وبعدما أنهى هذا التحالف معه فتحت باب المفاوضات مع المسلمين الذين اعترفوا به كإمبراطور مقبل وعقدوا اتفاقاً معه، وبذلك أمن ليون الثالث جبهته الخلفية واتجه لىفاوض الحكومة المركزية في القسطنطينية، فقد كانت جميع الفرص مهياً لنجاحه، حيث سار عبر مقاطعة أوبزيكيون أو -الأبسيق- وألقى القبض على الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث وأفراد حاشيته في نيقوميديا بآسيا الصغرى، وواصل سيره حتى أبواب مدينة كيريزبوليس Chryspolis حيث جرت مفاوضات مع ثيودوسيوس الثالث الإمبراطور السالف انتهت بأن أعطاه الأمان ولابنه على حياتهما مقابل تنازله عن العرش، واعتنق الإمبراطور ثيودوسيوس سلك الرهبنة وعاش بقية عمره في أفسوس^(٣).

وفي الخامس والعشرين من شهر مارس عام (٧١٧م) دخل ليون الثالث العاصمة البيزنطية، فتوجَّ إمبراطوراً على عرش الإمبراطورية البيزنطية، وبتتصيبه انتهت حقبة الصراع الإمبراطوري

^(١) Baynes, N, H, Byzantine Smodeses, London, 1955, pp. 14-15

^(٢) Ibid, pp.14-15.

^(٣) أفسوس: يطلق اسم أفسوس على ثلاث مدن واحدة منها على نهر الدانوب، وواحدة على نهر أبرو في شبه جزيرة البلقان، وواحدة غرب مدينة كلوني بآسيا الصغرى. بورفير وجنيثوس قسطنطين السابع: إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٩١.

ووجدت بيزنطة في شخصية الإمبراطور الجديد ليون الثالث الحاكم الذي أقام حكماً متيناً ثابتاً، وهو مؤسس أسرة حاكمة حكم أفرادها رداً طويلاً من الزمن.

استطاع الإمبراطور ليون الثالث أن يصد الهجوم الإسلامي وقد عمل على كسب صداقة دول الجوار كالبغار والخزر مخففاً بذلك من الضغط الخارجي على الإمبراطورية البيزنطية، مما يدل ذلك على سياسته الحكيمة في معالجة الأمور^(١).

أخذ ليون الثالث يعمل على تحصين العاصمة وتقويتها داخلياً وخارجياً، وعمل على تقوية جيشه، كما أنه اهتم باقتصاد البلاد وتعرض للمشكلة الأيقونية التي انتشرت بها أسرته حتى آخر فرد فيها، وبعد حكم دام تقريباً أربعة وعشرين عاماً توفي الإمبراطور ليون الثالث عام (٧٤١م) تاركاً عرشه لابنه وخليفته قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م)، الملقب بكوبروتيوس Pocoprotemus وتعني النجس^(٢). وقد جرى تتويجه إمبراطوراً شريكاً في حياة أبيه وهو في سن الثانية عشر من عمره عام (٧٢٠م)، وكان هذا الإجراء قد تمّ باعتراف القادة جميعهم وبموافقتهم، ولم يجد قسطنطين الخامس من ينازعه على العرش سوى زوج اخته أرتاباسدوس الذي أعلن تمرده ضده مستغلاً فرصة انشغال قسطنطين بحروبه على الجبهة الشرقية، فقام جيش أرتاباسدوس بمهاجمة مؤخرة جيش قسطنطين عند مقاطعة الأيسيق، وكان الفوز لأرتاباسدوس الذي أعلن نفسه إمبراطوراً ودخل في مفاوضات مع ثيوفانس مونيوتس Theopanes Monutes الذي تركه الإمبراطور قسطنطين الخامس نائباً عنه في القسطنطينية، فانتهت المفاوضات بقبول ثيوفانس مونيوتس وغيره من الرجال البارزين في العاصمة الانضمام إلى الإمبراطور الجديد، وذلك راجع لعدم رضاهم عن سياسة قسطنطين الدينية، وبذلك توج أرتاباسدوس إمبراطوراً على يد البطريرك أناستاسيوس Anastasius، وعين ابنه نفقور بصفة إمبراطور مساعد له وعين ابنه الأصغر نيسستاس Nestas قائداً عاماً على الجيش في أرمينيا، فهرب قسطنطين الخامس إلى عمورية- مركز قيادة أبيه- وانضمت إليه تراقيا، ولم يؤيد أرتاباسدوس سوى ثغري الأيسيق وأرمينا^(٣)، لوقوعهما كائناً تحت حكمه المباشر. فتمكن قسطنطين

^(١) Ostrogorowsky, History of the Byzantine state. Oxford, Press, 1968, pp.137-138.

^(٢) النجس: تعني هذه الكلمة باليونانية سليل روث الماشية Copros أو فتى الإسطل Cabillins وهي من ألقاب التحقير التي أطلقها الروم والسلطات الكنسية على هذا الإمبراطور لمغالاته في تحريم عبادة الأيقونات وأكثر الشائعات انتشاراً ماروي عن اكتشاف بعض روث الماشية في حوض الماء الذي تمّ تعميده فيه وهو طفل ومن ثم لقب بالنجس.

^(٣) ثغر الأيسيق وأرمينا: ثغر الأيسيق Opsikion يتألف منه الحرس الإمبراطوري ويقع قرب بحر مرمرة، أما ثغر أرمينا أو الأرميناك Armeniakni فيقع في الشمال الشرقي لآسيا الصغرى ويتأخم أرمينا. Vazaliev, op, p.228.

قسطنطين الخامس من القضاء على هذه الأحداث في موقعة بآسيا الصغرى عند ساردس Sardes، وقام بسمّل عيني أرتاباسدوس وأبنائه وقطع أرجل وأيدي من تبعهم، أما البطريك فقد أُرْكِبَ حماراً وطيفَ به حول القسطنطينية، وبذلك تربع للمرة الثانية على عرش القسطنطينية^(١). عُرِفَ الإمبراطور قسطنطين الخامس بكفائه العسكرية في إيقاف الهجوم الإسلامي على القسطنطينية^(٢)، كما أنه استطاع تحقيق نصر حاسم على البلغار، فسُمي بذابح البلغار، غير أنه لم يتمكن من القضاء عليهم نهائياً، ولكنه أعاد هيبة الإمبراطورية البيزنطية إلى شبه جزيرة البلقان، وإلى جانب ذلك فقد عمل جاهداً من أجل القضاء على ثورات السلاف في تراقيا ومقدونيا^(٣). كانت المشكلة الداخلية الكبرى التي ورثها الإمبراطور قسطنطين الخامس عن أبيه هي الخلاف الديني بين الأيقونيين واللاأيقونيين، وهو الخلاف الذي دفع الفريق الأول إلى المناداة بسقوط قسطنطين الخامس، مما دفعه إلى الرد عليهم بوحشية وعنف، لم تهدأ جذوة الخلاف وما استدعاه من أفعال عنيفة بعد وفاة قسطنطين الخامس عام ٧٧٥م، فقد تولى ابنه ليون الرابع المعروف بالخزري ٧٧٥-٧٨٠م عرش الإمبراطورية البيزنطية، وكانت مدة حكمه قصيرة بسبب إصابته بداء السل.

وقد عُرِفَ عن سياسته الاعتدال -وبصفة خاصة- إزاء المشكلة الأيقونية، ومن أجل ضمان العرش لابنه قام في العام الثاني من حكمه بتتويج ابنه قسطنطين الذي عرف باسم قسطنطين السادس Constantin VI وريثاً له في الحكم من بعده^(٤). وتولى قسطنطين السادس وهو في العاشرة من عمره عرش الإمبراطورية البيزنطية عقب وفاة أبيه ليون الرابع بوصاية أمه إيرين. لكن أمه استطاعت إبعاده عن العرش، فأضحت الحاكم الأوحّد على الإمبراطورية البيزنطية.

ب-نهايتها وبداية التداعيات والثورات في الإمبراطورية البيزنطية:

كان لصغر سن قسطنطين السادس موجب قانوني، يحتم تعيين أمه إيرين وصية على العرش^(٥)، فأصبحت الحاكمة الوحيدة على الإمبراطورية البيزنطية، غير أنه لم يكن مقدراً

(١) عاقل، دراسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٦٠-١٦٢.

(٢) عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ص ١٠٨.

(٣) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١١٨.

(٤) عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١١.

(٥) كان لنظام الوصاية هذا أهمية بالغة في الحفاظ على مبدأ توريث العرش في الأسرة الحاكمة، لدرجة احتفاظ هذا الوصي بلبس التاج وباللقب الإمبراطوري وظهور صورته بجوار صور الإمبراطور الفعلي لاسيما على قطع النقود المتعامل بها في

لها المكوث طويلاً على العرش البيزنطي^(١)، وذلك على أثر ثورة قامت في القصر بقيادة وزير المالية الذي يُدعى نفقور الأول Niecephorus I ، معلناً نفسه إمبراطوراً، وذلك عام (٨٠٢م)، الذي تميز عهده بتجدد الحرب مع المسلمين، إلا أنه أرغم على الاستسلام ودفع الجزية لهم بعدما حلت الهزائم بجيشه على أيديهم، فضلاً عن خطر البلغار الذي هدد حدود الإمبراطورية البيزنطية، فقد تمكنوا من وضع نهاية له عام ٨١١م^(٢)، ليخلفه على العرش البيزنطي ابنه ستوراكيوس Strauracius، ونظراً لحالته الصحية التي لم تكن تسمح له بالجلوس كثيراً على العرش البيزنطي قام بتتويج أقرب الناس إليه وذلك لعدم وجود وريث شرعي يخلفه على الحكم وهو ميخائيل الأول رانجابه، وهو زوج أخته بروكوبيا، ويعد ميخائيل الأول رانجابه - Michael I Rangabe ٨١١-٨١٣م^(٣) رجل دين أكثر منه رجل سياسة، إذ اشتهر بحماسه للأيقونية، الأمر الذي أثار غضب اللاأيقونيين ضده فتوالت المؤامرات عليه، ووصلت القوات البلغارية أثناء حكمه إلى أسوار القسطنطينية، وانتهى الأمر به إلى العزل، حيث أمضى ما تبقى من حياته في أحد الأديرة^(٤).

بعدها نودي بليون الخامس الأرمني Leo. V إمبراطوراً عام ٨١٣-٨٢٠م، وهو ضابط عسكري، يُعد من ذوي الكفاءة السياسية والعسكرية لكونه أرمنياً من العناصر الشرقية، فقد حارب الأيقونيين وجاءت نهايته على يد قائد عسكري أيضاً في أثناء صلاته يوم الميلاد لعام ٨٢٠م، وهو ميخائيل العموري ٨٢٠-٨٢٩م^(٥)، مبتدئاً حكم أسرة جديدة هي الأسرة العمورية التي تربعت على عرش الإمبراطورية البيزنطية من عام ٨٢٠ حتى ٨٦٧م.

وهكذا انتهى حكم الأسرة الأيسورية بعزل الإمبراطورة إيرين عن العرش البيزنطي عام (٨٠٢م) وتولى بعدها حكم الإمبراطورية البيزنطية أربعة من مغتصبين العرش، انتهى

الأسواق المحلية والعالمية، بل كان هذا الوصي أيضاً هو أقرب الأشخاص وصولاً للعرش البيزنطي في حالة وفاة الإمبراطور الفعلي. رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٦٦-٧٤.

^(١) Vasilies. Op. p260.

^(٢) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٥٥.

^(٣) Vasiliev. Op. ca. pp.271-272.

^(٤) رستم: حرب في الكنائس، ص ٥٢-٥٣.

^(٥) السيد، محمود محمد: تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص ١١١-١١٢.

أمرهم بظهور أسرة جديدة هي الأسرة العمورية، ولعل أصدق تعبير عن هذه الحقبة القلقة -وهي الحقبة الممتدة من عام ٨٠٢-٨٢٠- هو ما دونّه المؤرخ ستيفن رنسيمن في كتابه الذي صدر عام ١٩٣٣م بعنوان الحضارة البيزنطية - سالف الذكر - حينما تحدث عن هؤلاء الأباطرة أو عن هذه الحقبة الحرجة بقوله: "جاءت في أعقاب الأسرة الأيسورية مرحلة من أباطرة قصيري العهد، تميّزت أيامهم بقيام الثورات"^(١).

(١) رنسيمن، الحضارة البيزنطية، ص ٤٤.

الفصل الثاني

الامبراطورية البيزنطية تحت حكم ليون الرابع وتتويج إيرين بصفة إمبراطورة مشاركة:

- ١- نشأة الإمبراطورة إيرين وتتويجها.
- ٢- إجراءات ليون الرابع الرامية إلى تسليم ابنه عرش بيزنطة.
- ٣- عودة السياسة اللاأيقونية قبيل وفاة ليو وموقف إيرين منها.
- ٤- الإمبراطورية البيزنطية تحت وصاية إيرين.

١ - نشأة الإمبراطورة إيرين وتتويجها:

تُعد إيرين Irene ٧٨٠-٨٠٢ م، (هيلانه، حنه أم مريم أم يسوع)، أول امرأة انفردت بالحكم بصفتها وصية على ابنها القاصر أولاً، ثم حاكمة منفردة بالحكم بعد بلوغ ابنها سن الرشد ثانياً^(١). وقد ورد ذكر الإمبراطورة إيرين في غالبية المصادر العربية باسم ريني^(٢)، وكذلك مصحفاً زيني^(٣)، على أن المراجع العربية تذكرها باسم إيرين وكذلك المراجع الأجنبية باسم إيرين Irene^(٤). كانت ولادة إيرين بمدينة أثينا باليونان عام ٧٥٢م^(٥)، ولا يعرف عنها إلا أنها عاشت يتيمة في كنف أسرتها المعروفة باسم سارانتابيخوس Sarantapechos ذات النخل السياسي في إقليم اليونان^(٦)، وأحضرها الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى القسطنطينية^(٧)، حيث احتفلت العاصمة احتفالاً بهيجاً بمناسبة زواج ولي العهد ليون الرابع بها، ففي صباح الأول من تشرين الثاني اصطفت القوارب بصورة أنيقة وباهرة، واستعد ليون الرابع في قصر هيريا على الشاطئ الآسيوي للبسفور لإحضار العروس التي ستدخل إلى بيزنطة بعد عدة أيام حيث باركهما القديس إستيفن Esteven بحضور الإمبراطور قسطنطين الخامس ووضع التاج على رأس العروس إيرين وألبسها القلادات المرصعة بالجواهر^(٨)، تمت مراسيم الزواج، وأنجبت -لاحقاً- ابنهما الوحيد قسطنطين السادس Constantuse V1^(٩).

(١) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥-٥.

(٢) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥-٥.

(٣) ويرجح أن زيني تصحيف حديث لكلمة ريني. الطبري: الرسل والملوك، حوادث عام ١٨٣ هـ، ٥٤٧/١٠.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ص ١٨٤.

(٥) Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991, voi, p.1008.

(٦) رفعت إيرين عدداً من أفراد أسرتها في مدة لاحقة إلى مراكز متميزة، فقد زوجت ابنة عم لها من خان البلغار تيليريك Telerik، وقريبة أخرى لها زوجت من الإمبراطور القادم ستوراقيوس Staurakios، وعين عمها قسطنطين سارانتابيخوس Constantine Sarantapechos قائداً لثيم اليونان Helladics، وشارك ابنه السباتاريوس Spatharios (حامل السيوف) ثيوفلاكت Theophylact the Spatharios في قمع ثورة أبناء قسطنطين الخامس عام ٧٩٩م.

Theophanous, The Chronicle of Theophanous Confessor: Byzantine and Near Eastern History AD. 284-813, trans. C. Mango & R. Scott, Oxford, 1997, pp. 651,664.

(٧) العربي، الدولة البيزنطية، ص ٢٢٢.

(٨) بطرس البستاني، دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، عام ١٨٨٠م، ٧٥٥/٤.

(٩) أبو الجدايل، عائشة سعيد: المرأة والسلطة في العصور الوسطى، حوليات مركز البحوث التاريخية، الحولية الأولى، الرسالة الثانية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٥١. ينظر أيضاً: جيبون، إدوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد سليم سالم، مراجعة: أحمد نجيب هاشم، د، م، ١٩٩٧م، ص ٥٧٦/٢.

أما السبب الهام الذي دفع الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى اختيارها زوجاً لابنه فقد اكتنفه الغموض، ومن المرجح أن ذلك راجع إلى جمالها ورجاحة عقلها، كما أنها معروفة الأصل والمنبت والمنشأ، ومهما يكن من أمر فإن إيرين أصبحت زوجةً لإمبراطور وأماً لإمبراطور^(١). شكلت وفاة والد زوجها قسطنطين الخامس في أغسطس من عام ٧٧٥م بداية صعودها إلى عرش الدولة من خلال تولي زوجها ليون الرابع أمور عرش إمبراطورية بيزنطة العريقة^(٢). تولت إيرين الحكم على أنها وصية على إمبراطور لم يبلغ السن التي تؤهله تقلد مسؤوليات الإمبراطور، غير أنه وللمرة الأولى تجلس امرأة في موقع الإمبراطور، مما يعني ظهور قضايا بالغة الأهمية ترتبط بمهام الإمبراطور، منها ارتباط منصبه بوظيفة القائد الأعلى للجيش، واقتصار إصدار القوانين والمراسيم الإمبراطورية بشخص الإمبراطور، فضلاً عن حقه في التدخل في أمور الكنيسة، وقد تفسر هذه القضايا الجدل الذي أثارته بتوليها هذا الموقع القيادي الهائل، غير أن اللافت للنظر أنه لم تُتخذ إجراءات من أجل إسقاطها أو إقصائها عن الحكم، ويمكن فهم تلقيب نفسها بلقب إمبراطور Basilieus^(٣) لا إمبراطورة Basilissa^(٤)، محاولة للتخفيف من حدة المنعطف الذي شكله وصول امرأة إلى عرش الدولة البيزنطية، وجعله أكثر قبولاً اتصفت إيرين بالطموح والرغبة الجامحة في إثبات قدرتها، فقد عملت منذ تسميتها وصية على عرش ابنها قسطنطين السادس على الاستئثار بالحكم والاستحواذ على السلطة، لذا كانت لا تسمح بوجود أي عائق أو عقبة يمكن أن تقف في سبيل تحقيق أغراضها^(٥).

(١) Nikephoros, patriarch of Constantinople, short history, ed. & trans. C. mango, Washington dc, 1990, p. 88

(٢) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥١. إدوارد جيبون: مرجع نفسه، ص ٥٧٨.

(٣) Basilieus: ظهر لقب باسيلئوس للأول مرة في مرسوم عام ٦٢٩م، وقد استخدم الإمبراطور هرقل في السنوات الأولى من حكمه اللقب الروماني القديم، الذي درج على استخدامه أسلافه، فحلَّ بذلك لقب باسيلئوس مكان الألقاب إمبراطور، قيصر، أغسطس. الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٣١.

(٤) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥.

(٥) الجنزوري، عليّة عبد السميع: المرأة في الحضارة البيزنطية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، بدون مكان، ١٩٨٢م، ص ٢٢.

٢- إجراءات ليون الرابع الرامية إلى تسليم ابنه عرش بيزنطة:

أضحى عرش الإمبراطورية البيزنطية ب وفاة الإمبراطور قسطنطين الخامس عام ٧٥٥م شاغراً، وكانت الحاجة ملحة إلى شخصية قوية تستطيع مواصلة العمل لاستمرار بقاء صرح الإمبراطورية البيزنطية عالياً وحماية ممتلكاتها وأقاليمها من عبث العابثين، لذلك عندما اعتلى الإمبراطور ليون الرابع مقاليد الحكم تطلعت إليه الأنظار أملاً في تحقيق فريد من تقدم الإمبراطورية البيزنطية في الداخل والخارج على حد سواء^(١).

عُرف ليون الرابع بالخزري، نسبةً إلى أمه ماريا ابنة خان الخزر، وقد نُصّب إمبراطوراً بعد وفاة أبيه الإمبراطور قسطنطين الخامس بصورة مباشرة تحت اسم ليون الرابع، غير أنه لم يتمتع بشيء من قدرات أبيه الشخصية والجسمية فقد كان مصاباً بداء السل الذي لم يمهل في الحكم أكثر من خمس سنوات^(٢).

لم يعبأ الإمبراطور ليون الرابع بالامتيازات والألقاب التي حصل عليها إخوته الخمسة فقد تسموا بلقب قيصر، على الرغم من أنه كان أكبرهم سناً، غير أنه لم يسمح بمشاركة أي منهم إياه في الحكم، وجعل أمر مشاركته في الحكم حكراً على ابنه الوحيد قسطنطين السادس، فعمد إلى نيل موافقة الجيش على ذلك، وتم تتويج قسطنطين السادس بتاريخ ٢٤ نيسان عام ٧٧٦م في كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية، وطلب الإمبراطور ليون الرابع من مجلس الشيوخ وممثلي جيوش العاصمة والأقاليم والشعب إعلان الولاء للإمبراطور الذي جرى تتويجه حديثاً، ليكون وريثاً له في حكم الإمبراطورية البيزنطية، وقد هتف الشعب والجيش ترحيباً بتتويج الإمبراطور الجديد وفق ما جرت عليه العادة عقب إنهاء مراسيم التتويج، كما شارك أرباب الحرف والصناعات المختلفة بالقسطنطينية أيضاً في تنصيب الإمبراطور الجديد قسطنطين السادس^(٣)، وذلك راجع إلى أن انتخاب الحكام وحده لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً مادام اغتصاب العرش مباحاً في الدولة البيزنطية، ولا يُعدونه خيانة إلا في حالة الاخفاق، كما أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الإمبراطورية في بعض الأحيان، وبذلك عدلت النظرية الرومانية القديمة بطريقة اختيار

(١) عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١١. حول أقاليم وممتلكات الإمبراطورية ينظر: الخريطة التوضيحية رقم ١.

(٢) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٨٣.

(٣) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٢١-٢٢٢. حول تتويج الإمبراطور ليو الرابع لابنه قسطنطين السادس ينظر الملحق الأول.

الحاكم الأعلى للدولة كما يأتي: "إن تفويض أمور الحكم للإمبراطور^(١) يخوله حق تنويع خلف له في أثناء حياته، ويظل مستبداً وحده بالسلطان، وعند وفاته ينتقل هذا السلطان إلى خليفته من تلقاء نفسه"، وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب^(٢).

وبذلك حصل الإمبراطور ليون الرابع على قسم ولأه جميع الفئات من المجتمع البيزنطي بتعيين ابنه خلفاً له، وقد قام بتعليق القسم على مذبح الكنيسة الكبرى في القسطنطينية^(٣)، وكان ذلك مصادفاً لعيد الفصح^(٤)، وفي صباح اليوم التالي جهز الموكب الحافل لتنويع الإمبراطور، يتقدمه النبلاء والقيصرة متجهين إلى ملعب الهيبودريوم Hippodrome^(٥)، ثم إلى الكنيسة، ويتبع هذا الموكب حشد تتقدمه أمه إيرين Irene، التي سارت بتواضع وأدب جمين محاطة بعدد كبير من الوصيفات والنساء والخصيان، وبعد مرور اثني عشر شهراً اجتمعت العائلة المالكة، ورجال الطبقة العليا جميعهم في قاعة جورجيس Gorgeous في قصر ماجنورا Magnoura، واحتفلوا بتتصيب الإمبراطور قسطنطين السادس مرة أخرى^(٦).

يُعد الإمبراطور ليون الرابع إمبراطوراً معتدلاً في سياسته، ولا سيما إزاء المشكلة الدينية التي كانت لا تزال قائمة، وذلك راجع إلى تأثره بزوجه إيرين، حيث قلد ليون الرابع سياسة جده الإمبراطور ليون الثالث المعتدلة -نوعاً ما- أكثر من تقليده أساليب والده الأشد قسوة^(٧).

(١) بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨٣.

(٢) بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨٣.

(٣) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٨٧.

(٤) عيد الفصح: يُعد من أكبر أعياد اليهود، ولا يُعرف أصل الكلمة معرفةً أكيدة، فهي تدل أحياناً على العيد، وحيناً آخر على الذبيحة التي تُذبح فيه، ويُقام العيد في بدء الربيع، فيُذبح الحمل أو الخروف الرابع عشر من نيسان، ويُؤكل في أول الخامس عشر منه أي بعد غروب الشمس من اليوم الرابع عشر وكان العيد يستمر لمدة سبعة أيام، لا يأكلون فيه إلا خبزاً فطيراً، وكان المصريون القدماء يحبون فيه ذكر خروج الشعب الإسرائيلي من مصر، أما المسيحيون يُعدون الفصح أحياناً لذكرى قيام اليسوع بعد وفاته. الكتاب المقدس الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، تر: صبحي حموي، وآخرين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٩م، ص ٤٦٢.

(٥) ملعب الهيبودريوم: هو ميدان السباق، وهو مبنى ضخم فسيح يتسع لجلوس ما يقارب الأربعين ألف شخص، لعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية في الإمبراطورية البيزنطية، كان الملعب هو كل شيء بالنسبة لأهالي بيزنطة، فيه ينادون بالباطرة ويخلعونهم، وبه يطبقون العدالة ويقتصون من المذنبين، وبه يحتفلون بدحر البرابرة المتمردين، وبه يستمتعون بمباهج الطبيعة والفنون، وبه ينقادون للخرافات، ويمثلون العقيدة الدينية، ويذوقون الفن والجمال، وبذلك تكون القسطنطينية قد ضمت روائع ثلاثاً هي: كنيسة آيا صوفيا لله، والقاعة الذهبية للإمبراطور، وميدان السباق للشعب. للمزيد من التفاصيل حول الملعب ينظر: ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص ١٢٠. عكاشة: الفن البيزنطي، ص ٣١-٤٢. رنسيما، الحضارة البيزنطية، ص ٢٢٩-٣٣٠. ينظر اللوحة رقم ٤.

(٦) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ٨٧-٨٨.

(٧) فرح، وسام عبد العزيز: دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية، الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤-١٠٢٥م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ١٩٠.

تفرغ إلى النظر إلى الأحوال والأوضاع الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية، غير أن المرض لم يمهله طويلاً إذ توفي عام ٧٨٠م، فكانت لهذه الوفاة المبكرة أهمية عظيمة لكونها جعلت السلطة الفعلية في الإمبراطورية البيزنطية تنتقل إلى أرملته إيرين التي أوكل إليها أمر الوصاية على ابنها قسطنطين السادس ريثما يبلغ سن الرشد^(١).

٣- عودة السياسة اللايقونية قبيل وفاة ليون وموقف إيرين من ذلك:

اتسم الأشهر الأخيرة من حياة ليون الرابع طابع تجدد محاربة الصور والأيقونات الدينية. وتحطمت هذه العودة الخجولة للسياسة الدينية كعهد الملوك المتقدمين بسبب موت الملك قبل أوانه في أيلول من عام ١٦٤هـ/ ٧٨٠م.

ويمكن الاعتقاد بأن الأسباب التي دفعت ليون للولوج في نهج جديد في سياسته الداخلية، ممثلاً بتجديد السياسة اللايقونية كانت غير واضحة بصورة دقيقة؛ إذ إنه لم يمنح الكهنة شعوراً قوياً بالإجلال، وكانت عاطفته حيالهم غير مشحونة بالولاء المطلق، على الرغم من تباهي هؤلاء الرجال الكهنة بشهادتهم الذين سقطوا في عهد أبيه، فضلاً عن ذلك جاءت أحاسيسه حيال الصور متواشجة مع أحاسيس أعضاء المجمع الديني المنعقد في قصر هيريا Heria، ويبدو أن مهادنته للكهنة ناتجة عن مخاوفه من بلوغ أحد من أخوته عرش الإمبراطورية، فقد تمكن من توطيد عرشه وتمكين حكمه، والدليل على صحة ذلك أنه تخلى عن مهادنة محبي الإيقونات بعد نجاحه في ترسيخ وجوده بوصفه إمبراطوراً، ومن علائم تخليه عن مجارة الكهنة موقفه الصارم الذي أفصح من خلاله عن انتهاء سياسة التنازل والمهادنة عقب موت البطريك نيكيتا Nikita في السادس من شباط في عام ٧٨٠م، فقد كان من أشد المحاربين للفنون الدينية، وقام بتخريب الصور، وكان في بدايته عسكرياً من العبيد الأغريق، قليل العلم، وهو من المخصيين، غير أنه أدى مهمة كبيرة، إذ قام بتهدئة الأوضاع في بداية حكم ليون.

يمكن القول أن موت (نيكيتا) سمح للإمبراطور أن يبدله برجل في متناوله، أو بالأحرى خاضع له، ومن أجل هذه المهمة المرغوبة والمهيبية فقد اختار القبرصي بولص، وتم تنصيبه في ٢٠ شباط، بحضور البلاط الملكي من مجلس الشيوخ، وعدد كبير من الكنسيين أصحاب المراتب العالية، بعد طرح اسمه دعا ليون الجالس على العرش الكبير في صدر الكنيسة المنتخب الجديد للدخول.

(١) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥-٥.

أدخل الحاكم في هذه الاحتفالية والتي كانت تنتهي بتهنئة الهيئات المشكلة للرئيس الجديد للكنيسة في القسطنطينية، شيئاً جديداً حتى قبل أن يسلم بولص تعليمات مهمته الجديدة، عندما فرض عليه تعهداً خطياً موقعاً وهو أن لا يبجل الصور، وبهذا يكون ليون قد صرح للمرة الأولى وبطريقة واضحة جداً رغبته في الشروع بالصراع ضد الصور، واستخلص الحاضرون محبو الصور النتيجة التي تفرض نفسها: روح المسامحة القائمة منذ حوالي خمسة أعوام قد انتهت.

لم يكن بمقدور إيرين منع العودة إلى سياسة محاربة الصور والفنون الدينية، بسبب التقاف المستشارين حول زوجها وكانوا قد أخلصوا لوالده من قبله، وعلى الرغم من محاولاتها الدائمة لإيصال صوتها إلى عقل زوجها، غير أنها أملت أن تبقى الطقوس المهيبة في تقديس الأيقونات بصورة سرية في بيت النساء، وهو المأوى المطلق والتقليدي للمعذبين جميعاً، ولكنها كانت مخطئة ففي محيطها المباشر انفجرت الأزمة الأولى، ولا نعلم فيما لو كانت بدأت هنا حقاً الشرارة الأولى لإعادة عملية تعذيب محاربي الفنون الدينية. فقد حدثت هذه المؤامرة ضد محبي الأيقونات التي اكتشفت في غرفة الإمبراطورة بصورة فعلية^(١)

ففي شهر نيسان لعام ٧٨٠م، عاد ليون الرابع إلى اتباع السياسة التقليدية، التي ترمي إلى مناهضة عبادة الصور، إذ أمر في العام نفسه بجلد وحبس طائفة من كبار الموظفين، أصروا على عبادة الصور وتمجيدها، وتم اعتقال كثير من أصحاب المراتب العالية في القصر كما تم اتهامهم بتقديس الصور على أن هذه العقوبة لم تبلغ في قسوتها وعنفها ما بلغته في عهد قسطنطين الخامس في معاقبة خصومه. فضلاً عن أنها كانت الحالة الوحيدة المعروفة عن اضطهاد عبادة الصور زمن ليون الرابع^(٢). ما القيمة التي نعطيها لهذا العقاب؟ ربما المقصود من ذلك اختبار شعبية الإجراءات القمعية لدى القسطنطينية والحكم على من يتعاطف مع مناصري تقديس الأيقونات الدينية من السكان بالعقاب.

كانت بداية المشكلة مع اكتشاف ليون بنفسه أيقونتين في غرفة زوجه إيرين تحت وسادة سريرها، في أثناء غيابها، وهي أغراض ممنوعة ولكنها موضوعة هناك من كبار الموظفين الذين كانوا متأكدين أنه لن يُبحث أبداً تحت سرير الإمبراطورة. وباكتشاف المؤامرة أُتخذت عقوبات شديدة

(١) Dominique, Barbe, Irene de byzance, la femme empereur, perrin, rue garanciere, paris,

1990, p.162.

(٢) Theophanes. Op. cit. P. 453.

بحقهم، وقرر ليون أيضاً أن يعاقب زوجه. حلفت إيرين بلا جدوى أنها بريئة من كل هذه القضية. فذكرها زوجها الإمبراطور بالقسم الذي أدته أمام أبيه تقسم فيه على امتناعها عن عبادة الصورة، وعلى الرغم من احتجاجاتها ودموعها، فقد قرر طردها ونفيها، لكن الموت المفاجئ لم يمهل زوجها، فقد وافته المنية في أيلول وفي ذلك الوقت كعقاب عادل من السماء^(١).

لم تطرد أو تتفى إيرين، فقد كانت حالة ليون الجسدية تتدهور خلال صيف عام ٧٨٠م، ويرجح سبب موته إلى غرامه بالحجارة الكريمة، فقد أعجب بتاج بديع الصنع نذري يشاهد في آيا صوفيا، دفعه تعلقه بالحجارة الكريمة إلى استحضاره إلى قصره، وتزيينه، مما أدى إلى إصابته بمرض لا يعالج بفعل الكربون، فمات في الثامن من أيلول عام ٧٨٠م^(٢).

قراءة إيرين حادثة موت الإمبراطور بوصفه عقاباً رانياً، قاضى ليون على طمعه، وفعل سرقة المقدسات، غير أن موت الإمبراطور يحفز تساؤلات عديدة جراء الغموض الذي أحاط ظهور العدوى الجلدية على جسم الإمبراطور، وكذلك الأمر حيال سبب العدوى هل هي مادة الكربون؟ أم أنه السل الرئوي، مما يفتح أبواباً مشرعة تؤدي إلى أن موت الإمبراطور قد تثير قضية ظلت حقيقتها مثار غموض، شكل موته بداية مرحلة متميزة في عصر الدولة البيزنطية، بسبب صغر سن الوريث الشرعي للإمبراطورية

(١) Theophanes. Op. cit P. 626.

(٢) فرح، نعيم، تاريخ بيزنطة السياسي، جامعة دمشق، عام ١٩٩٧-١٩٩٨، ص ١٧٠.
العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٢٢.

٤-الإمبراطورية البيزنطية تحت وصاية إيرين:

شكلت وفاة ليون الرابع لإيرين فرصة كي تمارس السلطة السياسية بوصفها وصية على ابنها القاصر الذي لم يكن قد تجاوز حينها العاشرة من عمره. فمنذ اللحظة الأولى لاعتلائها العرش كوصية، أو كإمبراطور مشارك^(١) Co-Emperor . عام ٧٨٠-٧٩٧م، عملت جاهدة لبسط نفوذها وسلطانها على كل شيء. وهنا تحضرنا تلك العبارة التي ذكرها ابن خرداذبة عن الروم حين قال ((ليس الملك فيهم وراثه ولا كتاب متبع إنما هو غلبة. وقد ملكهم رجال ونساء^(٢)))

وهذا ما سيحاول البحث تثبته إذ كثير ما آل الحكم إلى الأقوى وإن كان الأقوى امرأة. ويمكن التنبيه في هذا السياق من البحث إلى مقولة وردت في أحد المراجع الأجنبية، تقوي كثيراً مما تفكر البحث فيه، وتؤكد حقائق يعتقد فيها البحث^(٣) تقول: ((إن السر في قوة إيرين كان شغفها بالحكم، هذا الشغف الذي مزج بإخلاص شديد للأيقونات والصور. مما جعلها تظن في نفسها أنها الأداة المختارة بواسطة الرب، وأنها عادلة في كل تصرفاتها، وكان طموحها عظيماً إلى الدبلوماسية وإلى للمؤامرات، على الرغم من أنهما كانا أقرب إلى المكر منهما إلى فن الحكم. وأن اختيارها وزراء من بين خصيانها (الطواشية) كان الهدف منه ليس الحصول على القوة فقط بل والحفاظ عليها، ولكن ليس لمصلحة الدولة)).

والواقع أن هذه المقولة -في غالبها الأعم- صحيحة وللتدليل على ذلك لابد من أن نستعرض حقبة حكم تلك الإمبراطورة لنكشف حقائق أهوائها وميولها بوصفها حاكماً، وبوصفها أمماً. اعتمدت إيرين في مستهل حكمها المشترك على المخصي ستوراقيوس، وعلى قائد القوات البحرية^(٤)، حيث كانا معاونان الذين تثق بهما إلى أبعد الحدود، بل إن ستوراقيوس بالذات

^(١) Ostrogorsky, George, p. 177 وهذا الفصل الكلام عن هذا النظام معتمدين على أوستروجورسكي فنقول: كان لنظام الإمبراطور المشارك في بيزنطة أهمية خاصة في الحفاظ على نظام توريث العرش في الأسر الحاكمة الشرعية، وفي بيزنطة كما في روما لم يكن هذا النظام يخضع للقانون، وعلى ذلك أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوباً عملياً في اختيار خليفتهم المرغوب فيه كإمبراطور مشارك وذلك في مدة حكمهم وقبل وفاتهم، وكان هذا الإمبراطور المشارك يلبس التاج ويمنح اللقب الإمبراطوري. بل أن صورته كانت تظهر غالباً جنباً إلى جنب مع الإمبراطور الفعلي على النقود، وكان اسمه يدرج في المراسيم الإمبراطورية. وعند وفاة الإمبراطور الفعلي. يحل الإمبراطور المشارك محله ويتمتع بكامل سلطات الإمبراطور وعلى ذلك يحفظ حق ارتقاء العرش في داخل الأسرة الإمبراطورية ويدعم استمرار الدولة. وفي الحقيقة احتاج نظام الوراثة بعض الوقت قبل أن يستقر ويأخذ شكله النهائي. Ostrogorsky, p. 107.

^(٢) ابن خرداذبة: (ت ٣٠٠هـ / ٩١٢م)، أبو القاسم عبيد الله ابن عبد الله، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٠٩.

^(٣) C.W, previte, Orton, The Shorter Cambridge Medieval History, V. I Cambridge University. 1977. P249.

^(٤) Brehier, L, Vie el Mort de Byzance, paris 1947, p. 91.

أصبح خلال عشرين عاماً أخلص مساعد للإمبراطورة^(١)، سواء المشترك أم المفرد أي على امتداد حكمها تقريباً.

اتفق الباحثون فيما يخص مشاركة المرأة في السلطة السياسية داخل بيزنطة على تصنيف نسوة العرش اللاتي مارسن السلطة السياسية إلى أربع فئات محددة: وصية على إمبراطور قاصر، وزوجة للإمبراطور، وإمبراطورة منفردة، ووصية، ثم إمبراطورة منفردة^(٢). والفئة الأخيرة تمثلها الإمبراطورة إيرين فقط، فعلى مدار التاريخ البيزنطي الممتد إلى ما يقرب الأحد عشر قرناً لم يشهد العرش البيزنطي حالة مثل حالة إيرين، ولا شك في أن وصول إيرين إلى السلطة جاء انعكاساً لقيمة أيديولوجية الأمومة في هذا المجتمع، فالقانون البيزنطي عدّ الأم أكثر وأقرب شخص يحق له الوصاية على القاصر بعد وفاة الأب، فالأرملة وفقاً لذلك القانون "تصبح رأس الأسرة، تؤدي المهام التي يقتضيها هذا الدور، وتدير الأملاك، وتشرف على تعليم أولادها وزواجهم"^(٣).

غير أن إيرين بدت منذ اللحظة الأولى غير قانعة بأن تمارس السلطة وفق أيديولوجية الأمومة، أو بعبارة أخرى: وفق حق الوصاية، وتجلّى ذلك من خلال سعيها لإزاحة وليدها جانباً ليُتاح لها ممارسة سلطات الحاكم المطلق، وقد ظهر ذلك واضحاً في العملات الأولى لمدة الوصاية؛ إذ أشارت إلى قسطنطين بوصفه إمبراطوراً شريكاً، بدون أن يحمل شارات الملك، بينما ظهرت هي في كامل الهيئة الإمبراطورية التقليدية^(٤)، لتظهر ابنها بأنه مازال صغيراً.

وحتى تبقى إيرين في السلطة كان لا بدّ لها من أصدقاء سياسيين، فكان لها ذلك، إنهم مؤيدو العودة إلى تبجيل الصور. يعرف مؤيدو الصور المشاعر الجيدة للإمبراطورة إزاء الأيقونات، غير أن هذه المشاعر اكتست بعداً سياسياً باطن بعدها الديني، وريحت إيرين مناصرين بالعودة مع

(١) Amann, Emile, Histoire de l'Eglise, No. 6. L'époque Carolingienne, Paris 1947. P.112.

(٢) Garland, L, Byzantine Empresses: Women and power in Byzantium ad. 527-1204, New York, 1999, pp. vii- viii.

الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٤٧-٢٤٩.

رمضان، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٠١.

(٣) رمضان، المرأة والمجتمع، ص ١٢٧-١٢٨.

(٤) Grierson, p. Byzantine Coins, London, 1982, p. 158.

Treadgold, W, The Byzantine Revival 780-842, Stanford, 1988, p.60.

سياسة أكثر عمومية وأكثر تقليدية من تلك التي كان يتبعها الإيسوريين الأوائل. كان اهتمامها بالمسائل الإيطالية والأوربية يتقاطع بصورة كاملة مع موقف والد زوجها وموقف زوجها. من خلال هذه السياسة والتي تذكر بالآزمنة المجيدة القديمة. إن التزام إيرين بهذه السياسة، سيحقق لها نجاحاً باهراً، لأنه يقترب بأيام المجد والفخر للإمبراطورية البيزنطية، وسيعوض عن عدم وجود الإمبراطور على رأس الجيش كونها امرأة. تجلت حكمتها في هذا الشأن، في التشاور مع القادة الأكفاء الذين خبر قسطنطين الخامس طريقة تشكيلهم، وأصبحت إيرين تلك الملكة التي جلبت معركة أخرى وانتصرت على عدو أكثر هيبة وقوة من عدوها في الخارج تمثل محاربة الفنون الدينية، من أجل الحفاظ على الإيمان الحقيقي الذي انتصرت به، واكتسبت بذلك شرعية سلطتها الشخصية.

الفصل الثالث

السياسة الداخلية للإمبراطورة إيرين في أثناء الوصاية

- ١- القضاء على المؤامرات الداخلية.
- ٢- الإمبراطورة إيرين بين توجهاتها الجديدة والأوضاع الدينية السائدة قبيل وصايتها.
 - أ- بداية ظهور الأيقونات وتقديسها.
 - ب- حركة مناهضة الصور والتماثيل في عهدي الإمبراطورين ليو الثالث وقسطنطين. الخامس.
 - ج- المجمع المسكوني السابع والأخير في تاريخ الكنيسة الشرقية وآثاره.
- ٣- التنظيمات الإدارية والعسكرية والتشريعية للإمبراطورة إيرين.
 - أ- النظم الإدارية والعسكرية.
 - ب- الاتجاهات السياسة الإدارية والعسكرية في عهدها.
 - ج- الناحية التشريعية للإمبراطورة إيرين.

١- القضاء على المؤامرات الداخلية:

واجهت الإمبراطورة إيرين عدة عقبات في أيامها الأولى من حقبة حكمها أو وصايتها المبكرة على ابنها قسطنطين السادس، وكانت مشكلات داخلية، غير أنها بذكاؤها وتصميمها ومثابرتها استطاعت التغلب عليها، ونكلت بمن قام بها، واستطاعت أن تعمل على استقرار الأوضاع داخل الإمبراطورية وكذلك في خارجها^(١)، فقد مثلت الإمبراطورة إيرين قطباً هاماً وبارزاً من الأقطاب الأنثوية في التاريخ البيزنطي، وأثبتت ببعد نظرها، وسياستها الحكيمة وذكاؤها الحاذق جدارتها بصورة فعلية في هذا المنصب^(٢)، إذ استطاعت أن تعمل على إحباط محاولة تمرد كبيرة في القصر، بعد أربعين يوماً فقط من موت زوجها الإمبراطور ليون الرابع تمكنت من إلقاء القبض على القيصر نففور وأتباعه -شقيق ليون الرابع- الذي هدف إلى السيطرة على زمام الحكم لصالحه وصالح إخوته القياصرة، والإطاحة بالحكم القائم، غير أن الإمبراطورة إيرين علمت بتفاصيل هذه المؤامرة قبل تنفيذها، الأمر الذي دفعها لإجبارهم على التنازل عن حقوقهم في العرش^(٣).

وقد صادف ذلك يوم قداس عيد الميلاد من عام ٧٨٠م في كنيسة القديسة آيا صوفيا فأرغمت هؤلاء المتمردين على الدخول في السلك الكهنوتي، وبذلك أصبحوا جميعاً شخصيات دينية، بعيدة كل البعد عن السلك السياسي^(٤)، فأمنت بذلك جانبهم من الناحية السياسية والشرعية، وبذلك تخلصت من منافس قوي لها على العرش.

أما العقبة الثانية التي اعترضت طريق الإمبراطورة إيرين فتمثلت في تأمر بعض القادة في المناطق الشرقية^(٥) التي حافظت على ولائها للإمبراطور السالف قسطنطين الخامس، لكن

(١) Ostrogorowski: Op. Cit. P.117.

(٢) الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ١٥٣.

(٣) Ostrogorowski: Op.Cit. P.177.

(٤) عبد الله، وديع فتحي: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص ٢٠٧.

(٥) المناطق الشرقية: يُقصد بها البنود الواقعة في شرق الإمبراطورية البيزنطية، وتشمل بند الأرمنيakni وهو يقع في الشمال الشرقي من آسيا الصغرى ويتأخم أرمنيا ويطلق عليه لفظ الاناتوليك Anatolikes وهو مشتق من اللفظة اليونانية Anatoli وتعني الشرق، أما بند الأيسيق Opsikion فكان يتألف من الحرس الإمبراطوري ويقع قرب بحر مرمرة على البسفور، أما بند الكارافيسوم Them Caravisiowm وهو الذي اشتهر فيما بعد باسم كيريوت Cibyrain ويقع على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ويدخل فيه أيضاً الجزر المجاورة (قبرص، رودس، كريت). Vasilieve: Op. Cit. P.228.

الإمبراطورة استطاعت القضاء عليها في مهدها، وقامت بمعاقبة هؤلاء القادة المتآمرين ومنهم بارداس الإستراتيجوس الأسبق لبند أرمينيا، وكذلك قائد الحرس الإمبراطوري، وكذلك أدميرال الأرخبيل، والمشرف العام على الوظائف، فقد تمت معاقبتهم بالجلد ثم النفي ولم ينجُ من العقاب سوى نففور دوكاس الذي اتخذ طريقه لاجئاً إلى العرب المسلمين^(١).

جاء التمرد الثالث من إحدى جزر وينود الإمبراطورية البيزنطية، جزيرة صقلية، وذلك لعدم رغبتهم في تولي الإمبراطورة إيرين الحكم إذ اندلعت ثورة شديدة تحت قيادة ثيبيدوس Thepedos^(٢) قائد صقلية، والمسؤول البيزنطي الأول في الغرب، وقد كان ذلك عام ٧٨١م، ونظراً لانشغال الإمبراطورة بالتجهيزات الإدارية والعسكرية نحو الشرق -الخلافة العباسية- فإنها أرجأت هذه المسألة حيناً من الوقت، حتى تضمن هدوء الجبهة الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية^(٣)، ولتضمن عدم تشتت قواتها شرقاً وغرباً.

قامت الإمبراطورة إيرين بعد ذلك ببعث رسول تطلب منه الكف عن التمرد، والحضور إليها، لكن الأهالي رفضوا استسلامه بعدما عمل ثيبيدوس على إغراقهم بالمال والعطايا، وأخذت التمردات من جديد تأخذ طريقها إلى صقلية^(٤).

نفذ صبر الإمبراطورة إيرين بعد العديد من المحاولات السلمية والدبلوماسية تجاه متمردي جزيرة صقلية، لكن الأحوال فيها زادت تمرداً وسوءاً فأرسلت إليها حملة عسكرية، استطاعت تحقيق الانتصار على هؤلاء الثائرين الذين تسببوا بزعة أمن الإمبراطورية، إلى أن استقرت أوضاع الجزيرة بهروب قائدها ثيبيدوس إلى إفريقية عام ١٦٦هـ/٧٨٢م^(٥) أما القوات البيزنطية فقد

^(١) Theophanes: Op. Cit. P.653.

^(٢) Une Societe de Savant de Cens de Lettres: Dictlohnnaire, seconde Edition, 11, Paris, 1875.P.465

^(٣) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٢.

^(٤) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٣.

^(٥) كان التأخير في قمع ثورة البيديوس في صقلية هو ما أشيع عن وجود علاقة بينه وبين الإمبراطورة إيرين وكان قسطنطين السادس على علم بها، فالواقع بعد فراره إلى إفريقية تعهد أميرها بأن يسلمه جزيرة صقلية، وعلى ذلك تمت مبايعته إمبراطور على الرومان، وقد زوده بأربعة آلاف جندي عبر بهم إلى الأراضي البيزنطية عام ٧٨٤م وأقسم على اجتياح بلاد الروم ولكن ما إن وصلت الحملة البلاد حتى أتلقت الثلوج مأونتهم وهلك منهم من البرد الكثير وأنه نفسه قد هلك أثر هذا البرد، وتفرق البقية في بلدان كثيرة. الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ٢٨-٢٩.

ومهما يكن من أمر فإن الإمبراطورة إيرين لم تعمل على أن يكون البيديوس قريباً منها أي في القصر فنجدها تعين مستشارين من الخصيان كي لا يرد إليها أدنى شك في طموحهم للعرش، وعلى الرغم من أن قسطنطين السادس بعد بلوغه سن الرشد وتوليه الحكم عام ٧٩٠م كان يشك في وجود علاقة بينهما في ذلك الحين لم ينتقم وتذكر المصادر الأجنبية وعلى

استطاعت تطهير البلاد من الفساد الذي انتشر فيها، وأصدرت الإمبراطورة إيرين أوامرها بالقبض على زوج البيدوس وأطفاله وسجنهم، وذلك حتى لا يفكر البيدوس بالعودة مرة ثانية إلى جزيرة صقلية^(١).

والواقع أن كل تلك العقبات، كان المحرك الأساسي لها واحد، وهو العناصر اللاأيقونية^(٢).

٢ - الإمبراطورة إيرين بين توجهاتها الجديدة والأوضاع الدينية السائدة قبيل وصايتها:

أ - بداية ظهور الأيقونات وتقديسها.

منذ قيام الإمبراطورية البيزنطية والديانة المسيحية تؤدي دوراً رئيسياً في حياة المواطن وفكره، بغض الطرف عن درجته الاجتماعية، وذلك حتى القرن الأول الهجري السابع الميلادي ، أي قبل دخول فلسطين في حوزة الإسلام، حيث كان الزوار الروم يعودون برفات القديسين والشهداء من الأرض المقدسة ويحتفظون بها ويجلونها، وذلك جرياً على تقليد قديم قامت به الإمبراطورة هيلانة (أم قسطنطين الأول) عندما ادّعت أنها جاءت بقطعة من الصليب الأصلي من فلسطين في أثناء رحلة لها إلى الأراضي المقدسة^(٣)

ومنذ ذلك الوقت ظل تدفق الحجاج البيزنطيين على الأرض المقدسة مستمراً بهدف البحث عن الرفات والآثار المباركة، وعندما كانوا يعودون إلى ديارهم يودعون ما جاؤوا به في أديرتهم وكنائسهم، وبمرور الوقت أصبح في القسطنطينية عدد كبير من بقايا هذه الرفات والآثار المباركة^(٤).

توقف تدفق هذه الآثار نتيجة للفتح الإسلامي لفلسطين، وأصبح من الصعب على الحجاج السفر لجلب هذا الشيء من البقايا المقدسة ومن هذه الآثار، ومن ثم استغل الفنانون البيزنطيون تلك الفرصة ليقوموا برسم أيقونات ملونة للرسائل والقديسين لتحل محل هذه الآثار الأصلية وشيئاً فشيئاً انتشرت صور السيد المسيح والسيدة العذراء، يقفون أمامها في خشوع مستلهمين النصر ودفع المكروه وملتمسين البركات والشفاء، بل وأشاعوا أن انتصار الإمبراطور هرقل على الفرس

رأسها ثيوفانيس "كانت إيرين محتشمة ولم تتخذ لنفسها عشيقاً خوفاً منها أن يصبح إمبراطوراً ذات يوم. ينظر.

Theophanes: Op. Cit. P583.

^(١)الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ٢٨-٢٩.

^(٢)G. Ostrogorsky, pp. 177-178.

^(٣)قشر، هـ، أ.ل: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، تر: محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٦٨-٦٩. ننع، دور المرأة في مصر البيزنطية، ص ٧١.

^(٤)يوسف، معالم التاريخ البيزنطي، ص ١٢٤-١٢٥.

عام ٦١٤م إنما كان بسبب بركة أيقونة للعدراء هبطت عليه من السماء^(١)، فامتألت الكنائس والأديرة بهذه الصور المقدسة وامتألت ميادين القسطنطينية بتماثيل السيد المسيح والسيدة العذراء، وربما ساعد على انتشار فن الأيقونات اهتمام الأباطرة مثل جستنيان الكبير بتزيين حيطان كنيسة أيا صوفيا حيث شاع استخدام الأيقونات في الكنائس الكبرى والصغرى على السواء، وبمرور الوقت أصبحت هذه الأيقونة تحظى باهتمام المتعبدين، ففي القرن الثامن الميلادي انتشرت عبادة الأيقونات، وازدهر الفن الديني وراجت تجارة الصور والتمائيل، وانتشرت طبقة المتخصصين في هذا النوع من الفن^(٢)، ونُقشت الصور على أقمشة الملابس وعلق الناس بها حتى صاروا يسجدون لها طلباً لبركاتها ومعجزاتها عند المحن، غير أن فريقاً من رجال الدين أثاروا تخوفاً ومعارضة إزاء تفشي عبادة الأيقونات ودعوا إلى مقاومة هذه الظاهرة بحركة لا أيقونية مضادة، وكان ذلك قبل ظهور الأسرة الأيسورية التي اقترن تاريخها بهذه الحركة^(٣).

ترجع جذور الاعتراض إلى إنكار بعض القديسين القدماء هذه البدعة، ثم تزايدت حدة المعارضة في القرن الخامس الميلادي، على يد بعض الأساقفة مثل الأسقف فيلومينوس Philomenos في هيرابوليس Hierapolis (منبج) "شمال غرب حلب بالقرب من الفرات" وفي القرن السادس قامت حركة في أنطاكية ضد عبادة الأيقونات امتدت حتى إقليم الرها، حيث قذف الجنود الثائرون صور المسيح بالأحجار. ومن الأباطرة الذين قاوموا هذه العبادة الإمبراطور موريس Morris. وفي الغرب أمر أسقف مرسيليا سيرينيوس Serenius بتحطيم جميع الأيقونات في الكنائس، مما جعل البابا جوريجوري الأول ٥٩٠-٦٠٤م يبعث إليه برسالة يلومه فيها على فعلته بقوله: "إنها وسيلة لتتقيف الأميين الذين يقرأون في الصور والتمائيل ما لم يتمكنوا من قراءته وفهمه عن طريق الكتب"، أي أن التماثيل والصور هي إنجيل الجاهل^(٤).

ويمكن القول: إن الحركة اللاأيقونية لم تكن حركة مفاجئة؛ إذ إن تشبيه المسيح والقديسين بالصور المقدسة قد شغلت أذهان الناس منذ القرن الرابع الميلادي على أبعد تقدير فقد مزق القديس إيفانيوس Ephraim رهب سلاميس ٣١٥-٤٠٣م ستارة فيها صورة للسيد المسيح، وقرر

(١) طرخان، إبراهيم علي: الحركة اللاأيقونية في الدولة البيزنطية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ٤-١٦.

(٢) عكاشة: الفن البيزنطي، ص ١٧١.

(٣) Vasiliev.Op. cit. P. 166.

(٤) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ص ١٤١.

مؤتمر ديني عُقد في مدينة الفيرا Elvera الإسبانية عدم جواز تعليق الصور وإقامة التماثيل في الكنائس^(١).

فما حصل للإمبراطورية البيزنطية من أزمة خطيرة زمن حركة مناهضة هذه الصور المقدسة إنما جرى توقعه منذ زمن الإمبراطور فيليبكوس بارداس وإليه يرجع ما كان لعصره من أهمية تاريخية، إذ بعث النزاعات الدينية من جديد -وبصفة خاصة- النزاع على الأيقونات^(٢).

فمن الطبيعي أن يترتب على اعتناق الإمبراطور فيليبكوس بارداس لنحلة قضى المجمع المسكوني ببطلانها "المونوثيلية" (Monotheletism) " إلى ازدياد السخط في روما، فعند تولية بارداس العرش أرسل إلى البابا قسطنطين ٧٠٨-٧١٥م صورته وأعلن احترافه بالإيمان "الدين"، وكان هذا الاحتراف مشعباً بروح المونوثيلية، فلم تحز صورة الإمبراطور الملحد القبول في روما، وجرى عدم التصريح بنقشها على النقود، وتقرر إبطال اسم الإمبراطور من الصلوات المقررة في الطقوس الكنسية، كما تقرر أيضاً إسقاط اسمه من الوثائق والقوانين، وكان لما حدث من إزالة كل ما يتعلق بالمجمع المسكوني السادس من الرسوم بالقصر الإمبراطوري بالقسطنطينية أن زاد حنق البابا الذي أمر بوضع جميع صور ذلك المجمع في كنيسة القديس بطرس بروما^(٣).

ومن ذلك يتضح أنه حدث قبيل نشوب حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة نوع من الشقاق بين الإمبراطور الملحد والبابا زعيم المسيحية الصحيحة، وتعدّ الأيقونة أساس هذا النزاع وأظهر الجانبان حجة بقبول الصور نفسها^(٤).

(١) اليوسف، معالم التاريخ البيزنطي، ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) Ostrogorski: op. ca. pp. 134-155.

(٣) اليوسف، معالم التاريخ البيزنطي، ص ١٠٥-١٠٧.

(٤) العريني، معالم التاريخ البيزنطي، ص ١٨٤.

ب- حركة مناهضة الصور والتماثيل في عهدي الإمبراطورين ليون الثالث وقسطنطين الخامس:

واجهت الإمبراطورية البيزنطية خلال عصر الأسرة الأيسورية حقبة من الصراع الديني إزاء عبادة الأيقونات المقدسة، إذ انقسم شعب بيزنطة بين مؤيد ومعارض لها^(١)، لذلك نجد أن الجدل لم ينته حول شخصية المسيح في المؤتمر المنعقد سنة ٦١١هـ/٦٨٠م، بل استمر بصورة أخرى طيلة القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وقد تمركز الصراع حول الأيقونات المقدسة. ومن المعروف أن الأباطرة الأيسوريين كانوا لا أيقونيين فهم ينتمون إلى الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية، ووقفوا على ما ساد هذه الجهات من الآراء المختلفة المتعلقة بعبادة الصور المقدسة، فلما أضحوا بأباطرة نقلوا معهم إلى القسطنطينية هذه الأفكار واتخذوها أساساً لسياستهم الكنسية لتطهير العقيدة من الأخطاء التي تسربت فيها، فقد غضب الإمبراطور ليون الثالث من إفراط الشعب في التدين وحرّ في نفسه ما كان يوجهه المسلمون واليهود من انتقادات نحو المسيحيين الذين يعبدون الأيقونات^(٢)، فقد أمر الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك عام ١٠٥هـ/٧٢٣م بتحطيم الصليبان^(٣) ومحو الصور والتماثيل من الكنائس في جميع أرجاء الدولة الإسلامية، غير أنها لم تكن تمنع رعاياها المسيحيين من الإدلاء بأرائهم في المسألة الأيقونية على الرغم من أنها لم تكن تقر عبادة الأيقونات في أرضها نفسها، شهدت الأيقونات انتشاراً واسعاً طال الحمامات العامة وتزينت بها^(٤).

لقد رأى الإمبراطور ليون الثالث أن يضعف من سلطة الأساقفة على الشعب والحكومة، ففي عام ١٠٨هـ/٧٢٦م وجد الفرصة وافرة وكان ذلك عند قيام ثورة بركانية في ثيرا "باليونان"، الأمر

(١) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٤٩.

(٢) Vasilieve: Op. Ca. P.257.

(٣) نهى القرآن الكريم عن التماثيل وشنّع على كل من كان يعكف عليها، ونَدّد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة، قال تعالى: (أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون) سورة الصافات الآية ٩٦، وفي سورة المائدة قال تعالى: (يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآية ٩٢. ومن الأحاديث النبوية ما رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يُقال لهم أحيوا ما خلقتم). يُنظر: البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزیه: صحيح البخاري، مطبعة الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٣٤٥هـ، ٢١٥/٧-٢١٧. عكاشة، ثروت: التصوير الإسلامي بين الحظر والإباحة، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد السادس، الكويت، ١٩٧٥م، ص ٥٢٥-٥٢٠.

(٤) زيات، حبيب: الصور والأيقونات في الحمامات قديماً، مجلة المشرق، مكتبة الآباء اليسوعيين، السنة الثانية والأربعون، بيروت، ١٩٤٨، ص ٣٢٤-٣٢٥. علام، نعمت إسماعيل: فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٤٢.

الذي قال عنه بأنه علامة غضب الرب على الإمبراطورية البيزنطية بسبب مساوئ الحالة الراهنة، وقال بضرورة إرضاء الرب بإلغاء عبادة الأيقونات^(١). ويمكن القول: إن حركته كانت محاولة من أجل القيام بإصلاح سياسي واجتماعي، فضلاً عن كونه إصلاحاً دينياً في نظر ليون الثالث^(٢)، الذي رأى أن البيوت الدينية أضحت واسعة الانتشار في أرجاء الدولة البيزنطية، علاوة على تمتع أهلها بامتيازات وإعفاءات مالية، فضلاً عن كثرة الرهبان والديرين، الأمر الذي كان له أثر سيء في حركة التجنيد والشؤون الزراعية مما أثر سلباً - بدوره - في خزانة الدولة، مما دفعه إلى إصدار مرسوم يطلب فيه من القائمين على شؤون البيوت الدينية رفع الصور المقدسة إلى أمانة عالية ليمتنع الناس تدريجياً عن الركوع والسجود أمامها^(٣)، غير أن هذا المرسوم المعتدل أدى إلى فتنة شديدة بالقسطنطينية فرأى الإمبراطور عدم التخاذل أمام هذه الثورة الشعبية، إذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه جميع التماثيل والصور الموجودة في الكنائس وغيرها. أثار المرسوم سخطاً عارماً في القسطنطينية امتدت آثاره إلى خارج العاصمة، وكان ذلك إيذاناً باندلاع الحركة اللاأيقونية التي استنفدت قوى الإمبراطورية البيزنطية وتفرعت عنها مشكلات لم تكن في الحسبان^(٤)، وظهر في بيزنطة حزب قوي يناهض عبادة الصور المقدسة، وكان من أهم مواطن هذه الحركة في آسيا الصغرى لا سيما في فريجيا Phrygia تزعمها رجال من الكنيسة منهم المطران توماس رئيس كنيسة كوديو بولس Coudiopolis وقسطنطين رئيس كنيسة اوكليا Oacolea ويعدّ المحرض الروحي لمناوأة الأيقونية البيزنطية وأطلق عليه البيزنطيون الأرثوذكس لقب (زعيم الهرطقة) ، بدأت المشكلة بالتفاقم عندما أمر جنده بتحطيم تماثيل المسيح المنصوب بأعلى مداخل القصر الإمبراطوري وهو المعروف باسم خالكي Khalki، وكان هذا التمثال موضع تقديس وتبجيل من الجماهير، غير أن هذا الإجراء أدى إلى ثورة عنيفة بالمدينة تسبب بموت امرأة عدّت شهيدة^(٥).

(١) الحديثي: مرجع سابق، ص ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) عبد الحميد، رأفت: الاضطهاد الروماني للمسيحيين بين الاعتقاد الكنسي والفكر السياسي، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، جامعة الإمارات، ١٩٨٧م، ص ٢٨-٢٩.

(٣) كانتور، نورمان ف: التاريخ الوسيط- قصة حضارة البداية والنهاية، ترجمة وتعليق قاسم عبدة قاسم، القاهرة، ٢٠٠٠م، ٢٥١-٢٥٠/١.

(٤) الدبس: تاريخ سورية، ص ٢٧٩.

(٥) Ostrogorski: Op. Ca. P. 143.

وجعلها الشعب في مرتبة القديسات ولقبت بالقديسة ثيودوسيا ولقي مندوب الإمبراطور الذي حطم التمثال حتفه في هذه الثورة العارمة^(١).

قاوم الشعب بطاقاته كافة وعلى رأسه الرهبان إجراءات الإمبراطور وقراراته مقاومة شديدة لاسيما في الولايات الأوروبية، إذ تحدثوا عن نواياه وأشاعوا بأن اليهود قد اشتروا موافقته على تحطيم التماثيل بالمال وإن الخليفة الأموي يزيد أدخله في الإسلام سراً، واتَّهم أيضاً بالعمل للقضاء على المسيحية^(٢)، فبدأ الإمبراطور ليون الثالث بالانتقام من المتظاهرين وقتل عدداً منهم فصاروا يعدون شهداء، ولعل الأكثر أهمية من الثورة في القسطنطينية ما حدث في بلاد اليونان من تمرد، وترتب على ذلك أن جنود ثغر هيلاس نصبوا إمبراطوراً وأرسلوا أسطولاً لمهاجمة العاصمة، وأظهرت ممتلكات الإمبراطورية في أوروبا ميولها نحو عبادة الصور المقدسة^(٣)، وعلى الرغم من أن الإمبراطور لم يجد صعوبة في قمع الثورة، فإن نهوض السكان ضد الإمبراطور كان يعد نذيراً لا يمكن تجاهله، ونتيجة لذلك لجأ إلى مفاوضة السلطات الكنسية الرئيسية محاولاً الظفر بتأييد البابا وبطيريك القسطنطينية، غير أن ما عرضه الإمبراطور ليون على البطيريك جرمانوس من اقتراحات لم تلقَ إلاَّ الرفض، ولم تؤدِّ رسائله إلى البابا جريجوري الثاني ٩٧-١١٣هـ / ٧١٥-٧٣١م إلاَّ إلى نتائج سلبية، ولعلَّ أخطر أعداء الإمبراطور ليون الثالث كان القديس يوحنا الدمشقي ٦٧٥-٧٥٠م، وهو ابن منصور الرومي وكان صديقاً للخليفة يزيد بن معاوية، وهو أرثوذكسي شغل وظيفة كبيرة في دار الخلافة الأموية بدمشق، ثم صار من رهبان دير القديس سابا بالقرب من بيت المقدس، ويُعدُّ من أشهر علماء عصره في أمور الدين، فما كتبه من رسائل وهي ثلاثة دفاعاً عن الأيقونات ليست إلا رمزاً أو وسيلة يهدف مقتضاها إلى أن يقف عامة الناس على ما ينبغي أن يقدَّسوه^(٤)، ولم يسع الإمبراطور بعد أن حبطت مساعيه في الوصول إلى اتفاق مع رؤساء رجال الدين إلاَّ أن يلجأ إلى القوة لتحقيق أغراضه فأصدر قراراً يقضي بتدمير كل الأيقونات المقدسة، وفي الوقت ذاته حرص على أن يجعل عمله مشروعاً فعقد عام ١١٢هـ / ٧٣٠م مجلساً شهد به كبار الموظفين المدنيين والكنسيين.

(١) عكاشة، الفن البيزنطي، ص ٢٠٦.

(٢) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٢.

(٣) Vasilieve: Op. Cit. P. 258.

(٤) Vasilieve: Op. Cit. P.255.

وطلب منهم الموافقة على القرار الذي اتخذه، غير أن البطريرك جرمانوس رفض الموافقة على الطلب، فقرر عزله وأمضى بقية عمره في مزرعته^(١)، وتولى بعده البطريرك أنستاسيوس في ٢٢ يناير من العام نفسه، فأعلن استعداده الموافقة على قرار الإمبراطور، وترتب على ذلك أن هذا القرار لم يصدر باسم الإمبراطور ليون الثالث فحسب، بل بموافقة الكنيسة أيضاً، فأصبح القرار بذلك واجب التنفيذ، وجرى تحطيم الأيقونات وتعرض عبادها إلى الاضطهاد^(٢).

اشتدت الحملة ضد الأيقونيين بعد وفاة الإمبراطور ليون الثالث، وذلك في عهد ابنه الإمبراطور قسطنطين الخامس الذي عُرف بقسوته الفظيعة وبشجاعته ودهائه^(٣)، فقد عمد إلى إضعاف أتباع الأيقونية في جهات البلقان بتجهيز جموع غفيرة من الأرمن من أتباع الفرقة البولسية^(٤) اللاأيقونية، وأسكنهم في تراقيا والقسطنطينية^(٥).

وفي عام ٧٥٤م أمر قسطنطين الخامس بعقد مجمع مسكوني يضم رجال الدين للحصول على قرار بشرعية سحق الأيقونيين بوصفهم مهرطقين، فعُقد المجمع بقصر القديسات -أو الأسرار القدسية- في هيريا Hieria وهو يقع على الشاطئ الآسيوي المواجه للبوسفور، وقد حضره ما يقارب من ٣٣٣ أسقفًا من كبار رجال الدين المؤيدين له من أقاليم وولايات الإمبراطورية كافة^(٦)، ولم يحضر هذا المجمع ممثلو البابا أو بطاركة الإسكندرية والقدس وأنطاكية والشام، ورفض حضور هذا المجمع بعض رجال الدين المتشددين ووصفوه بأنه مجمع المهرطقين، وقد تصادف أن كرسي البطريركية في القسطنطينية أصبح شاغراً بعد وفاة البطريرك أنستاسيوس ولهذا اتخذ

(١) Ibid. P.255. Ostrogorski: Cp. Cit. P.154.

(٢) الشيخ، محمد محمد مرسى: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ط ٣، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) المسعودي: مروج الذهب، ٣٢٩/١.

(٤) البولسيون Paulicians: هي إحدى أهم الطوائف الدينية التي تقول بالثنائية، وكانت تحاول فيما بين عامي ٦٦٨-٨٧٥م نشر عقيدتها بين الأرمن وخاصة في منطقتي دجلة والفرات. وقد عملت الدولة الإسلامية في حروبها مع البيزنطيين على التحالف مع أتباع المذهب البوليصي الذين يسكنون جنوب الأناضول، والذين يعانون من الاضطهاد الديني للدولة البيزنطية، ويطلق عليهم أحياناً في مصادرنا "البياقة" وأحياناً "الصقالبة"، وكان لهؤلاء جهد مهم في الحجز بين القوات البيزنطية والإسلامية زمن الخلافة العباسية لمدة من الوقت، بل لقد قاموا أحياناً بتهديد القسطنطينية ذاتها، وكانت الخلافة قد تعهدت بالإنفاق عليهم وضمان رواتبهم في مقابل حماية بعض الثغور في منطقة الحدود، وظلوا يمثلون فائدة حربية كبرى حتى دب الضعف في جسد الخلافة وخسرت -بسبب سوء صنيع بعض الولاة- هذا التحالف المهم، الطبري: تاريخ الطبري ٥/٥١٣،

د. سهيل زكار في الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية ٢١٥/٣.. PP.321-353. Deancaly and Mens: Op. Ca.

(٥) أو مان، الإمبراطورية البيزنطية ص ١٥٤-١٥٥.

(٦) الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢١٦.

الأيقونيون من ذلك ذريعة لإبطال قرارات المجمع، لأن هذا المجمع لا يمثل رجال الدين والأساقفة ولم يترأسه بطريرك الكنيسة^(١).

وعلى الرغم من الهجوم الشرس على المجمع إلا أنه استمرّ منعقدًا لمدة ستة أشهر وراح قسطنطين الخامس يقدم البحوث تلو الأخرى لشرح الأسس التي تقوم عليها حركة تحطيم الصور، وقام بدور فعال في النشاط الأدبي.

إذ ألف ما لا يقل عن ثلاث عشرة رسالة دينية لم يبق منها سوى رسالتين مما كان له أثر كبير في ازدياد شرح الآراء اللاأيقونية، إذ اختلف قسطنطين الخامس عن دعاة عباد الصور في أن هؤلاء الأيقونيين يفرقون بين الأيقونة "الصورة" والحقيقة التي تمثلها فيعدون الأيقونة مجرد رمز، أما قسطنطين الخامس الذي تأثر بالآراء الشرقية فإنه أصر على الاتحاد الكامل بين الصورة والحقيقة التي تمثلها وبذلك أدخل في مناقشته ما هو معروف من الجدل حول المسيح وعارض بشدة أمر تشبيه المسيح، فكأنه تجاوز ما ذهب إليه اللاأيقونيون السابقون من أنهم أنكروا عبادة الأيقونات لأنها تعدّ إحياء لعبادة الأصنام^(٢).

لقد أنكر قسطنطين الخامس جواز رسم المسيح على أساس ما له من صفة إلهية، في حين أن بعض البطارقة أمثال جرمانوس Germanus ، ويوحنا الدمشقي أجازوا تصوير المسيح على أساس التجسيد فذهبوا إلى أن تصوير المسيح في إنسان إنما يأتي تأكيداً لحقيقة تجسده^(٣). والواقع أن الحركة اللاأيقونية لم تكن في صورها الأولى إلاّ مونوفستية متطرفة، وتفصح كتابات قسطنطين الخامس عن هذه الميل، نظراً لقوة المونوفستية على أطراف الدولة البيزنطية من جهة سورية وأرمينيا، واستمرار أثرها داخل الإمبراطورية^(٤).

وبعد أن اجتمع أساقفة المؤتمر برئاسة الأسقف ثيودوسيوس أسقف أفسوس أصدروا في نهاية شهرهم السادس قرارات تؤكد شرعية الحركة اللاأيقونية وأكدوا أن تصوير المسيح والأنبياء والقديسين في صور بشرية يعدّ هرطقة، وأن التعبد بالصور والأيقونات إنما هو ضرب من

(١) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢١٦.

(٢) Ostrogowroski: Op. Cit. P.132.

Ostrogowroski: Op. Ca. P.153.

(٣) بنز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١٦-١١٨.

(٤) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢١٦.

ضروب الوثنية ومن يعبدها سواء أكان من المدنيين أم من الرهبان يعاقب قانونياً بوصفه ثائراً ضد أوامر الله.

وعلى الفور أمر قسطنطين الخامس تنفيذ قرارات هذا المجمع وأصدر أوامره بتدمير وتحطيم الأيقونات والصور والتماثيل الدينية جميعها، وأباح دماء زعماء الأيقونية وتعقبهم وفتك بهم وشرّد عدداً كبيراً منهم وصادر أملاكهم وسمل عيون عدد آخر وقطع أيديهم وآذانهم، وزجّ بعدد منهم في غياهب السجون وأصدر قراراً يفرض على الرهبان استبدال أرديتهم الكهنوتية السوداء بأردية بيضاء.

وأصدر قراراً آخر يُلزم الناس بالقسم إنكار عبادة الصور ومن يرفض ذلك يقتل فضلاً عن عقوبة النفي وكى جباههم بالقضبان الحديدية المحماة وجدع الأنف وشق اللسان، وكان البطريرك قسطنطين أول من أقسم على ذلك^(١).

وعُدّت الحقبة من سبتمبر عام ٧٦٤م إلى سبتمبر عام ٧٦٥م حقبة الشهداء الأيقونيين، فقد قتل قسطنطين الخامس عدداً كبيراً من الرهبان، كما ألغى مبدأ العزوبية الأبديّة لهم بإجبارهم على الزواج، واتّخذ حفلات الزواج الجماعي للرهبان حفلات صاخبة فأقام حفل زفاف في ملعب الهيبودروم، حيث صار فيه الرهبان متأبطين أذرع أزواجهم وسط سخرية الجماهير، وصادر أملاك الأديرة وحوّل بعضها إلى مرافق عامة مثل كنيسة القديسة يوفينيا Euphenia التي تحولت إلى دار للصناعة، وحول البعض الآخر إلى مساكن عامة وتكنات للجند ومخازن للعتاد وحانات يتردد عليها الناس^(٢).

ولكسب رضى الإمبراطور فقد تبارى حكام الأقاليم والشعور في تقليد سلوك الإمبراطور بتهديد الرهبان، فأرسل الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى ذلك الحاكم الآسيوي^(٣) -إستراتيجوس ولاية

(١) مرسى الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٧، ١٣٦.

(٢) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٨.

(٣) ويدعى ميخائيل لاختودراكون كان من أبرز من مارس سياسة الاضطهاد في عهد قسطنطين الخامس، ففي عام ٧٧٢م جمع كل رجال الدين والرهبان من سكان البند في مدينة أفسوس في وادٍ بالمدينة يقال له وادي تازوكا ينستريوس Tazoucaenisterius لإجبار الرهبان على الخروج من الرهينة وخيرهم بين الزواج والتعذيب فقال لهم "من يريد منكم أن يطيع الإمبراطور ويسير على طريقتي فليرتدي الرداء الأبيض وليصطحب له زوجة في تلك الساعة، أما الذي لن يفعل فسيمضي منفياً مسمول العينين إلى قبرص"، وبعد رفض الرهبان الموافقة قاوموا قسوة التعذيب بسمل عيونهم وأعدم البعض منهم، وهكذا اشتهر ميخائيل من بين بقية قادة بيزنطة بقسوة التعذيب سواء للرهبان أو رجال الدين أو العامة. للمزيد

تراقيا^(١) - الذي نكّل بالرهبان مهناً له بقوله: "لقد وجدت في شخصك رجلاً يُحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي"^(٢).

وقد تجمع أنصار الأيقونات داخل الإمبراطورية وأخذوا يكوّنون حركة مقاومة ضد حكم الإمبراطور وتجمعت هذه المقاومة حول شخصية دينية كبيرة هي الأسقف إستيفان رئيس دير الأوكسينوس Monastery of Occinus في آسيا الصغرى، وتزايد أنصار هذه الحركة بانضمام الرعايا وطبقات الشعب إليها كافة^(٣)، وعندما شعر قسطنطين الخامس بذلك حاول في البداية أن يثني الأسقف عن عزمه فدبر مؤامرة بالتخلص منه فدعاه إلى التشاور معه في العاصمة، وعندما خرج الأسقف وسار في شوارعها أوعز رجال الإمبراطور إلى الغوغاء المعادين للأيقونية فانقضوا على الأسقف ومزقوه إرباً، فكان لهذه الجريمة البشعة صدى سيئ في نفوس الشعب الذي أعلن إدانته واستنكاره لهذه الجريمة وطالب بمعاينة المحرضين عليها، فتحول الغالبية تدريجياً إلى التعاطف مع الأيقونيين، فأصبح قسطنطين يشك في ولاء أقرب المقربين إليه، ففي عام ٧٦٦م أصدر أمراً بإعدام عدد كبير من القادة المدنيين والعسكريين، فكانت هذه بداية النهاية لحكم قسطنطين الخامس الذي أصبح في نظر الناس طاغية ومهرطقاً يعشق سفك الدماء، ويهوى الحرق والدمار، وباتت النفوس حاقدة عليه، ولم تعد علاقته بالجيش كما كانت أول عهده، وبصفة خاصة بعد حركة إعدام القادة، فأصدر قانون أوجب على جميع الرعايا أن يقسموا بالله أنهم لن يعبدوا الأيقونات، لكن الأعيان والضباط والجنود الذين امتنعوا عن الحلف حل بهم العذاب^(٤)، وزاد الإمبراطور من بطشه وتجاوز حدود المراسيم التي صدرت عن مجمع سنة ٧٥٤م حتى إنه خالفها صراحة فأعلن بطلان الأيقونات والمخلفات المقدسة ومنع عبادة القديسين والعذراء أم المسيح فكل هذه الأمور لم ترد في قرارات المجمع.

توفى الإمبراطور قسطنطين الخامس وهو في أوج حماسه في اضطهاد الأيقونيين سنة ١٣٨هـ/٧٧٥م تاركاً العرش لابنه ليون الرابع الذي يعد محطماً للأيقونات مثل جميع أفراد أسرته، لكنه كان يسير على نهج جده المعتدل على خلاف نهج والده الأكثر قسوة^(٥).

(١) رستم، الروم، ص ٣٠٨.

(٢) رستم، الروم، ص ٣٠٨.

(٣) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢١٨.

(٤) رستم، حرب في الكنائس، ص ٣٨.

(٥) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥.

ت- المجمع المسكوني السابع والأخير في تاريخ الكنيسة الشرقية وآثاره:

كان الإمبراطور ليون الرابع أقل اضطهاداً للأساقفة والرهبان فأعاد لهم بعض نفوذهم وأرجع إليهم أديرتهم وأعاد كثيراً من الصور المقدسة إلى أمكنتها وكان أهمها صورة للسيدة مريم العذراء حتى عرف بين معاصريه بلقب صديق أم الآلهة^(١).

ويعد عهد الإمبراطور ليون الرابع مرحلة انتقالية بين ذروة الحركة اللاأيقونية زمن قسطنطين الخامس والعودة إلى عبادة الصور المقدسة زمن الإمبراطورة إيرين، فقد توقف عن الهجوم على عبادة أم المسيح، وتقرر إغفال ما اتبعه قسطنطين الخامس أواخر حكمه من سياسة مناهضة الديرية فكسب ود الرهبان والعديد من فئات الشعب مما يؤكد قوة الحركة الأيقونية، ويمكن فهم موقفه من خلال تأثيره بزوجه المؤمنة بالأيقونات، فضلاً عن استفحال نفوذ البطريق الجديد نكتاس^(٢)، فضلاً عن رغبته في تنويع ابنه من بعده^(٣).

ولكن نجده ينحرف عن سياسته هذه فأمر في عام ٧٨٠م بحبس طائفة من كبار الموظفين وجلدهم بسبب إصرارهم على عبادة الصور وتمجيدها، وقد كانت هذه الحالة الوحيدة المعروفة عن اضطهاد عباد الصور والأيقونات زمن ليون الرابع^(٤).

كثرت آراء المؤرخين وأقوالهم حيال مدى شغف الإمبراطورة إيرين بالأيقونات المقدسة فقد رفعتها سراً طوال حياة زوجها الإمبراطور ليون الرابع، كما أنها عملت على إخفاء اتصالها برجال الدولة المؤيدين لسياستها، بل زاد التأكيد بأن الإمبراطور ليون الرابع نفسه اكتشف قبل وفاته مؤامرة دبّت لهذا الغرض كما أنه اكتشف قبل وفاته أيقونة تحت وسادته^(٥).

حظيت إيرين بحبة الجماهير، وامتلكت ذكاءً، وشخصية قوية، وحازمة، ونالت تعاطف الشعب ورجال الدين معها بوقفها حركة الاضطهاد التي اتبعها أباطرة هذه الأسرة بعد وفاة زوجها الإمبراطور ليون الرابع، حيث تسلمت مقاليد الحكم بوصفها وصية على ابنها القاصر قسطنطين السادس الذي لم يكن قد بلغ العاشرة من عمره وملأت مناصب الدولة جميعها المدنية منها والحربية برجال من بطانتها وأقاربها وحكمت إمبراطورية عريقة دون أن يقلق بالها أي شيء^(٦).

^(١) Theophanes: Op. Ca. PP.621-622.

^(٢) Dieneclly: Op. Ca. PP.401-402.

^(٣) الجنزوري، المرأة، ص ١٥٦.

^(٤) Beter. Amam. Byzantines, and their World London, 1973, PP.195-196.

^(٥) David. B. Abear. The Byzantines Paris 1962. PP.54-55.

^(٦) أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٥.

ونظراً لتأثر كل إنسان ببيئته فقد تأثرت إيرين اليونانية الأصل والموطن بعبادة الصور والتماثيل فضلاً عن تعلقها بتجسيد الصور وعبادها.

ويمكن اكتشاف رغبتها في السيطرة على زمام أمور السلطة في الإمبراطورية البيزنطية والتحول من الجانب اللاأيقوني إلى الجانب الأيقوني^(١).

وعلى الرغم من هذه الأقاويل وغيرها فقد انتظرت الإمبراطورة الأم إيرين الوصية مدة لا يستهان بها عقب وفاة زوجها ليون الرابع لترى مدى تأثير السياسة الجديدة التي ستقرها على الإمبراطورية -وبصفة خاصة- على قوات الجيش، لأنها عملت على طرد القائد الموالي للالأيقونية ونصبت في مكانه آخر موالٍ للأيقونية^(٢).

لم ترغب إيرين في تعديل سياستها الدينية دفعة واحدة، بل استمرت خلال السنوات الثلاث الأولى من حكمها تلوح بالسياسة الجديدة دون أن تعلنها صراحة بسبب انشغال الإمبراطورية في هذه الحقبة بالقضاء على الثورات الداخلية والحروب الخارجية، كما رأت إيرين أن اللاأيقونية قد انتشرت ورسخت قواعدها عند عدد كبير من رجال الكنيسة وموظفي الحكومة سواء أكان ذلك عن اقتناع بها أم لاتخاذ اللاأيقونية وسيلة لتحقيق أغراضهم^(٣).

في العام الرابع من وصاية إيرين على ابنها قسطنطين وتقلدها زمام الحكم في الإمبراطورية البيزنطية بدأت تعمل على تنفيذ سياسة التسامح الديني مع عباد الأيقونات وأخذ الرهبان يظهرون من جديد وينشرون آراءهم ومبادئهم بحرية الأمر الذي كان محرماً عليهم لسنوات عديدة مضت وأخذوا شيئاً فشيئاً يسيطرون على زمام الأمور في العاصمة^(٤).

تمكنت الإمبراطورة إيرين من إجلال رجل مخلص لها على كرسي البطريركية في القسطنطينية اسمه تاراسيوس ١٦٨-١٩٠هـ/٧٨٤-٨٠٦م، مستغلة وفاة البطريرك اللاأيقوني بولس Pauls عام ١٦٨هـ/٧٨٤م، المعين من الإمبراطور ليون الرابع، اشتهر تاراسيوس بعبادة الأيقونات، وعمل على نشر مبادئها مرة أخرى، وهو من العلمانيين المتقنين، فقد نال قدراً وافراً من التعليم الديني،

(١) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٢١.

(٢) Ostrogowroski: Op Cit. P. 164.

(٣) Vasilieve: Op. Cit. P.263.

(٤) Ibid: P.322.

وعرف بآرائه السياسية الصائبة، وكان قبل تسلمه كرسي البطريركية الأمين الخاص للإمبراطورة إيرين^(١).

ويعلق على ذلك المؤرخ روميلي، جينكينز بقوله "إن تاراسيوس كان نبيل الأصل وله قدرات دبلوماسية لم تتوافر لغيره، كانت الدولة في حاجة ماسة إليه وبمعنى آخر فإن تاراسيوس كان جديراً بهذا المنصب"^(٢).

اتفقت الإمبراطورة إيرين والبطريرك على عقد مجمع مسكوني جديد لمناهضة القرارات التي دعا إليها المجمع المسكوني السادس وأمر باللائيقونية، فقد عمل كل منهما على سد الهوة ولم الشقاق الديني الذي حدث بين روما والقسطنطينية، وكان من جملة الأهداف إعطاء المجمع صفة رسمية وشرعية بحضور بابا روما، وكذلك الاتصال بالبطريركيات الشرقية وإعلان ترحيبها باشتراكهم في هذا المجمع^(٣).

انعقد المجمع المسكوني في كنيسة الرسل بالقسطنطينية وذلك يوم ٣١ يولييه عام ٧٨٦م حضره عدد كبير من الأساقفة وممثلين لبطاركة أنطاكية والإسكندرية وبيت المقدس^(٤). غير أن حدثاً مفاجئاً وقع في أثناء عقد المؤتمر، تجلّى في قيام طائفة من جند العاصمة المناوئين لعبادة الصور بإشهار سيوفهم، وإرغام المجتمعين على الانصراف الفوري^(٥)، وعلى الرغم من ذلك لم تكثرث الإمبراطورة إيرين لما حدث.

فقررت بخطة ذكية وسياسة إدارية حكيمة التخلص من هؤلاء الجند اللائقونيين بنقلهم إلى آسيا الصغرى بدعوى الحاجة البالغة لهم لقتال المسلمين في تلك الجهات وجلبت عوضاً عنهم جنداً أيقونيين من تراقيا وعهدت إليهم بالدفاع عن العاصمة وبذلك ضمنت لنفسها الاستقرار والأمان^(٦).

بلغ عداء الجيش ومعارضة بعض الأساقفة الشرقيين درجة كبيرة من الخطورة، إذ كانت الحركة اللائيقونية لا تزال في قوتها وعنفوانها وأصبح واجباً عليها أن تبدأ محاولتها من جديد بقدر أكثر

Diehl, op, cit, P. 322.^(١)

Romilly, H. Jenkins, Studies on Byzantine History of the 9th and 10th Centuries Variorum^(٢)
.Reprints, London, 1970

Diehl, Op. Cit. P.72.^(٣)

جيون، اضمحلال الإمبراطورية، ص ٣٨٣-٣٨٤.^(٤)

Vasilieve: Op. Cit. P.322.^(٥)

Diehl: Op. Cit. P.78.^(٦)

قوة وصرامة عن ذي قبل واحتاطت لذلك، فعملت على كسب الجنود والولاة والقادة من الولايات التابعة لها، ووجدت بذلك ذريعة مناسبة لنقل مكان المجمع من القسطنطينية إلى مدينة نيقية - وهي المدينة التي عقد فيها أول مجمع مسكوني على يد الإمبراطور الكبير قسطنطين الأول - وجاهدت الإمبراطورة إيرين على أن يكون المجمع المنعقد على يدها وهو المجمع المسكوني السابع والأخير في المدينة نفسها لتجعل منه مجمعاً مسكونياً مشروعاً^(١)، وفي أيلول ٧٨٧م، بدأ المجمع المسكوني بالاجتماع وهو الذي يعرف بالمجمع المسكوني السابع والأخير في تاريخ الكنيسة وقد حضر هذا المجمع ما يقارب من ٣٥٠ من رجال الدين وعدد كبير من القساوسة والرهبان^(٢)، فعقد المجمع سبع جلسات متتالية برئاسة البطريرك تاراسيوس بين ٢٤ أيلول و ٣١ تشرين الأول وأصدر المجمع قراراً بقبول عودة اللاأيقونيين إلى الكنيسة بعد إعلان توبتهم عن الهرطقة^(٣)، من قرارات هذا المجمع ما نصه: "إننا نحن المجتمعون نوضح بكل دقة وعناية بأننا سنعيد الأيقونات المقدسة مرة أخرى مثل أيقونات الصلبان وجميع الأيقونات المرسومة بالزيت والمحفورة على الأحجار والمواد الأخرى المشابهة والتي تتناسب مع مقام الآلهة المقدسة، فضلاً عن السماح بوجود الأيقونات على الأواني والملابس وعلى الجدران والألواح الخشبية في المنازل والشوارع، ويسمح بجميع الصور التي تصور ربنا يسوع المسيح وأمه وجميع الملائكة والقديسين المبجلين والغرض من ذلك أن من ينظر إلى هذه الأيقونات والصور ويلحظها يؤدي به ذلك إلى تذكر صاحبها ومحبه".

ولابد أن نقدم الاحترام للصور والأيقونات وان نركع لها -ليس لغرض العبادة- لأننا لا نعبد بل نعبد الآلهة ونوقد لها الشموع ونحرق لها البخور بالطريقة نفسها المتبعة للصليب المقدس والكتاب المقدس ولجميع الأشياء المقدسة ويجب اتباع جميع العادات الدينية التي اتبعها المسيحيون في الأزمنة السالفة^(٤).

^(١) Ostrogorowski: Op. Cit. PP.158-159.

^(٢) مرسى الشيخ: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٢.

^(٣) Ostrogorowski: Op. Cit. P.158.

^(٤) Theophanes: Op. Cit. PP. 633-634.

وقرر المجمع العودة إلى عبادة الصور المقدسة^(١)، وكل من يخالف ذلك تقرر نفيه وقطعه من الكنيسة، وكذلك تقرر إعادة المخلفات المقدسة إلى مواضعها بالكنائس التي جرى انتزاعها منها، كما تقرر أيضاً إنكار ما وقع من تحويل الأديرة إلى أغراض دنيوية^(٢).

وأصدر المجمع أيضاً قراراً بقطع أولئك الذين عدّوا الأيقونات المقدسة أصناماً والذين رأوا أن المسيحيين إنما اتخذوا الأيقونات آلهة أو ادعوا بأن الكنيسة الكاثوليكية قبلت عبادة الأصنام، كما حرص المجمع على رفع المستوى الخلقي لرجال الدين وذلك بإنكاره بيع الوظائف الكنسية "السيمونية"، وتقرر كذلك منع قيام أديرة تضم الراهبات والرهبان معاً^(٣).

أما أمر العقيدة فقد كان الاتفاق أن يكون تاماً بين الأرثوذكس، إذ جرى الاستئناس بطائفة من نصوص الإنجيل وآثار آباء الكنيسة في تأييد عبادة الصور المقدسة وإقرار بطلان ما أصدره المجمع اللايقوني المنعقد عام ٧٥٤م، وتولى البطريرك تاراسيوس وضع تفاصيل أسباب الرفض، وأنكر المجلس عدّ الأيقونات هرطقة وأمر بإزالة الكتابات اللايقونية، وأقر أيضاً ما ذهب إليه القديس يوحنا الدمشقي من ربط مسألة الأيقونات بعقيدة الخلاص ورأى أن العبادة ليست موجهة إلى الأيقونات بل إلى الأشخاص الذين جرى رسمهم عليها وينبغي الحرص على التمييز بينها وبين العبادة الموجهة إلى الله وحده^(٤).

على أن أهمية مجمع نيقية لم ترجع إلى إعادة عبادة الصور المقدسة فحسب بل إلى أنه هياً لأنصار هذه العبادة ما افتقروا إليه في نضالهم ضد خصومهم أول الأمر، إذ جمع كل ما حدث من المناقشات الدينية المؤيدة لعبادة الصور التي استخدمها أنصار هذه العقيدة ضد خصومهم وفي الجلسة الختامية المنعقدة في أكتوبر عام ٧٨٦م في قصر ماجنورة بالقسطنطينية تم التصديق على قرارات المجمع وقامت الإمبراطورة إيرين بالتوقيع عليها^(٥)، وكذلك الإمبراطور الصغير قسطنطين السادس وبذلك تم للإمبراطورية البيزنطية ما افتقدته من سلام ديني في أثناء حكمها^(٦).

(١) البستاني، دائرة المعارف، ص ٧٥٥.

(٢) اليوسف، معالم التاريخ البيزنطي، ص ١٠٩.

(٣) Vasilev: Op. Cit. P. 264.

(٤) رستم، الروم، ص ٣١٢.

(٥) حول المجمع ينظر: الصورة رقم ٢، ص ٢٠٤.

(٦) فازيلييف، أ، أ: العرب والروم، تر: محمد عبد الهادي شعيرة، دار النهضة، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ٢٩.

وفضلاً عن حركة الإنشاء والتعمير التي عمت أنحاء الدولة نشطت الناحية الفنية والثقافية والأدبية خلال هذه الحقبة من عهدها بما قام به الأيقونيون من نقوش وزخارف وكتابات ومناقشات أمدت الحياة العامة في الإمبراطورية بشيء من التقدم والرقى، فقد عملت هذه الحركة في حقبة حكم الإمبراطورين المتقدمين ليون الثالث، وقسطنطين الخامس على القضاء على التحف الفنية الدينية النادرة والرائعة وأحرقت ودمرت المخطوطات الفريدة المصورة مما ترتب عليه اختفاء معالم الجمال والفن التي كانت تترى بها الكنائس، وقد طال التخريب المؤلفات التي ناصرت عبادة الأيقونات مما أثر في حركة الفن والأدب في بيزنطة بسبب هذه السياسة الهوجاء. كما ترتب على قيام الإمبراطور ليون الثالث بمصادرة الضريبة البابوية المسماة (وقف القديس بطرس) والتي كانت تحصل سنوياً ويبلغ مقدارها ما يوازي ٣٥٠ أوقية من الذهب فأضر ذلك إضراراً شديداً بالخزانة المالية للبابوية وأثر بالتالي في نواحي الحياة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، وكذلك السياسية(١).

وفيما يتعلق بالمطارنة اللائقونيين الذين نُسبت إليهم تهمة "السيمونية" (بيع المناصب) فلم يكن أمام الإمبراطورة إيرين والبطريرك إلا الغفران لهم عن هذا الذنب بعدما تابوا عن أفعالهم تلك وقدموا الاعتذار.

ومن أثر اللائقونية -أيضاً- لجوء أعداد غفيرة يبلغ عددهم ٥٠,٠٠٠ خمسون ألف من اللائقونيين إلى ديار الخلافة العباسية، وكذلك إلى جنوب إيطاليا حيث أنشأوا أديرة ومدارس صارت تُعدّ مراكز للحضارة اليونانية(٢)، كما أدى إحراق المكتبة الكبرى المجاورة لكنيسة آيا صوفيا وتحتوي ما يقارب عن ٣٣,٠٠٠ كتاب - إلى احتجاج أساتذة جامعة القسطنطينية العريقة فتمت معاقبتهم بالنفي والحرق مما أضر بالناحية الثقافية والأدبية والعلمية للإمبراطورية البيزنطية، وأثمرت السجلات الدينية عن إنتاج أدبي غزير غير أن أكثرية المؤلفات أُلقت في حين زاد أنصار اللائقونية وبرز من بينهم عدد من مؤلفي الحوليات التاريخية مثل جورج هامرثولوس الذي بدأ كتابه منذ الخليقة، وختمه باندحار اللائقونية.

(١) Romelly jenkins: Op. Cit. PP.66-67.

(٢) Ibid: P.97.

ومن أشهر فلاسفة الأيقونية الفيلسوف يوحنا الدمشقي، وهو صاحب كتاب أصول المعرفة، والذي يبحث الجزء الثالث منه وعنوانه "عرض عام للمعتقد الأرثوذكسي" موضوع الأيقونة وغايتها(١)، وقضى السنوات الأخيرة من حياته في دير القديس سابا St.Saba بالقرب من بيت المقدس وبالتالي كان بعيداً عن بطش الإمبراطورين(٢).

وكذلك برز المؤرخ الكبير ثيوفانيس خلال هذه الحقبة وتزوج من فتاة نبيلة واتجه بعد ذلك نحو حياة الرهبنة، وشملته الإمبراطورة إيرين برعايتها، وقد عانى هذا المؤرخ أيضاً من ذلك الاضطهاد وهو يقول عن ذلك "أن الاضطهاد الذي مارسه الإمبراطور قسطنطين الخامس لا يعادله سوى اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤-٣٠٥م فقد كان الاضطهاد سمة بارزة في الدولة"، وقد تدرج في سلك الرهبنة حتى تلقب بلقب المعترف Sonfessor(٣)، وكان على رأس هؤلاء رئيس دير ستوديوم ويدعى ثيودور(٤).

لقد ساهم هرب الأيقونيين إلى خارج القسطنطينية مساهمة فعالة في المشروعات التي قام الرسامون بها بكنائس إيطاليا، فساعدوا بذلك على تأسيس مدرسة جديدة للفن الديني الذي أبدع في صناعته، أما في الشرق فقد ازدهر الفن الطبيعي الدنيوي المتحرر من سيطرة الأفكار الدينية وقيودها، وبدأت روح الفن البيزنطي العريق تغزو الفن اللاتيني وتبعث فيه الحياة من جديد، وبعد وفاة البطريرك تاراسيوس عام ٨٠٦م عين الإمبراطور نقفور بدلاً عنه البطريرك نقفور الذي اشتهر بالتعمق في الأمور الدينية والدنيوية فألف عدداً من المؤلفات دافع فيها عن الصور المقدسة وقام بعقد مجمع ديني اشترك فيه عامة رجال الدين والعلمانيين، واتخذ عدة إجراءات منها استيلائه على أملاك الكنيسة وضمها إلى ضياعه الخاصة، كما فرض ضرائب باهظة على الكنيسة مما أغضب رهبان دير ستوديون الذين تهيأوا لاستقبال الاضطهاد من قبل الحكومة(٥).

(١) الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٥١-٤٨٠-٤٨١. وللمزيد من المعلومات ينظر عيد الغني، عيد الرحمن محمد: إشكالية مرسوم الخليفة يزيد بن عبد الملك الخاص بتحطيم الأيقونات ومدى تأثيره في سياسة الإمبراطور ليو الثالث اللايقونية، مجلة دراسات تاريخية، السنة السابعة عشر، العدد السابع والخمسون، دمشق، ١٩٩٦م، ٧٩-٨٢. وكذلك بن سلمان، ماري: أخبار بطاركة كرسي المشرق، بغداد، ١٨٩٩م، ص ٧٨.

(٢) Hussey: Op. Cit. P.30.

(٣) عبد الوهاب، لطفي: بلاد الشام في العهد الأموي "حولية ثيوفانيس مصدر بيزنطي من بلاد الشام في العصر الأموي"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، الطبعة الثالثة، المجلد الأول، عمان، ١٩٨٩م، ص ١٩.

(٤) فردوس، كرستو: تكوين أوروبا، تر: سعيد عبد الفتاح عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٢١٠.

(٥) Ostrogorski: Op. Cit. P.167.

أما ميخائيل الأول فقد اشتهر بحماسة لعبادة الصور وعرفت عنه أمانته الصادقة في خدمة الكنيسة فنشطت في زمنه الأرثوذكسية على الرغم من ظهور حركة ترمي من جديد إلى مناهضة عبادة الصور وتقرر إنزال العفوريهبان الدير الذين كانوا بالمنفى وتم التوفيق بينهم وبين السلطات الكنسية وصار لثيودور رئيس الدير الكلمة الأخيرة في أمور الدولة كلها ومن ضمنها ما يتعلق بالحرب والسلام وأغدق على الكنائس الهبات والأموال (١)، وأمر ليون الخامس العالم الديني يوحنا النحوي جون غراماتيسيان John Grammatician الذي كان يعد نصيراً للأيقونية في مرحلتها الجديدة بأن يجمع الأفكار الدينية اللازمة للمجمع الذي أقر عقده لمناهضة عبادة الصور المقدسة، وجعل له الإمبراطور السلطة المطلقة، واعتمد هو ومن شاركه في ذلك على أعمال مجمع عام ٧٥٤م، وحرص الإمبراطور على أن يبسط سلطانه على الحياة الدينية، فأنكر ثيودور على الإمبراطور تدخله في أمور الكنيسة، مما أغضب الإمبراطور ودفعه إلى إعلان انفضاض الاجتماع وأصدر مرسوماً يقضي بمنع حزب البطريرك من عقد اجتماعات في الدور الخاصة، وبذلك خضع عباد الصور إلى مراقبة وإشراف الموظفين المدنيين، وعمل الإمبراطور على نفيهم وأقر عزل البطريرك نفقور عن كرسي البطريركية، وجعل مكانه ثيودونوس مليسينوس Theodotus Melissenus ٨١٥-٨٢١م.

نقد أعمال مجمع نيقية وأقر أعمال مجمع عام ٧٥٤م فنشبت الثورة من جديد (٢)، ولكن هذه الحركة لم تكن بقوة الحركة التي حدثت في عهد الإمبراطورة إيرين التي استطاعت القضاء عليها لتتفرغ للشؤون الإدارية والعسكرية والتشريعية لما في صالح الإمبراطورية داخلياً وخارجياً.

(١)الباز العريني الدولة البيزنطية، ص ٢٤٧.

(٢)الحديثي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٣٥٥-٣٥٦. وينظر: Vasiliev:Op. Cit. P.287.

٣- التنظيمات الإدارية والعسكرية والتشريعية قبيل وصول الإمبراطورة إيرين:

أ- النظم الإدارية والعسكرية:

يعود استمرار الإمبراطورية البيزنطية إلى الفضائل التي تميز بها دستورها ونظامها الإداري، إذ اتفقت نظمها الدستورية والإدارية توافقاً شديداً مع متطلبات العصور التي انتمت إليها، فلم يكن ذلك التنظيم ثمرة وعي متعمد لشخص واحد أو لحظة واحدة، بل كان في جوهره ميراثاً انتقل من الماضي الروماني وظل يستكمل على الدوام على مر القرون حتى يتناسب ومتطلباته المتغيرة^(١)، إذ تعد الإمبراطورية البيزنطية الوريث الشرعي للإمبراطورية الرومانية الغربية، وانتقلت النظم السياسية التي سادت الإمبراطورية الغربية إلى العالم الشرقي بانتقال الأباطرة إليه فأضحت بذلك استمراراً للماضي واستكمالاً له، إذ كان الإمبراطور هو الرئيس الأعلى للإمبراطورية له السلطة التشريعية، كما أنه القائد الأعلى للجيش البيزنطي إلى جانب كونه رئيساً دينياً وكنسياً^(٢).

كان الأباطرة البيزنطيون يعدون أنفسهم أباطرة الرومان ويعد الحكم في الإمبراطورية البيزنطية أوتوقراطيّاً مطلقاً^(٣) (مُسْتَبَدٌّ، أيُّ لَهُ سُلْطَةٌ مُطْلَقَةٌ، وتعني الكلمة باللاتينية الحكم الإلهي)، غير أن السيناتو والجيش والشعب كان لهم الحق في انتخاب الإمبراطور، وعُدَّ هذا النظام في الأسرة الأيسورية تقليداً عسكرياً، أي أن الإمبراطور ليون الثالث قائد ثغر الأناطوليك، قد حصل على هذا المنصب بفضل الجيش الذي كان صاحب السلطة في تعيينه إمبراطوراً، فالنظام المعمول به في البلاط البيزنطي لتتصيب الإمبراطور لا يكتسب صفته الشرعية إلا بعد تتويج البطريرك المسيحي له فيصبح ممثلاً شرعياً للحكومة البيزنطية المسيحية^(٤)، وقد حدث أن نادى الجيش والشعب وممثليه ومجلس الشيوخ بالإمبراطور ليون الرابع لكي يتوج ابنه من بعده، ويفهم من ذلك أن هؤلاء جميعاً كان بمقدورهم تعيين الإمبراطور أو عزله عن طريق الثورة، وكانوا يعدون أن التتويج يمنح الإمبراطور مكانة إلهية فهو نائب الله على الأرض وهو رأس الكنيسة المسيحية فقد كتب الإمبراطور ليون الثالث يقول ذات مرة "إني إمبراطور وقس وأنا الوكيل الذي أمره الله أن يطعم قطيعه"، كما كان

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٦٣.

(٢) Deihl: Op. Cit. P.30.

(٣) بورفيروجينوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٣-٥٤.

(٤) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٦٥-٦٦.

للإمبراطور سلطة تعيين البطريرك وعزله، فمن مراسيم التعيين أيضاً ضرورة تنويع زوجة الإمبراطور كإمبراطورة، ويتم ذلك في احتفال خاص مما يمنحها قدراً من الولاية والسيادة^(١)، ويولي الإمبراطور في السلطة السيناتو، غير أنه لم تعد له الصفة الرومانية القديمة نفسها، فقد تكون من جميع أرباب الوظائف والرتب الذين هم فوق مستوى معين ثم من ذرياتهم حيث يجمع بين ذوي النعم وأهل الثراء وأرباب المراكز العالية في الإمبراطورية، وتعد أخطر الهيئات الدستورية لاسيما إذا كان الإمبراطور ضعيفاً^(٢)، غير أن الإمبراطور ليون الثالث لم يسمح للسيناتو بأي تدخل في شؤون الدولة حتى ضعفت سلطاته تدريجياً وتم إلغاؤه نهائياً في عهد الإمبراطور ليون السادس ١٦٤-٢٧٣هـ/٨٧٠-٨٨٦م، كما أن هناك مجلساً صغيراً يساعد الإمبراطور في قراراته ويتكون من وزير الخارجية ومستشار ووزير يتصل اتصالاً وثيقاً بالإمبراطور ويقابله يومياً، وعلى الرغم من ذلك كانت سلطاته محدودة بسبب تدخل الإمبراطور في معظم هذه الأمور، فمن واجبات المستشار إعداد الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الأجانب وتجهيز البعثات السياسية إلى بلاط الملوك الأجانب واختيار أفرادها^(٣)، ويتجلى أثر الناحية الإدارية والعسكرية للأسرة الأيسورية في عدة أعمال كان من شأنها المحافظة على الأوضاع هادئة في الجانب البيزنطي، فما كانت تمضي ستة أشهر على دخول ليون القسطنطينية عام ٩٩هـ/٧١٧م حتى تعرضت لحصار إسلامي شديد فظهرت مواهب ليون الحربية بما قام به من الدفاع عن المدينة^(٤)، حيث لم يكن الأيسوريون محاربين فقط بل كانوا إداريين أكفاء، فقد أدخلوا كثيراً من التحسينات على التنظيمات التي استحدثت في الولايات خلال القرن السابع الميلادي، وتطورت على أيديهم، وكانت البنود متسعة إلى الحد الذي يحمل في ثناياه الخطر الأمر الذي تطلب إعادة تقسيمها من جديد فلم يكن ليون الثالث لينسى أنه كحاكم لإحدى هذه الولايات الكبيرة كيف تمكن من إعلان الثورة على الإمبراطور القائم، لذلك عمد هو وابنه قسطنطين الخامس إلى تقسيم تلك الولايات الواسعة إلى ولايات لها الطابع الإداري نفسه ولكنها أصغر في حجمها، وذلك للإقلال من خطر

(١) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ٧٠.

(٢) صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، ص ١٣٣-١٣٤.

(٣) Theophanes: Op. Cit. PP.146-147.

(٤) غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، ص ٦٠-٦١.

الثورات الداخلية وتعيين حكام ممن عَرَف عنهم الولاء والكفاءة لتلك الولايات الجديدة^(١)، فقام بتقسيم البنود إلى بنود أصغر في المساحة، فشطرت إقليم الأناطوليك إلى شطرين جعل الجزء الغربي منهما ثغراً مستقلاً بذاته، وهو المعروف باسم ترقيسيون Threcesion نسبة إلى القوات الأوربية التي جاءت من تراقيا وشكلت جانباً من قوات ثغر الأناطوليك، على أن ثغر الأبسيق Opsikion لم يجر تقسيمه على الرغم من كبر مساحته، واكتفى ليون الثالث بأن عين صهره أرتاباسدوس قائداً على هذا الثغر، غير أن ابنه قسطنطين الخامس اكتشف فداحة هذا الخطأ فلجأ إلى تقسيمه إلى قسمين ورفع القسم الشرقي منه إلى مرتبة ثغر مستقل اشتهر باسم البغلار Bacellari نسبة إلى الجند المعروفين بهذا الاسم، ولم يكونوا أول الأمر إلا من الجند المأجورين اشتهروا بالمهارة في الرماية^(٢)، أما الثغر البحري المعروف باسم كرابيسيان Carapisian الذي اشتمل على كل ما في الأقاليم الإمبراطورية من قوة بحرية، فقد قسم إلى قسمين وكل من هذين الشطرين الذي كان يتولاه من قبل نائب عن قائد الثغر أضحى وحدة مستقلة، فالساحل الجنوبي من آسيا الصغرى وما يجاورها من الجزر صار معروفاً منذ ذلك الحين باسم ثغر كيبيريوت Ciburracot، فلم يكن في آسيا الصغرى زمن الأسرة الأيسورية سوى خمسة بنود، وهي على النحو الآتي في الأهمية "الأناطوليك والأرميناك وتراقيسيان و الأبسيق والبغلار"، قام ثغر سيلوقيا غرب فيليقيا بعد انفصاله عن ثغر الأناطوليك، ونشأ ثغر خرسيانون من بعض الجهات المنتزعة من ثغر الأرميناك، وتم دعمها بحاميات اتخذت اسم Akritor -حراس الحدود- في أثناء اشتداد الغارات الإسلامية لمساعدة البنود^(٣)، وعدت كل من جزيرتي صقلية وكريت بنداً من بنود الدولة البيزنطية وناحية تجاه العدو^(٤)، واستمرت جزيرة كريت على هذا المنوال، وعلى الرغم من محاولات المسلمين المتكررة الاستيلاء عليها، ولكن لم يحدث ذلك إلا في عهد الإمبراطور نقفور الأول، وجُعِلت جزيرة قبرص مكاناً يُنفى إليه الأشخاص غير المرغوب فيهم "كعبدة الأيقونات مثلاً"^(٥)، فيما يتعلق بالحدود فقد تكون من سلسلتي جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة

(١) توفيق: مذكرات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٧٢.

(٢) العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٩١-١٩٢.

(٣) العريني، الدولة البيزنطية، ص ١٩١-١٩٢.

(٤) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١٢٠.

(٥) غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية، ص ١٤٤.

الإستراتيجية الممتازة، إذ سعى كل من المسلمين والبيزنطيين من أجل السيطرة على تلك الحدود والمعابر والممرات الهامة سواءً من أجل الهجوم، أممن أجل الدفاع. أما أهم الحصون فكان حصن ملطية الذي يقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سيواس وقيسارية إلى أرمينيا وشمالي العراق ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زيطرة.

أما الخط الثاني من الدفاع البيزنطي فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن الأراضي البيزنطية ضد الحملات الشامية ومن أهم الحصون حصن المصيصة وأذنة وطرسوس^(١). و يُعدُّ الممر المعروف باسم (أبواب قليقية) من أهم الممرات، ثم الممر الذي يسير فيه الطريق من مرعش إلى ألبستان (أو الأبلستين) وعند نهايته قمة منيعة بنيت عليها قلعة لؤلؤة حيث أقام البيزنطيون فيها عبر آسيا الصغرى إلى القسطنطينية سلسلة من المنارات استخدمت في إرسال الأنباء بوساطة إشعال النار التي يراها الحراس المقيمون على قمة جبل أرجايوس المطل على قيصرية ومنه إلى تل إيزاموس ثم إلى خليج بيلينيا، تنقل من هذه المنارة الإشارة إلى حراس القصر الكبير الذين يوقدون منارته للدلالة على وصول برقية من طرق آسيا الصغرى، وهكذا كانت الدولة البيزنطية تعنى كل عناية بتقوية مناطق الحدود والإنفاق عليها بسخاء لتكون دائماً على أهبة الاستعداد والدفاع^(٢)، كما اهتمَّ الأباطرة أيضاً بترتيب متدرج للوظائف المدنية والعسكرية على السواء بلغت ثماني عشرة رتبة استمدت ألقابها وأسمائها من الوظائف العسكرية والمدنية بالبلاط^(٣)، وهي تتألف من رتب ودرجات فئة من الإرسنقراطية الإدارية، وأعلى هذه الرتب هي رتبة قيصر ونبيل وكوريلات التي لا يُنعم بها إلا على أفراد الأسرة الإمبراطورية^(٤)، يلي ذلك لقب زوستا باتريشيا Zosta Patricia الذي اختصَّ به أكبر موظف بالبلاط، وكان يتولى أمر النساء بالقصر وثمة ثماني رتب اختص بها الطواشية، وارتبط بها البطريق، والواقع أن الطواشي البطريق صار له من المكانة ما يفوق سائر البطارقة، وللطواشية أثر كبير في البلاط البيزنطي فليس ثمة أية وظيفة مهما ارتقت في الكنيسة أو الحكومة _فيما عدا وظيفة الإمبراطور_ تكون محرمة

(١) العدوي، إبراهيم أحمد: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ٧٠-٧٦.

(٢) العدوي، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٧٠-٧٦.

(٣) إسكندر، المسلمون والبيزنطيون والارمن، ص ٦٨.

(٤) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٣٦٤-٣٦٥.

على الطواشية، واشتهر عدد كبير منهم وشغلوا مناصب الدولة العالية من قيادة جيش ورجال سياسة، وينعم عليهم الإمبراطور بتشريف وخلع هذه الوظائف، وأعلى هذه الوظائف في البلاط هي تلك التي شغلها المشرف على تنظيم الموكب وهو Proepositus والبركموفينوس الذي يعدّ كبير الحجاب وهو الموكل بثياب الإمبراطور، بجانب أنه كان هناك موظفين أقل منهم رتبة ودرجة كثر عددهم في البلاط^(١).

ولكي نفهم الإدارة البيزنطية يجب أن نعلم بأن كل موظف من كبار الموظفين يحمل لقبين الأول يشير إلى مكانته ورتبته في تلك الارستقراطية الإدارية، أما الثاني فيدل على الوظيفة التي يتقلدها فعلاً على أن الترقية إلى وظيفة ما ورتبتها يتوقف على رضى الإمبراطور، وكان يتولى تسيير الحكومة رؤساء الإدارات المقيمون بالعاصمة قريباً من الإمبراطور ويتولون نقل أوامر الإمبراطور إلى سائر أنحاء الدولة، ومن هؤلاء الموظفين الكبار أربعة يُعرف كلٌ منهم بـ "اللغيت" Logothete of the droms وهو من كان يتولى أمر الإشراف على إدارة النقل والبريد ثم أصبح يشرف على الأمور المالية، و"اللغيت" الذي يتولى دفع رواتب الجند، أما اللغيت الثالث فهو الذي يشرف على ضياع الإمبراطور الخاصة، أما الموظف الذي يشرف على دور الصناعات الإمبراطورية وأعلامهم جميعاً فهو الموظف الذي يعدّ مشرفاً عاماً، إذ يخضع إليه كبار موظفي المالية^(٢).

أما التنظيم الحربي فهناك فرق ظاهر بين قوات البنود في الأقاليم وبين القوات المرابطة عند القسطنطينية، وكان على رأس قوات البنود قادة معروفون باسم Strategi، بينما تولى أمر القوات المرابطة في العاصمة قادة اشتهر كل منهم باسم الدمستق Domesticus^(٣). ويتولى قائد البند أمر قوة يختلف عددها في البند بحسب أهميتها وكانت تتراوح ما بين أربعة آلاف جندي إلى عشرة آلاف جندي، أما القوات المرابطة في العاصمة وضواحيها فمعظمها من الفرسان، وانتظمت في أربعة أقسام اشتهرت بأسماء Arithmus, Excabitores,

^(١) Ostrogorowski: Op. Cit. P.220.

^(٢) بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٤٧-١٤٨.

^(٣) الجندي، أحمد: أسد الثغور، مجلة الثقافة العربية، العدد الثامن، السنة الأولى، دمشق، ١٩٧٤م، ص ٥٦-٥٨. وكذلك:

Ostrogorowski: Op. Cit. P.222.

Scholae. وكان يتولى قيادة كل منها الدمشقي وأعلام رتبة قائد الفرقة الأولى الأنكلادية Scholae الذي يعد القائد العام للجيش، ويظهر نشاط قوات القصر حينما يتولى الإمبراطور قيادة الجيش في حملة من الحملات.

أما عن حزبي الخضر والزرقي لم يعد لهما في بلاط الإمبراطور إلا دور شكلي يقتصر على أن يشهد أعضاؤهما حفلات تنصيب الإمبراطور وكبار الموظفين الذين يقومون على الإدارات الحربية والمدنية والبلاط ويعدون مسؤولين أمام الإمبراطور، على أن الإمبراطور وحده هو الذي يوجه الإدارات ويسيرها فيعين كبار الموظفين ومساعدتهم ويقوم بعزلهم متى أراد.

ومن أهم خصائص الإدارة البيزنطية في هذه الحقبة تفوق الوظائف العسكرية وازدياد عددها، نظراً لتمتع قادة البنود بمكانة ممتازة^(١).

ومن المعروف أن لقادة بنود آسيا الصغرى التي كانت تشكل العمود الفقري للقوة الحربية في بيزنطة المكانة العليا، ويتضح ذلك من المرتبات التي يتقاضونها؛ إذ إنها تفوق مرتبات قادة سائر البنود، على أن التفرقة لم تكن حادة بين طبقات الموظفين، وترتب على ذلك أنه يجوز نقل الموظف من السلك المدني إلى السلك العسكري، ويجوز أن يتولى القيادة العسكرية أحد المدنيين أو أحد رجال البلاط، وكذلك يتوقف على رغبة الإمبراطور وما يطرحه من الثقة في هؤلاء الموظفين^(٢).

لقد عملت الأسرة الأيسورية على تدعيم الحكم البيزنطي في آسيا الصغرى بعد أن اغتصمت الفرصة التي سنحت لها بسبب الاضطرابات التي تعرض لها العالم الإسلامي والناجمة عن انتقال الخلافة العباسية إلى بغداد، فنظم الأيسوريون الدولة البيزنطية بوصفها وحدة دفاعية، وأعطيت سلطات كبيرة للعسكريين، وكانت المحاولات المتزايدة لتأمين الإمبراطورية تعطي قيمة جديدة للأرض بوصفها مصدراً للثروة، وقد حاولت الأسرة إنقاص أعباء الميزانية السنوية بالتضحية بمساحات كبيرة من الأراضي العامة وتوزيعها على الموظفين مقابل التزام وراثي بالخدمة في الجيش^(٣).

^(١) Ostrogorowski: Op. Cit. P.223.

^(٢) الباز العريني، الدولة البيزنطية، ص ٣٦٨.

^(٣) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ١٠٦/٣.

كان نظام القوة البحرية البيزنطية في صورته الأخيرة في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد متمثلاً في أسطول حربي قوامه أسطول مركزي إمبراطوري في القسطنطينية بقيادة القائد الأعلى مباشرةً Straegos of Corabisiam، أو عن طريق نائب مساعد Drangarus، وكان هناك أسطولان إقليميان في الشرق يتألف الأسطول الأول من بحر إيجة وأسطول كيبريوت والدوديكانز، فضلاً عن أسطول ثاني على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى، ويخضع كل منهما لقيادة نائب أميرال الذي يلقب درونغاريوس وإلى جانبهما وحدات بحرية صغيرة في بلاد الشرق، وهذا الأسطول البيزنطي هو الذي صد المسلمين عن القسطنطينية وحفظ صقلية طويلاً للإمبراطورية.

وفي الجانب الغربي من المتوسط رابطاً الأسطولان الإقليميان الرئيسان في صقلية ورافنا - كما كان هناك أسطول ثالث في أفريقيا حتى الفتح الإسلامي - واحتفظ الأسطول الإمبراطوري والأساطيل الإقليمية البيزنطية بمستلزماتها الخاصة من سفن الحرب والبحارة ودور الصناعة وأحواض البناء والمعدات الحربية والبحرية الأخرى على نفقة الأقاليم التي فيها الأساطيل، وقد شهد القرن الثامن للميلاد تغيرات ملحوظة قد عمت المناطق البحرية في الشرق وجُعِلت بنوداً بحرية، ورفع لقب مساعد أميرال أسطول كيبريوت إلى لقب قائد أعلى للبحرية، ورأى ليون الثالث أن هناك مناطق أحوج للحماية هي سواحل آسيا الصغرى، مما دفع إلى إلغاء مركز القائد الأعلى في بيزنطة بسبب قوة الهجوم البحري البيزنطي جنوباً نحو مياه البحر المتوسط ذاته بعد رفع الحصار عن القسطنطينية، كما أن القيادة العليا في كيبريوت في عصر الأسرة الأيسورية قد أشرفت على أسطول أضخم بكثير مما يلزم في الأغراض الدفاعية وهو الأسطول الذي حطم العمارة البحرية الإسلامية قرب قبرص عام ٧٤٧م^(١).

كما يرجع السبب في إلغاء القيادة العليا الموحدة للأسطول إلى المناداة بنائب الأميرال أبيسمار إمبراطوراً سنة ٦٨٧م وباسم تيبيريوس سنة ٧١٦م؛ مما أخاف الأباطرة العسكريين الأيسوريين، فضلاً عن ميل رجال البحرية لتقديس الصور^(٢)، ومن أجل ذلك عدّ الأيسوريون أنه من الأسلم إلغاء القيادة العليا وإنزال البنود البحرية وإنقاص عدد السفن، وعلى كل حال فقد كانت ميزة التنظيم البحري البيزنطي تكمن في مرونته وقابليته للتطبيق العملي المتنوع،

(١) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٣٠/٢.

(٢) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٣١/٢.

فقد استخدم موارد الإمبراطورية البحرية مجتمعة مع توزيع تكاليف الدفاع البحري على الأقاليم، وبذلك أتاح حماية قليلة التكاليف لسواحل الإمبراطورية من الهجوم البحري الإسلامي^(١)، فظلت بيزنطة على مدى نصف قرن آخر أكبر قوة بحرية فعالة في البحرين المتوسط والأسود وبقيت الخلافة الإسلامية كما بقي البلغار والفرنجة عاجزين إزاء قوة القسطنطينية البحرية^(٢).

أما عن فن الحروب فقد بلغ درجة عالية من الدقة والإتقان، وأعطى اهتماماً خاصاً للنواحي الدفاعية وبذلت الجهود للمحافظة على الموارد بتجنب البدء بالهجوم ودرست بعناية ودقة خطط العدو استعداداً لقتاله في حالة عدم إمكانية تجنب المواجهة السافرة ولا شك في أن تفوق الجيش البيزنطي كان من بين الأسباب التي جعلت بيزنطة قادرة ولمدة طويلة على الاحتفاظ بحدودها وصونها من عبث جيرانها، ولكن إيمانهم بأنهم يحاربون - حسب ادعاءاتهم - من أجل القضية المسيحية ضد المسلمون، وبأنهم سوف يلقون سعادتهم في مملكة الرب الآتية هو ما دفعهم إلى القتال بروح دينية، وظلت بيزنطة طوال القرون الوسطى هي الأمة الوحيدة التي كانت تُدرس فيها فنون الحرب وأدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش بعناية ودقة^(٣).

ولم تغفل الدولة البيزنطية جانباً مهماً من جوانب النشاط السياسي الذي كان يترتب على العناية بالقوات العسكرية ويتمثل في النشاط الدبلوماسي فلم يكن هناك سفراء دائمون لبيزنطة في أي بلد أجنبي، بل كان الطابع الظاهر للدبلوماسية البيزنطية هو الشكلية الجامدة التي وضعت للمبالغة في تقدير العظمة الإمبراطورية في الأذهان، فلا يكاد السفير الأجنبي يصل إلى القسطنطينية حتى يحاصر بقواعد صارمة للبروتوكول كي لا يقابل غير المختصين، وعندما يأذن له بالدخول إلى الحضرة الإمبراطورية كان يجري استقباله وفق مراسم خاصة من حيث مركزه في بلاده^(٤)، فقد كانت السلطات والحكومات تبعث بوفودها إلى الدول والأقطار وتحملها مسؤوليات ومهام تقوم بها إما سياسية، أو اقتصادية، أو دينية، أو

(١) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٣١/٢.

(٢) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٤٧/٢-٣٤٨.

(٣) Oman: Op. Cit. P.37.

(٤) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٨٤/٢.

ثقافية، أو استطلاعية خالصة^(١)، وتقول المؤرخة هسي Husy: "كانت الدبلوماسية سلاح بيزنطة الوحيد المحبب إليها والذي أثبتت فعاليته في مناسبات عديدة"^(٢).

ب- اتجاه السياسة الإدارية والعسكرية في عهدها:

عمل أباطرة الأسرة الأيسورية على إدخال كثير من التجهيزات والتحسينات سواء منها الإدارية أم المدنية، فقد لقيت القسطنطينية الاهتمام الأوفر، وتجلّى ذلك من خلال تزويدها بالمياه العذبة اللازمة وإصلاح قناطر أولينو Uileno في العاصمة والتي سلف أن انهارت منذ مائة وخمسين عاماً وسرعان ما استعادت البلاد حالة الازدهار^(٣)، وأمد أباطرة هذه الأسرة القسطنطينية العاصمة بالسكان اللازمين لتعميرها بعد أن أدى انتشار الوباء عام ٧٤٦-٧٤٧م إلى موت الآلاف من سكانها، كما جذبت العائلات اليونانية من الجزر والمدن إليها لتعويض ذلك العجز، وعملت هذه الأسرة على تحصين العاصمة، وكذلك الحصون الواقعة على الحدود كحصن القلاع المطل على ممرات البلقان وترميم أسوار القسطنطينية^(٤)، وشجعت قوة الإدارة البيزنطية على استرداد قبرص من قبضة المسلمين عام ٧٤٦م منتبهة فرصة ضعف الدولة الأموية في دمشق وهي في النزاع، واستردوا مرعش من قبضتهم، وأمنوا حصون صقلية وعمروها، وبنوا فيها المعازل، وطوقوها بالأساطيل من أجل حراستها وحمايتها من الأخطار الخارجية المحدقة بها^(٥).

وعندما استولى قسطنطين الخامس على بعض المواقع الإسلامية في آسيا الصغرى (مرعش)، رأى أنه من غير الممكن الاحتفاظ بهذه المناطق عمل على نقل الأهالي المسيحيين إلى تراقيا داخل بيزنطة وكان هدفه من ذلك دفع حركة الضغط الإسلامي عن آسيا الصغرى تدريجياً، فعمد أسلوب الهجوم على المسلمين وإجبارهم على الدفاع والتراجع، وبذلك نقل الحرب إلى الأراضي السورية^(٦)، وقام خليفته ليون الرابع بإسكان أسرى سميساط داخل الإمبراطورية، ليعزز من قوته العسكرية داخلها وزاد عدد جنود البنود خاصة الشرقية

(١) ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد: رسالة ابن فضلان في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة ٩٢١م، تح: سامي الدهان، منشورات المجمع العربي السوري، ط١، دمشق، ١٩٨٨م، ص ١٧.

(٢) Husy: Op. Cit. P.22.

(٣) Vasilieve: Op. Cit. P.258.

(٤) اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٢-١٠٣.

(٥) الترماتيني، عبد السلام: أزمنة التاريخ الإسلامي، تح: شاكّر مصطفى وأحمد مختار العبادي، الكويت، ١٩٨٢م، ص ٧٩٧.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٢٢٥-٢٢٦.

منها المنتشرة في آسيا الصغرى، وذلك لمواجهة خطر المسلمين، كما زاد عدد الجنود في بقية تشكيلات الجيش وأهتم بالبنود البحرية والأوربية(١).

رأت الإمبراطورة إيرين أنه من الضروري تعيين مستشار لها، فوقع اختيارها على الخصي أستوراكيوس Stauracius الذي كان له دور بارز في الحياة السياسية في بيزنطة خلال حقبة حكم الإمبراطورة إيرين وجعلت أنتيوس وبطرس، وزيرين لها، وجون الدمستيق وأنطونيوس قاندين لقوات التاجماتا الإمبراطورية، وكذلك نيكيتاس، وبيتر قاندين للبنود(٢).

وعملت إيرين على كسب حب الشعب لها فقامت بالعديد من الأعمال البالغة الأهمية وقربت الرهبان إليها بإعفائهم من بعض الضرائب التي كانت مترتبة عليهم، فكسبت بذلك - تأييدهم وولاءهم عن طريق خفض الضريبة الكبيرة التي كان سكان العاصمة يدفعونها للبلدية(٣).

كما أمرت بتشيد الأديرة والمنشآت الرهبانية العظيمة بالعاصمة وخارجها مثل دير سكوديون Sakkudion وكذلك دير القديسة صوفيا بسالونيك الذي بني بين عامي ٧٨٠-٧٩٧م(٤)، وكذلك دير ست ديون، بيبثينيا St dion, Bythynia، فضلاً عن مجموعة من الأديرة قد شيدتها بجزيرة الأمراء كان أهمها دير الراهبات، وذلك لتكريم الحجاج والاحتفال بالمسنين مقابل مبلغ سنوي زهيد(٥).

وبذلك أصبح الازدهار والانتعاش في الإمبراطورية البيزنطية غير مسبوق ولا نظير له(٦)، فقد جهدت الإمبراطورقبناء بعض المنشآت العامة والمؤسسات الخيرية وملاجئ الأيتام والأطفال والفقراء وجعلت من مدير ملاجئ الأيتام Orphanotrophus موظفاً هاماً في سلك وظائف الدولة واضحة تحت تصرفه مبالغ ضخمة وعهدت للكنيسة بإدارتها والإنفاق عليها(٧)، كما شيدت بعض القصور التي كان من بينها الأثيوثيريان Eleutherian

(١)الجنزوري، عليا عبد السميع: الثغور البرية الإسلامية على الحدود البيزنطية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٥٤-١٤٣.

(٢) Diehl: Op. Cit. P.75.

(٣) نبيه عاقل: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٧٣-١٧٩.

(٤) Manse. C. Byzantine Architecture Newyork, 1976, PP.161-165.

ينظر أيضاً: قادوس، عزت زكي حامد: محمد عبد الفاتح السيد: الآثار القبطية والبيزنطية، منشورات كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص٣٣٦.

(٥) Theophanes: Op. Cit. P.653. – Diehl: Op. Cit. P.88.

(٦) Diehl: Op. Cit. P.88.

(٧) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص٢٣٩-٢٤٧.

وقصر البتريوس Eleutheriues التي زينتها ووضعت فيها العديد من الأموال والكنوز والتحف.

كان لمدينة نيقيا ما يبرزها ويميزها بوصفها أثراً من ماضٍ قديمٍ، فقد ظلت تحظى طويلاً برغد وثناء شديدين كعاصمة للإمبراطورية في المنفى، غير أن الإمبراطورة إيرين كانت من أكثر الأباطرة اللواتي اهتممن بها ورعتها، فذاعت شهرة مدينة بروسا Prusa بما بها من مياه إذ كانت منتجع الماء المعدني الأكبر لدى البيزنطيين، وشيدت بها الحمامات الساخنة^(١)، وهكذا قامت الإمبراطورة إيرين بالعديد من الإصلاحات الداخلية التي كان من شأنها أن تدفع بالإمبراطورية إلى الازدهار والتقدم ملتفتة إلى أهم النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية المتمثلة في البنود، إذ قامت بتنظيم البنود البيزنطية خاصة في منطقة آسيا الصغرى، وحرصت على نشر قواتها في منطقة الحدود تحسباً لغارات الأعداء فعينت على هذه القوات القادة المقربين منها والمخلصين لها فضلاً عن القادة القدامى، فاخترت القائد جون ساكيلاريوس John Sakillarius وكان من أقاربها وموظفاً مختصاً بالشؤون المالية فأرسلته الإمبراطورة بجيش لحراسة المناطق المتاخمة للمسلمين وذلك لسد طريق خروج الصقليين في أثناء ثورتهم ضد بيزنطة^(٢)، فكان وجود الصقالبة في شبه جزيرة اليونان مسوغاً في جعل الحكم في فرق هيلاس، والبيلوبونيز معقداً حافلاً بالمشكلات فلم يتهياً للدولة التحكم فيه تحكماً فعلياً إلا في عهد الإمبراطورة إيرين التي عملت على تقسيمه وتنظيمه من جديد^(٣).

ومن أجل زيادة عدد السكان فقد قامت الإمبراطورة إيرين بالترحيب بالأعداد الكبيرة من الأرمن المهاجرين إلى أراضيها، الذين قدر عددهم بنحو اثني عشرة ألف شخص، وكان أكثرهم من الفقراء والفلاحين الذين تركوا أراضيهم وهربوا من أرمينيا بسبب قرارات والي الخليفة القاضية برفع قيمة الضرائب عليهم، وعبثاً حاول الخليفة هارون الرشيد تعقبهم، فقد استقروا في بيزنطة مفضلين حكم الإمبراطورة^(٤).

^(١) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ١٠٤.

^(٢) Theophanes: Op. Cit. PP.655-660.

^(٣) Ibid. PP.660-662.

^(٤) عبد الله، وديع فتحي، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، عام ١٩٧١، ص ٢٣٥. وكذلك:

Fanlay: G. History of the Byzantine Empire, London, 1906, P.85.

اشتهرت إيرين بالحزم ومضاء العزيمة بوصفه وسيلة لرفعة شأن الإمبراطورية ومجدها، فأخذت سبيل الحذر والروية في الناحية السياسية، والإدارية، والدينية، والعسكرية عندما قامت بنقل الجند من العاصمة إلى خارجها قاصدة بهم إلى (البنود) الثيمات بغرض رد خطر المسلمين والبلغار الذين أصبحوا يشكلون خطراً على أملاك الدولة البيزنطية كما أتيح للإمبراطورة القيام بتحصين جزيرة قبرص وأرست بها أسطولاً لحمايتها(١).

استطاعت إيرين أن تقضي على الثورات الداخلية العديدة التي كان من أهمها ثورة توماس الأرمني الذي ادعى مرة أنه ابن إيرين، ومرة ثانية أنه ابن قسطنطين الخامس لكنه تمكن من الهرب، فتخلصت إيرين من هذه الثورة، ولم يبق توماس بعد ذلك بالقلقل والثورات إلا في عهد نفقور الأول، ولم يتم القضاء عليه إلا في عهد ميخائيل الثاني العموري، بعد أن تحالف مع الخليفة العباسي المأمون ٨١٣-٨٣٣م على مهاجمة القسطنطينية(٢).

تجلت صرامة الإمبراطورة إيرين في شخصيتها الحازمة المنشغلة بمصالح الإمبراطورية البيزنطية، وكان من أدلة ذلك موقفها مما حدث في ممتلكات الإمبراطورية في إيطاليا وما جاورها، إذ اعتاد نبلاء هذه الممتلكات على إرسال مبلغ من المال سنوياً إلى العاصمة القسطنطينية، غير أن الثورة التي قامت في وجه الشريف نارسيس Narses الذي عينته الإمبراطورة إيرين ليحكم بنفنتو، وبابيا، دفعته إلى انفاق أموال الضرائب جميعها التي جمعها لصالح خزانة الإمبراطورية، فلم يبق إرسال المبلغ المالي إلى العاصمة، وأرسل عوضاً عنه رسالة جاء فيها: "كنت أتوقع أن ترسلوا إليّ الأموال من عندكم حيث إنني استنفدت كل ما جمعته هنا وأنفقتة على الحرب، وما حدث هو العكس فأنتم الذين تطلبون منا الأموال"(٣)، وعندما علمت الإمبراطورة إيرين بفحوى هذه الرسالة غضبت كثيراً وأرسلت إليه مغزلاً وخيوطاً وكتبت له "خذ هذه الأدوات التي تناسبك، فقد وجدنا أنه من الأنسب لك أن تغزل بدلاً من الدفاع عن ممتلكات الإمبراطورية وقيادة الجيش ودخول المعارك كمقاتل يحمل السلاح، ومن علائم حنكتها العسكرية الإجراءات التي اتخذتها من أجل حماية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فقد تمكنت الإمبراطورة إيرين من تجهيز فرق من احتياطي الجيش البيزنطي لتدفع

(١) فازيلييف، العرب والروم، ص ٦٤.

(٢) أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ١٥٩. فازيلييف، العرب والروم، ص ٣٥-٣٦.

(٣) بوروفيتو جينوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٨-٩٩.

بهم إلى شرق نيقوميديا وذلك لمواجهة الخطر الإسلامي في عام ١٦٦هـ/٧٨٢م، وهذا دليل واضح على سياسة الإمبراطورة إيرين السديدة التي ضمنت مصالح الإمبراطورية البيزنطية ورفعته (١).

ج- الناحية التشريعية قبيل وصول إيرين وبعد وصولها:

يرى الكثير من المؤرخين أن الإمبراطورية البيزنطية اعتمدت في ثباتها واستقرارها على التمسك بأصول القانون الروماني، وعاد هذا بالفائدة على الأهالي الذين كان بإمكانهم الالتجاء إلى الحماية القانونية، ولعل شعور رعايا الإمبراطورية بأنهم كانوا يعيشون تحت حكم قضائي متقدم مقارنة بنظم جيرانهم القانونية قد جعلهم أشد ولاءً للإمبراطورية على الرغم مما كانوا يعانونه من ثقل الضرائب الباهظة؛ إذ إن القانون الروماني القديم شهد تعديلات كثيرة اقتضتها الحاجة والعادات الإغريقية والشرقية وتعاليم المسيحية، وتجدر الإشارة إلى القوانين التي أصدرها جستنيان الكبير، فقد بقيت أقل شأنًا بسبب كتابتها باللغة اللاتينية التي لم تكن سائدة في معظم أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، وبسبب اقتصرها على معالجة القانون العام، وقد سميت بالمتجددات، وظل العمل بها غامضاً حتى وصول الأسرة الأيسورية إلى سدة الحكم، فأصدرت قانوناً يتسق مع المبادئ المسيحية، وقد حفزت الأحداث السياسية وما نتج عنها من تغيرات في الخرائط تمثلت في الفتوحات الإسلامية واستيلاء البلغار والسلاف على البلقان إصدار تشريع باللغة اليونانية بسبب سيادة اللغة اليونانية، وانتشارها في أصقاع الإمبراطورية^(٢)، أسند الإمبراطور ليون الثالث إلى هيئة كبيرة من كبار رجال الدولة مهمة إصدار مجموعة قانونية جديدة وأسفرت جهودهم عن صدور قانون عرف باسم الأكلوجا Ecloga وتعني (المختار) وصدرت باسم الإمبراطورين ليون الثالث وابنه قسطنطين الخامس، وجاء في مقدمة الأكلوجا أن قوانين الأباطرة قد أصبحت صعبة المنال بسبب تفرقها في الكتب الكثيرة، ولعدم فهمها، فضلاً عن قلة تداولها في الأوساط خارج العاصمة، ومما جاء في هذه المقدمة: "تجرد القضاة من العاطفة والحكم بالعدل والعقل وعدم احتقار

(١) وديع عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٤٧.

(٢) Vasilieve: Op. Cit. P.270.

الفقراء والمساكين^(١)، وأن لا يتركوا الأقوياء المجرمين طلقاء الأيدي وأن يمتنعوا عن قبول الرشاوى والهدايا كما نصت على وجوب دفع مرتبات القضاة من الخزينة. وكانت الأكلوجا تتكون من نحو ثمانية عشر قسماً من الحقوق المدنية والأحوال الشخصية، وتحل فيها الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس عوضاً عن الاستشهادات بالقانون الروماني القديم^(٢)، فقد قال فيها ليون الثالث أن الهدف منها هو إدخال المبادئ المسيحية إلى القانون، وتجلت الأكلوجا في القانون المدني بما أصدرته من قوانين تتعلق بالزواج - بصفة خاصة - فلم يعد يُعترف إلا بالزيجات المسيحية وحدها وأنقصت أسباب الطلاق إلى أربعة وهي : زنى الزوجة، وعجز الزوج جنسياً، ومحاولة أحد الزوجين قتل الآخر، والإصابة بالبرص.

كما أن درجات تحريم زواج الأقارب رفعت من أربع إلى ست وحرّم أبناء عمومة الدرجة الثانية من التزاوج، فضلاً عن ذلك فقد زادت الأكلوجا أحوال النساء تحسناً فصار للزوجة نصيب يعادل نصيب الزوج في أملاكهما المشتركة وفي الوصاية على أطفالهما، وحصلت الكنيسة على حق الوصاية على اليتامى^(٣).

والواقع أن الأباطرة الأيسوريين في القوانين المدنية والكنسية أحاطوا الزواج بالجلال والوقار، وعدوا اتخاذ المحظيات شيئاً يثين السمعة، كذلك تأكد في عهدهم تحريم زواج المحارم من ذوي القربى^(٤)، هذا علاوة على اهتمامهم بعق الرقيق والشهود والبيع والشراء والقروض والرهن والضمان والتأمين والاحتكار والإقطاعات ونقض العقود وأمتعة الجند وتقسيم غنائم الحرب.

أما فيما يتعلق بالقانون الجنائي فقد تم إلغاء عقوبة الإعدام وإحلال عقوبة تقطيع الأوصال والتشويه محلها^(٥)، وصدرت ثلاثة قوانين غير رسمية تعد فروعاً إضافية في القانون هي: القانون العسكري Military code، والقانون البحري أو الرودوسي "Nautical code"،

(١) Ostrogorowski: Op. Cit. P.140.

(٢) رستم، الروم، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) رنسيان: مرجع سالف، ص ٨٢-٨٣.

(٤) الجنزوري، المرأة، ص ٢١٥.

(٥) العريني: الدولة البيزنطية، ص ١٧١-١٧٢.

وقانون الزراع أو الفلاح Rural code، وجميعها يوضح عادات الزمان المرعية ومستلزماتها^(١).

فقانون الزراع أو الفلاح يبين لنا كيف أن القرية قد أسندت إليها تبعية الضرائب بما يتسق ومقدرة الفلاحين المالية في دائرتها، وقد بذل الأباطرة الأيسوريون ما في وسعهم لتحرير أقنان الأرض واهتمّ هذا القانون بالملكية الفردية الحرة والملكية الجماعية أو المشاعة وحرية الانتقال ومنع الخدمة الإجبارية، فضلاً عما يقع بين الفلاحين من أنواع السرقات كسرقة الأخشاب والحقول والبساتين ومخالفة رعاة الماشية للوائح وما تتعرض له الحيوانات من الأذى والضرر^(٢).

يكشف لنا هذا القانون صورة واضحة عن حياة المجتمع الزراعي البيزنطي في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، إذ توصف القرية بأنها تحف بها البساتين وحدائق الكروم ومن حولها الأسيجة وفي خارجها الحقول المزروعة وليس بها أسيجة لكنها تابعة مع ذلك لملاك من الأفراد، وفي الخارج توجد المراعي وهي ملك مشاع للجميع إذ كانت تقع عقوبات فادحة على كل من يلحق الضرر عن عمد أو إهمال بممتلكات القرويين فهو إذاً نتيجة للتأثيرات التي أحدثتها هجرات الأقوام السلافية في الأنظمة الزراعية داخل الإمبراطورية^(٣).

أما القانون الثاني البحري فقد صدر لتسهيل إنشاء الأساطيل التجارية التي تقوم بنقل البضائع^(٤)، وهذا القانون يعدّ قانوناً تجارياً بحرياً يهتم -بصفة خاصة- بتوزيع المسؤوليات عند تعرض السلع للخطر إما من جراء العواصف البحرية أو القرصنة ويقسم هذا القانون الخسارة بين صاحب المركب والتاجر والركاب^(٥).

كما منع القانون الرودوسي جميع الركاب من إشعال النيران أو قلي السمك أو الشواء داخل السفينة؛ لأنها مزودة بمطعم صغير^(٦)، وقد ظل هذا القانون معمولاً به حتى القرن العاشر للميلاد.

^(١) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٨٣.

Vasilieve: Op. Cit. P.245.^(٢)

Diehl: Op. Cit. P.69.^(٣)

^(٤) محمود السيد: الدولة البيزنطية، ص ١٠٤.

^(٥) رستم: الروم، ص ٣٠١.

Hussey: Op. Cit. P. 131. Vasilieve: Op. Cit. P.249.^(٦)

أما القانون الثالث وهو العسكري أو قانون الجند فقد نص على نظام الطاعة في الجيش كما أنه يحدد الأحكام التي ينبغي للسلطة أن تجريها على الجنود في حالة رفض الطاعة أو التمرد أو ما شابه ذلك، فهو يُرينا شدة الانضباط الذي أوجبه القانون العسكري^(١)، كما قامت الإمبراطورة إيرين بإصدار مجموعة من القوانين بلغت ما يقارب اثنين وعشرين قانوناً في المجال الاقتصادي، وقامت الإمبراطورة بتوقيعه، فقدم لها الناس الشكر الجزيل^(٢).

التزمت الإمبراطورة إيرين بما جاءت به قوانين الأكلوجا وعملت بها وأصدرت أوامرها بإعادة كل ما أقدم عليه اللاأيقونيون من التخريب إلى الإصلاح، وأصدرت -كذلك- تشريعاً ينص على أنه في حالة إبرام أية اتفاقيات أو عقود سواء شفوية أم مكتوبة فلا بد أن تتم في حضور خمسة أو سبعة شهود أما بالنسبة فيما يتعلق بالأعمال التعاقدية فإنه يجب أن تدون بواسطة موثقي عموم أو كتاب عدل، أما في غالبية الأحيان فإن الأطراف المتعاقدة هي التي تقوم بتدوينها بنفسها^(٣).

وبهذه الأعمال التي قامت بها الإمبراطورة إيرين عاد السلام الديني، فضلاً عن حركة الإنشاء والتعمير التي أهلت بحقبة جديدة من الرفاهية والرخاء في مجالات الحياة كافة داخل الإمبراطورية البيزنطية وخارجها.

(١) أسد رستم: الروم، ص ٣٠٣.

(٢) إسحق عبيد: مرجع سالف، ص ١٩٦.

(٣) الجنزوري: المرأة، ص ٢٢٦.

الفصل الرابع

سياسة الإمبراطورة إيرين الخارجية أثناء الوصاية

سياسة الإمبراطورة إيرين الخارجية أثناء الوصاية.

أولاً- علاقة الإمبراطورة إيرين بالفرنجة.

ثانياً- علاقاتها بالخلافة العباسية.

ثالثاً- علاقاتها بقبائل البلغار- السلاف - الخزر:

٤- قبائل البلغار:

ت- البلغار من حيث المنشأ والموطن وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ث- دور الإمبراطورة إيرين في الحد من النفوذ البلغاري.

ج- سياسة بيزنطية عسكرية تجاه البلغار.

٥- قبائل السلاف:

ت- السلاف ظهورهم وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ث- دور الإمبراطورة إيرين في القضاء على السلاف.

٦- قبائل الخزر:

ت- الخزر من حيث نشأتهم وعلاقتهم بالإمبراطورية.

ث- دورهم السياسي والاقتصادي.

رابعاً- علاقة بيزنطية بالبابوية في روما:

ت- المشكلات الكنسية حول الزعامة الروحية.

ث- سوء العلاقة بين البابوية و الإمبراطورية البيزنطية.

ج- الدور الذي قام به شارلمان لإبعاد البابا عن بيزنطة.

د- دور إيرين في رأب الصدع بين بيزنطة والبابوية.

هـ- الدور الدبلوماسي للإمبراطورة إيرين مع البابا و الفرنجة.

١ - علاقة الإمبراطورة إيرين بالفرنجة:

يكشف التأمل في بعض العلاقات الخارجية للإمبراطورة إيرين، بجيرانها منذ توليها الوصاية على ابنها قسطنطين السادس، أنها كانت تتصف ببعد النظر، ويتفهم عميق للأمور. وللدلالة على ذلك استهلّت الإمبراطورة إيرين حقبة وصايتها بالبحث عن حليف خارجي قوي، ورنّت ببصرها صوب دولة الفرنجة^(١) التي كانت تحت زعامة الملك شارلمان الذي بدا نجمه يعلو في سماء الغرب الأوربي وقتذاك، وكان شارلمان في نظرها حليفاً مثالياً لا يساعدها فقط في دعم مركزها في حكم بيزنطة^(٢)، بل وأيضاً في حكم الأراضي البيزنطية جنوب إيطاليا وصقلية، والذي حقق انتصارات عدة في الغرب لاسيما ضد القبائل اللمباردية، فقد أرادت إيرين عندما بلغ ابنها قسطنطين السادس الثانية عشرة عام ٧٨٢م أن تعقد زواجاً سياسياً بينه وبين ابنة شارلمان وتدعى روترودا Rotruda، ولم يكن الأمر بالجديد في السياسة البيزنطية، فمنذ سنوات قليلة كان هناك مشروع تحالف بين بيبين الثالث Pippin III والد شارلمان وقسطنطين الخامس يتمثل في خطبة ابنة الأول جيزيلا Gisela من ليون الرابع^(٣)، راسلت الإمبراطورة إيرين شارلمان بهذا الموضوع^(٤)، فوصلت هذه السفارة إلى البلاط الفرنسي

(١) دولة الفرنجة: هي الدولة الجرمانية الوحيدة التي استطاعت البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية الرومانية بحيث كونت حلفاً فيما بينهما خلال القرن الثالث الميلادي وأخذت تظهر ككتلة متراسة في القرن الخامس الميلادي وهم ينقسمون إلى فرنجة بحريين وبربيين، ويعتبر كلوفس ٤٨٦-٥١١م المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة البحريون، وقد قسم كلوفس مملكته على أبنائه الأربعة استطاع أحدهم أن يوحد المملكة بعد وفاة أخوته الثلاثة وهو لوثر الأول عام ٥٨١-٥٦١م ثم قسمت المملكة من جديد بين أبنائه واتخذت المملكة عام ٦١٣م ثم اتخذت الحروب الأهلية طريقها إلى المملكة حتى ظهر داجوبرت الأول ٦٢٨-٦٣٨م الذي تولى استحكامات الجبهة الشرقية وتعقب الثوار وعقد صلحاً مع بيزنطة عام ٦٣٣م، وبعده تولى العرش الفرنسي ابنه سحبرت الثالث ٦٣٦-٦٥٦م في أوستراسيا وتولى أخوه كلوفس عرش ستريا وبعده وفاتهما برز أبرويس ٦٦٠-٦٨١م رئيس بلاط نستريا وبعده تولى عرش أوستراسيا بيبين الصغير الثاني ٦٨٨-٧١٥م وخلفه ابنه غير الشرعي شارل مارنل "المطرقة" ٧١٥-٧٤٣م الذي دعم أركان مملكة الفرنجة وقبل وفاته قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة انخرط أحدهم في سلك الديرية، والأصغر عقد أبعد إلى قلعة في الأرغن، أما الأوسط فهو بيبين القصير "الثالث" الذي حكم بمفرده المملكة سبعة عشرة عاماً ٧٥٢-٧٦٨م دعم فيها أركان دولته وقسم مملكته بين ولديه قبل أن يسلم الروح وهما كارل وشارل الكبير (شارلمان)، وما لبث كارل أن توفي فاستولى شارلمان على جميع مملكة الفرنجة مبتدئاً فيها حكم أسرة جديدة هي الأسرة الكارولنجية وقبل وفاته عمل على تقسيم المملكة بين أبنائه الثلاثة لكن المنية عاجلت اثنين منهما قبل وفاة أبيهم فكان العرش الكارولنجي من نصيب ابنه لويس التقي الذي شهد عهده حروباً ومنازعات أهلية من أجل السيطرة على السلطة وقد تداعت هذه المملكة عام ٨٨٧م. الشيخ، محمد محمد مرسى: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص ٣٢٣-٢٩٢. عاشور، أوروبا في العصور الوسطى "التاريخ السياسي"، ص ٧٨-٩٢.

(٢) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٢.

(٣) McCormick, M., Byzantium and the West, 700-900AD., in: The New Cambridge Medieval History, vol. 2, ed. R. McKitterick, Cambridge, 1995, pp. 349-380, esp. 365.

(٤) الرحيلي، سليمان ضفيدع: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة في عهد الخليفة هارون الرشيد والإمبراطور شارلمان، دار الهدى، الرياض، بدون تاريخ، ص ٤١.

واغتبط لها شارلمان، وبعدها أخذت هذه السفارة الموافقة من الملك الفرنجي رجعت إلى العاصمة البيزنطية وتكللت مساعي الإمبراطورة بالنجاح لذلك أرسلت إلى البلاط الفرنجي في آخن Akin "أكس لاشابل"^(١) كاتب العدل أليسيوس Elissaus وذلك لتعليم الأميرة الفرنجية روترودا اللغة اليونانية^(٢)، والآداب والطقوس الدينية في البلاط البيزنطي^(٣).

وفي عام ١٧٠هـ/٧٨٦م أي بعد مرور أربع سنوات على هذه السفارة والاستعدادات أصبح قسطنطين السادس في السادسة عشرة من عمره، ووقتها أعاد الملك الفرنجي شارلمان بنفسه إعلان الموافقة من جديد على خطبة قسطنطين السادس من ابنته، لكن الوضع كان قد تغير فعندما همت الإمبراطورة إيرين بعقد المجمع الديني المسكوني السابع والأخير في تاريخ الكنيسة عام ٧٨٧م، ورأت أن بداية انتصارها قد لاح في الأفق، قررت إلغاء هذا الزواج نهائياً^(٤)، وهذا الانتصار كان متمثلاً في نجاحها بالقضاء على الثورات والتمردات من ناحية، وبحضور المندوب البابوي من ناحية أخرى، وربما كان ذلك راجع إلى ثقتها بنفسها أو خوفها من اتحاد قوة شارلمان مع ابنها قسطنطين ضدها، أو لسيطرة شارلمان على مقاليد الأمور في الإمبراطورية البيزنطية من جهة ثالثة^(٥).

(١) رستم، حرب في الكنائس، ص ٤٢.

(٢) رمضان، المرأة والمجتمع، ص ٥١.

(٣) رمضان، المرأة والمجتمع، ص ٤٢.

Theophanes, Op. Cit, p. 628

Theophanes: Op. Cit. PP. 670-673.^(٤)

(٥) يرى المؤرخ هودجكين Hodgkin أن بابا روما هادريان أدى دوراً بارزاً في هذا الموضوع، فبينما كان يتظاهر بتشجيع الإمبراطورة إيرين في جهودها لإعادة عبادة الأيقونات ساورته المخاوف من النتائج التي سوف تترتب على التحالف بين بلاطي بيزنطة وآخن، ولذا عمد إلى إخطار شارلمان بما جرى من العلاقات الدبلوماسية بين الإمبراطورة والخليفة هارون الرشيد، وأشار بالتفصيل إلى ما يقوم به البيزنطيين من التآمر في إيطاليا بغية الفتنة بين شارلمان والبيزنطيين، ففي عام ٧٨٧م أرسلت سفارة بيزنطية إلى أريغيس دوق بنفيتو لتقلده خلعه بطريكية على أنه من أتباع قسطنطين السادس، فبادر هادريان بإطلاع شارلمان بكل ما يحدث لكن أريغيس توفي قبل قدوم السفارة إليه وخلفه في الحكم جريجولد عام ٧٨٧م لذلك رفض شارلمان أن يزوج ابنته من قسطنطين السادس: أما المراجع الفرنجية وعلى رأسها إرينهارد فيقول بأن شارلمان لم يطق فراق ابنته.

Einhard, The Life of Chariemangne in the Medieval World Turner uni of Michigan Press 1963, P.47-48

Hodgkin, Italy and her invaders Oxford 1896, 4. Vols P.96.

وعلى أرجح تقدير كانت مساعي البابوية جادة في التقليل من قيمة بيزنطة وكنيستها والخط من قدرهما.

أما فيما يتعلق بالأميرة الفرنجية روترودا فقد تزوجت فيما بعد من فردريك كونت مين Count of Maine وأنجبت له ابناً اسمته لويساً الذي أصبح فيما بعد رئيساً لدير القديس سانت دينس Saint Denis^(١).

٢- أحوال بيزنطة العسكرية مع المسلمين في الشرق:

توفي الإمبراطور ليون الرابع تاركاً مقاليد الأمور في الإمبراطورية البيزنطية في يد أرملته الوصية على ابنها، وأخذ الخطر الإسلامي يتفاقم في عام ٧٨١م أرسل الخليفة العباسي المهدي قائده الكبير عبد الحميد بن زيد بن الخطاب فخرج من درب الحدث وتصدى له جيش بيزنطي في مواجهة وقعت في شمال الحدث^(٢) بقيادة الإستراتيجوس ميخائيل لاختودراكون وتاتراتيوس، إذ بلغ عدد أفراد الجيش البيزنطي ٩٠,٠٠٠ ألف مقاتل غير أن القائد العباسي آثر الانسحاب مما أدى إلى غضب الخليفة المهدي فقام بعقابه وحبسه^(٣).

تشنتت القوات البيزنطية في هذه الأثناء بسبب ثورة حدثت في صقلية، فضلاً عن أن النشاط العباسي أخذ في الازدياد، وكان تشنتتها ما بين صقلية للقضاء على الثورة وبين آسيا الصغرى لمواجهة المسلمين على الحدود^(٤).

فقد قام الخليفة المهدي بتجهيز حملة كبيرة قوامها خمسة وتسعون ألفاً وسبعمائة وثلاثة وتسعون مقاتلاً^(٥)، وأنفق على هذه الحملة كمية كبيرة من قناطير الذهب ومن الدنانير والدرهم وجعل قيادة هذه الحملة لابنه هارون وعدد من أتباعه ومستشاريه المقربين ومنهم مولاه الربيع بن يونس الحاجب، وكذلك يحيى البرمكي وكان عمر هارون آنذاك تسعة عشر عاماً، وفي عام ١٦٦هـ/٧٨٢م تحركت الحملة نحو الأراضي البيزنطية وهاجمت قلعة ماجدة وهي أولى القلاع على الحدود السورية- وتتميز باحتوائها على مخازن القمح تحت الأرض^(٦).

(١) صبرة، الإمبراطوريتان، ص ٩٧.

(٢) الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد، (ت: سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٥٨.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، ١٥٠/٨.

(٤) رستم، الروم، ٢٩٦/١.

(٥) الطبري، تاريخ الرسل، (حوادث عام ١٦٥هـ)، ١٥٢/٨. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (حوادث عام ١٦٥هـ)، ٦٦/٦. فعند الطبري عدد الجيش الإسلامي يبلغ ٩٥٧٩٣، وعند ابن الأثير ٩٥٩٩٣، مما يعني وجود سجلات عسكرية دقيقة ومقاربة عن هذه المعارك.

(٦) الطبري، تاريخ الرسل، (حوادث عام ١٦٥هـ)، ١٥٢/٨.

بعد ذلك سارت الحملة نحو بند الأناضول، ولم تقطن بيزنطة إلى الهدف الأصلي لهذه الحملة وأرسل هارون يحيى البرمكي على رأس قوة نحو بند تراقسيون فوقع صدام مع جيش هذا البند بقيادة ميخائيل لاخاندراكون في معركة طاحنة دارت رحاها في موقع يسمى دارينو Darenو على الحدود الشرقية للبند ومُني البند بهزيمة فادحة^(١)، ثم واصل هارون تقدمه نحو خليج البوسفور وتمكن من الدخول إلى أراضي بند الأوبسيكيون وعلى الرغم من محاولة قائد هذا البند وقف الزحف وهو نيكيتاس Nicetas لكنه لم يستطع بسبب خروج أحد قادة هارون الرشيد ويدعى يزيد بن الشيباني لملاقاته وهزيمته، وتمكن يزيد من الاستيلاء على معسكر قيادة البند^(٢).

قامت الإمبراطورة إيرين في هذا الموقف الصعب بالدفع بالفرق العسكرية المخصصة أصلاً للدفاع عن العاصمة -التاجماتا الإمبراطورية Tagmate Imperial^(٣) في محاولة منها لوقف هذا الزحف فأرسلت الدمستق أنطونيو بقوته بحراً من القسطنطينية إلى نهر السنجاريوس فتمكن من الاستيلاء على بحيرة بانيس Banes المطلة على هذا النهر، وكذلك على المنطقة الجبلية الواقعة شرقي نيقوميديا، وأقام أنطونيو فيها مركزاً دفاعياً قوياً لحماية الطرق المؤدية إلى العاصمة^(٤).

تابع هارون خط سيره بمحاذاة وادي نهر سانجاريوس المطل على ساحل البحر الأسود وأصبح وجهاً لوجه مع قوات الدمستق أنطونيو ، وقام قسم آخر من الجيش البيزنطي بتطويق القوات العباسية من الجنوب والجنوب الشرقي وهكذا أصبح هارون محاصراً بين الجبل الموجود بالقرب من نيقوميديا من الشمال وبين نهر سانجاريوس من الجنوب واستكملت القوات البيزنطية حصار جيش هارون من الغرب ثم من الجنوب الشرقي^(٥).

(١) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ٢٢-١١٥. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أبلغ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب البناني، بيروت، ١٩٨٣م، ٤٥٢/٥.

(٢) منصور، طارق: بيزنطة والعالم الخارجي "البيزنطيون والعالم الإسلامي"، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١٢٣.

(٣) كانت التاجماتا تضم حرس القصر الذي يرأس فصائله رئيس حرس القصر ويُسمى الدمستق Damasticos وكان أنطونيو يشغل هذا المنصب آنذاك، وكذلك التاجماتا تشترك في الحرب في حالتين، أولاهما عندما يكون الإمبراطور يقود المعركة بنفسه، والثانية عندما تستدعي الضرورة ذلك. Theophanes: Op. Cit. P.929.

(٤) Ibid: Op. Cit. P.929.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (العصر العباسي الأول في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ٧٤٩-٨٤٧م، دار الجبل، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٩٨-١٩٩).

وفي ظل هذا الوضع أصبح للجيش البيزنطي الكلمة العليا كما بات ضرورياً أن يفكر العباسيون جدياً في كيفية الخروج من هذا المأزق لاسيما وأن الحرب خدعة فاستخدموا ذكائهم في الخلاص من هذا الموقف واستمالوا إلى جانبهم القائد تراتزاتيس فطلب هارون التفاوض مع البيزنطيين وكان القادة وهم ستاوراكيوس، وأنطونيوس وكبير الضباط ببيتر قد تدخل تاتزاتيس لديهم ليجمعهم يوافقون على عرض هارون التفاوض إذ كانوا يقدرون لتاتزاتيس إخلاصه وكفاءته ولم يتسرب إليهم الشك في أن يكون خائناً فوافقوا على طلب التفاوض بناءً على مشورة تاتزاتيس، ووسط أحاسيس البيزنطيين بنشوة النصر السياسي والعسكري اعتقدوا أن تفاوضهم سيكون من مركز قوة ولن يكون أمام المسلمين سوى الرضوخ لشروطهم فيحققون بذلك تفوقاً عسكرياً لم تشهده بيزنطة منذ زمن بعيد^(١).

واتخذت الترتيبات اللازمة للمفاوضات بسرعة وغفل البيزنطيون عن اتخاذ تدابير الاحتياط اللازمة بأن يتم تبادل أولي للأسرى، وبالفعل ما كاد ستاوراكيوس وأنطونيوس وببيتر يدخلون معسكر هارون حتى قبض عليهم وكتبوا بالقيود وأصبحوا أسرى وتحولت كفة الحملة كلها لصالح هارون وأصبحت القوات البيزنطية بدون قائد، إذ إن القائد الوحيد خارج الأسر كان هو تاتزاتيس الذي أصبح مالياً لهارون^(٢).

وهكذا أصبحت الفرصة متاحة لهارون لاستغلال الهزة التي أصابت الجيوش البيزنطية وحالة عدم التوازن التي ألمت بها، فتقدم إلى كريسوبوليس Chrysopolis على البوسفور في بند تراقسيون المواجه للعاصمة، وبلغ خليج القسطنطينية عند مضيق البوسفور وأصبحت العاصمة نفسها مهددة بالخطر، مما أثار خوف الإمبراطورة التي لم تكن في وضع يتيح لها المساومة أو الاختيار؛ إذ إن جميع قادتها أسرى لدى المسلمين وجيوشها منهزمة ولم يعد لديها قادة أكفاء أو مستشارين، وأهم من هذا وذاك أن تطور الأحداث لم يكن بصالحها، وأمام كل هذا طلب البيزنطيون الصلح وخضعت بيزنطة لشروط هارون وجرت بين هارون وإبرين الرسل والسفراء

^(١) Theophanes: Op. Cit. PP.666-669.

ينظر أيضاً: غواتمه، يوسف درويش: النظم العسكرية عند العرب المسلمين مدة النشأة والتكوين، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الرابع، دمشق، ١٩٨١م، ص ١٤١-١٥٨.

^(٢) طارق منصور: مرجع سالف، ص ١٢٣. ربيع، حسنين محمد: دراسات في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ١٣٦.

لوضع تفاصيل اتفاق الصلح والموادعة، وعقدت معاهدة الصلح في عام ١٦٦هـ/٧٨٢م وقد تضمنت عدداً من الشروط هي:

أولاً- عقد معاهدة صلح وسلام بين القوتين المتحاربتين لمدة ثلاث سنوات.
ثانياً- تدفع الوصية الإمبراطورة إيرين للخلافة العباسية جزية سنوية تتراوح ما بين سبعين ألفاً أو تسعين ألفاً من الدينار.

ثالثاً- يتم تبادل الأسرى بين الجانبين.

رابعاً- فتح بيزنطة أسواقها أمام التجار المسلمين.

خامساً- تقوم بيزنطة بإمداد جيش هارون بالأدلاء في طريق عودتهم.

سادساً- يسمح للجيش العربي بالرجوع بكل غنائمه بدون اعتراض أو مقاومة.

وقد حرص هارون على بيان هذا الشرط لإدراكه أنه بدون هذا الأمان سوف يتعرض لصعاب خطيرة في أثناء عودته^(١) نظراً لأنه دخل مدخلاً ضيقاً تسبب في إثارة الخوف والرعب لدى المسلمين، وذلك راجع إلى الانسحاب الذي كان محفوفاً بالمخاطر بسبب استيلاء البيزنطيين على بحيرة بانيس^(٢).

وافقت الإمبراطورة إيرين على هذه الشروط، فلم يكن أمامها سوى الرضوخ للأمر الواقع، كما كانت تريد أن تخفف حدة التوتر للأوضاع في تلك الجبهة، كي تتفرغ لجبهات أخرى، وكانت هذه الحملة الإسلامية خاتمة الحملات العربية الإسلامية على البوسفور.

وبإتمام اتفاق الصلح بين الطرفين أخذت القوات الإسلامية في الانسحاب من الأراضي البيزنطية في الأول من ايلول عام ٧٨٢م وقد أصطحب هارون الرشيد معه القائد البيزنطي تاتراتيس الذي أحضر معه زوجه ومؤيديه، وأغدق عليه المهدي الهدايا والعطايا وكان أحسن تكريم حظي به أن عهد إليه بقيادة أرمينيا^(٣).

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ١٣٥/٣. البلاذري، فتوح البلدان، ١٩٩/٣. الطبري، تاريخ الرسل، حوادث عام ١٦٦هـ، ١٥٢/٨. ابن الأثير، الكامل، حوادث عام ١٦٦هـ، ٦٦/٦. النويري، نهاية الأرب، ١١٥/٢٢. الحنبلي، شذرات الذهب، ص ٣٦٠. إبراهيم الشريفي: التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر، بدون مكان، ١٩٧١م، ص ١١٩-١٢٦.

(٢) الطبري، تاريخ الرسل، ١٥٢/٨. ابن خلدون، العبر، ٤٥٢/٥.

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ٦٥٠/٥. طارق منصور، بيزنطة والعالم الخارجي، ص ١٢٣.

وبذلك تحولت كفة ميزان القوى في الصراع البيزنطي الإسلامي لصالح العباسيين في تلك الحقبة، لكن هذه المعاهدة لم تُحترم من الجانبين وظلت المناوشات البيزنطية قائمة، وكذلك غارات الصوائف والشواتي.

ففي عام ٧٨٨ زاد هارون الرشيد نشاطه فأمر بصائفة بقيادة إسحاق بن سليمان بن علي الذي أرسل قائده أو عامله يزيد بن عتبة الحرشي فتمكن من الدخول إلى بند الأناضول بالقرب من أيسوريا^(١)، فتقابل الجيشان حيث كان الجيش البيزنطي مكون من قوات بندي الأناضول والأوبسيكيون في منطقة كبيدنادوسن Capidnadus بالقرب من بند الأناضول، وتمكن القائد العباسي من الرجوع بكثير من السبايا والغنائم بعد ما قتل عدداً كبيراً من البيزنطيين وقائدهم ديجينس Degenis الذي عرف بالشجاعة^(٢).

كما شهد عام ١٧٤هـ/٧٩٠م ذروة النشاط السياسي المتبادل بين الجانبين سواء البري أم البحري، فوصلت قوات هارون الرشيد إلى الحدود البيزنطية إلى بند خالديا وأسرت عدداً من البيزنطيين وغنمت كثيراً من الماشية^(٣).

وفي أثناء إبحار الأسطول العربي من مصر إلى الشام حاملاً بعض القوات العسكرية حيث كانت الاستعدادات تتم في سرية لشن هجوم بحري على قبرص تعرض الأسطول العربي لمهاجمة الأسطول البيزنطي الذي تمكن من أسر عدد من جنود البحرية المصرية وهذا دليل على أن الأسطول البيزنطي كان متيقظاً للتحركات الإسلامية البحرية وكان يتوقع شن الحملة على قبرص.

فأرسل هارون الرشيد في العام نفسه أسطوله إلى قبرص للرد على هذا الهجوم فوصل إلى خليج أضايا Attalia على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى فوجهت الإمبراطورة إيرين قوة بحرية بيزنطية لمهاجمة الأسطول الإسلامي ونشبت معركة حامية بين الطرفين تكبدا فيها خسائر كبيرة^(٤).

(١) ابن خلدون، العبر، ٤٦٧/٥.

(٢) Baynes and Mess: Op. Cit. P.320.

(٣) الطبري، تاريخ الرسل، حوادث عام ١٧٤هـ، ٢٤١/٨.

(٤) عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص ١٣٧.

وفي هذه الأثناء قاد الإمبراطور قسطنطين السادس منفرداً جيشه في سبتمبر ٧٩١م عن طريق عمورية قاصداً غزو طرسوس ولكنه عاد إلى العاصمة دون أن يحقق أي نصر يذكر، ويرى ثيوفانيس أن رجوعه كان بسبب قلة المياه.

وفي عام ٧٩٥م أرسل هارون الرشيد حملة بقيادة الفضل بن محمد وصلت إلى أرجوب Urgub-جنوب الأناضول- وقام الإمبراطور قسطنطين السادس بشن حملة مضادة ولكنه لم يحقق نجاحاً فيما يتعلق بالشق الهجومي، إلا أنه من الناحية الدفاعية تمكن من صد الحملة ومنعها من الوصول إلى الساحل الغربي وأجبرها على التراجع^(١).

وفي آذار من عام ٧٩٧م أراد الإمبراطور قسطنطين السادس القيام بمحاولة توقف النشاط العباسي فأعد جيشاً قوامه عشرون ألف مقاتل من قوات بند أرمينية والأناضول وأبدى حماسة لمواجهة العباسيين لكن تخوف ستاوراكيوس ورفاقه في هذه الحملة من قسطنطين السادس التي ربما تؤدي إلى تحقيق النصر، مما يعرقل تنفيذ مخططهم في التخلص منه، قام ستاوراكيوس بالاتصال بعيون الجيش وطلائعه، وقام بتقديم الرشى والهدايا والعطايا لكي يقدموا للإمبراطور تقريراً مزيفاً يفيد أن المسلمين قد لاذوا بالفرار وبالفعل تلقى الإمبراطور هذا التقرير فجمع قواته وأوقف تحركاته ولكنه اكتشف زيف التقرير فاستشاط غضباً وعاد أدراجه إلى العاصمة^(٢).

^(١) Theophanes: Op. Cit. P. 679.

^(٢) Ibid. PP. 679-681.

٣-العلاقات مع البلغار - السلاف "الصقالبة" - والخزر:

١- قبائل البلغار:

أ- نشأة البلغار وموطنهم وبداية علاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية:

يرجع أصل البلغار إلى القبائل التركية التي هاجرت من موطنها الأصلي في سفوح روسيا الجنوبية واستقرت في منطقة الدانوب^(١). فقد أقاموا لهم إمبراطورية اشتهرت باسم (أوتوجور بلغار) وقد كانت على علاقة ودية وحميمة مع الإمبراطورية البيزنطية زمن الأسرة الهرقلية لكنها تفككت في منتصف القرن السابع للميلاد، وذلك نتيجة تحرك قبائل الخزر صوب الغرب^(٢). فخضع جانب منهم إلى الخزر، وغادرت قبائل منهم موطنها الأول في حوض نهر الفولجا وكانت أكبر الفئات التي ارتحلت غرباً بزعماء أسباروخ Asparuch^(٣) ابن الملك كوبرات الذي أقام بموافقة السلطات البيزنطية في المقاطعة الواقعة بين الدانوب الأسفل والبلقان محيطين بالصقالبة الذين سبقوهم إلى تلك المنطقة معترفين لهم بالسيادة والصدارة. وقد كان البلغار يدفعون ضرائب إلى الخزر حقبة من الزمن، غير أنهم كانوا يستعيدون استقلالهم بين الفينة والأخرى كلما دب الضعف في أوصال الخزر^(٤).

في السبعينات من القرن الأول الهجري السابع الميلادي ظهرت هذه العناصر عند مصب نهر الدانوب، فقد أدرك الإمبراطور قسطنطين الرابع أن هؤلاء المعروفين بحبهم للقتال على الأطراف الشمالية للإمبراطورية يُعدون خطراً يهدد كيان الإمبراطورية، فأعد حملة لمواجهة فاصطدم بهم عام ٦٨٠م، إذ اتجه الإمبراطور بنفسه على رأس أسطول ضخم من السفن فاجتاز البحر الأسود وألقى مراسيه في الشمال من مصب نهر الدانوب، وقدمت الجيوش من آسيا الصغرى واجتازت تراقيا حتى بلغت الضفة الشمالية للنهر، حيث اشتهرت هذه الجهات بكثرة المستنقعات مما جعل من العسير على البيزنطيين القيام بأي عمل حربي.

(١) بن ناصر: الدوناتية، ص ٣٠.

(٢) Vasilieve: Op. Cit. P.219.

(٣) صفرة، نجدة فتحي: العرب في الاتحاد السوفيتي ودراسات أخرى في العلاقات التاريخية والثقافية بين العرب والروس، بغداد، ١٩٨٤م، ص ١٨.

(٤) الداوقي، حسين علي: دولة البلغار المسلمين في حوض الفولجا، مجلة المؤرخ العربي، العدد الواحد والعشرون، بغداد، ١٩٨٢م، ص ٢٠٥.

وعلى الرغم من تفوق القوات البيزنطية، وخبرتها في القتال، وكثرة أعداد جنودها غير أن هذا كله لم ينفع البيزنطيين، مما دفعهم إلى الانسحاب، وعقد معاهدة مع البلغار، تعهد فيها قسطنطين الرابع بدفع جزية سنوية إليهم بجانب تنازله عن البلاد الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان "ديبروجة الحالية" وصار في يد البلغار مصب نهر الدانوب وجانب من ساحل البحر الأسود، وأضحت هذه المملكة الجديدة التي اعترف بها الإمبراطور البيزنطي تشكل خطراً كبيراً يهدد الإمبراطورية البيزنطية^(١).

سلف في الفصل الأول لجوء جستنيان الثاني إلى خاقان الخزر لقب ملك من ملوك الترك، فلما علم جستنيان الثاني بخيانتة وخيبة أمله الكبيرة في مساعدة الخزر له استطاع بعد مغامرات عديدة أن يبلغ الساحل الغربي للبحر الأسود، وأن ينشأ في هذه الجهات علاقات ودية مع ترفل Trevel ٧٠١-٧١٨م خاقان البلغار، وذلك من أجل أن يساعده في استعادة ملكه، وفي خريف عام ٧٠٥م ظهر جستنيان الثاني وترفل أمام أسوار القسطنطينية على رأس جيش ضخم يتألف من البلغار وكذلك الصقالبة، وبمساعدة البلغار تمكن جستنيان الثاني من استعادة عرشه، وأضفى الإمبراطور جستنيان الثاني على خاقان البلغار تريفل لقب قيصر تشريفاً له وتقديراً لخدماته، وعاد إلى بلاده محملاً بالنفائس والهدايا الثمينة^(٢).

غير أن هذه العلاقات لم تستمر طويلاً فقد زحفت القوات البلغارية بقيادة الملك تريفل نحو القسطنطينية وذلك عندما عرف بموت جستنيان الثاني من أجل الانتقام لمقتله فأعلن الحرب ضد الإمبراطور البيزنطي الجديد فيليبكيوس باردانس عام ٧١١-٧١٣م، وزحف بجيشه نحو أسوار القسطنطينية وخرب ما يجاورها من أراضي وتعرضت المدينة للسلب والنهب، ومن بينها قصور الأغنياء الصيفية، تطلب إنقاذ الموقف البيزنطي نقل الجند من بند الأيسيق بآسيا الصغرى عبر البوسفور، غير أن هذه القوات لم تلبث أن أعلنت حالة من التمرد والثورة ضد الإمبراطور فيليب كوس فتقرر عزل الإمبراطور وسُملت عيناه^(٣).

وفي أثناء الحصار الإسلامي الكبير للقسطنطينية دخل الإمبراطور ليون الثالث في مفاوضات وتحالفات مع خاقان البلغار ووعدهم أو أغراهم بمبلغ كبير من المال، مما يعني

Vasiliev: Op. Cit. P.219. Ostrogorowski: Op. Cit. P.113.^(١)

Ostrogorowski: Op. Cit. PP.126-127.^(٢)

^(٣) عاقل: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٤٥.

أنالبلغار قد أصبحوا في مطلع القرن الثامن قوة كبيرة في البلقان ووصلوا إلى حد أحست فيه بيزنطة بالخطر فعملت على أن تشتري السلام معهم بالذهب البيزنطي^(١)، إذ عمل الجنود البلغار على مهاجمة المسلمين الذين أحرقوا بالمدينة من الجانب الأوربي^(٢) وردوهم عنها، وكان هذا التدخل البلغاري أحد المسوغات التي أدت دوراً كبيراً في إخفاق الحصار العربي الإسلامي للعاصمة البيزنطية^(٣).

ظلت العلاقات السلمية بين الإمبراطورية البيزنطية ومملكة البلغار قائمة طوال عهد الإمبراطور ليون الثالث، وأخذ كلٌّ من الطرفين القيام بالإصلاحات في بلده، لكنها عادت وتآزمت في عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس نتيجة سوء معاملة الإمبراطور قسطنطين لسفيرهم عند استقباله في القسطنطينية.

أدرك الإمبراطور قسطنطين الخامس أن البلغار يعدون أخطر عدو للإمبراطورية البيزنطية، فقام بتشييد الحصون والقلاع والاستحكامات على الحدود البيزنطية البلغارية، مما جعل البلغار يستعدون لمهاجمة القسطنطينية، وأرسل الإمبراطور قسطنطين الخامس العديد من الحملات ضد البلغار، إذ أرسل ما لا يقل عن تسع حملات أنشبت القتال في أرض بلغاريا^(٤).

وفي عام ١٤٥هـ/٧٦٢م تولى مقاليد الحكم في المملكة البلغارية الخاقان تيلتز Teletz ١٤٥-١٤٧هـ/٧٦٢-٧٦٤م الذي يعد من أشد أعداء بيزنطة ومن الداعين إلى مهاجمتها، فما كاد يتولى الحكم حتى هاجر إلى الإمبراطورية البيزنطية عدد كبير من الصقالبة الذين يكونون الحقد للبلغار^(٥) فرحب بهم الإمبراطور قسطنطين الخامس وأسكنهم في بيتينا بآسيا الصغرى، حيث أسكن في هذه الجهات من قبل جماعات من الصقالبة فعمل بذلك على زيادة العنصر الصقلبي في آسيا الصغرى، لإبعاد البلغار عن الوصول إلى مياه بحر إيجه

(١) فرح: تاريخ بيزنطة، ص ٢٢٣.

(٢) إسماعيل، ليلى عبد الجواد: دور البلغار في مواجهة حملة مسلمة بن عبد الملك على القسطنطينية، مجلة المؤرخ العربي،

العدد السادس، القاهرة، ١٩٩١م، ص ٩١-٩٥. ويُنظر: Ropert: Op. Cit. P.51.

(٣) فرح، نعيم: الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي، مجلة دراسات تاريخية،

العدد العاشر، دمشق، ١٩٨٢م، ص ٣١-٣٣.

(٤) Vasilieve: Op. Cit. P.238.

(٥) Ostrogorsky: Op. Cit. P.150.

وحاصرهم ليصبحوا مملكة داخلية مغلقة، الأمر الذي لم يعجب البلغار، فكان ذلك بمثابة إشعال الفتيل للحرب.

التقى الإمبراطور قسطنطين الخامس بملك البلغار تيلتز في تراقيا، وأرسل أسطولاً يحمل أعداداً كبيرة من الجنود البيزنطيين إلى مصب نهر الدانوب، بينما اجتاز هو بجيشه تراقيا متوجهاً نحو أرض البلغار واجتمع الجنود بسائر القوات عند انخيالوس Anchialus على شواطئ البحر الأسود، وفي ٣٠ يونيو ٧٦٣م وقعت معركة عنيفة بين الطرفين استمرت يوماً كاملاً انتهت بهزيمة ساحقة للبلغار وسقط ملكهم تيلتز صريعاً إثر ثورة قامت ضده اجتاحت بلغاريا بكاملها، واستمرت على امتداد سنوات عديدة ترتب عليها انقلابات حكومية كثيرة جعلت للإمبراطورية البيزنطية من النفوذ والقوة أدياً إلى تدخلها في شؤون بلغاريا الداخلية^(١). أما الإمبراطور قسطنطين الخامس فبعد الانتصار الذي حققه دخل عاصمة ملكه في موكب كبير وجرت الاحتفالات الكبيرة في أنحاء الإمبراطورية كافة، ولقبه شعبه باسم سفاح البلغار Bulgaro Ctonos.

وعلى الرغم من محاولات قسطنطين الخامس فرض الصلح على بلغاريا لم ينجح في ذلك، وفشلت حملاته البرية والبحرية لتسوية مشكلة بلغاريا نهائياً حتى وفاته عام ٧٧٥م^(٢). وفي عام ٧٧٠م تولى الحكم في بلغاريا الملك تيليريج Telerig (٧٧٠-٧٧٧م)^(٣) حاول القيام بأعمال أقرب إلى المحال كي تنهض بلغاريا من أزمتها العنيفة بعدما كابدت من أصناف الضعف ما بدد قوتها الحربية والإدارية نتيجة حروبها المستمرة مع الإمبراطورية البيزنطية، فقد حاول الملك تيليريج إصلاح الأوضاع لاسيما المادية منها، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع أن يتفادى الفوضى العارمة في بلغاريا، فلجأ تيليريج نفسه إلى بلاط القسطنطينية فراراً من هذه الفوضى ومن التسبب الذي طال أجهزتها جميعها^(٤). نعمت الإمبراطورية البيزنطية بالهدوء على جبهتها الخارجية الشمالية المواجهة للبلغار غير أنه جاء هدوءاً نسبياً، فقد خمد مدة من الزمن خطرهم الذي كان الشغل الشاغل للإمبراطورية

(١) عبد الجواد: دور البلغار في مواجهة حملة مسلمة، ص ٩١-٩٥. Ostrogorowski: Op. Cit. P.153.

(٢) الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٣٤.

(٣) Ostrogorowski: Op. Cit. P.151.

(٤) جويسون، ن، ب: انتشار الشعوب الصقلية أجدادهم وثقافتهم الأولى وكيف اتخذوا سبيلهم إلى التاريخ المدون، موسوعة تاريخ العالم، نشره السير جون أ، هامرتن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ٥٣٦-٥٢٩/٤.

البيزنطية وكان سبب تلاشي هذا الخطر ناتج عن تدهور أحوال البلغار، وضعف قوتهم العسكرية نتيجة الحروب المتعددة التي خاضوها وانتهى الأمر بهروب الملك إلى القسطنطينية وكان ذلك في عهد الإمبراطور ليون الرابع حيث اعتنق المسيحية وعاش في العاصمة بعد أن عيّن بطريقاً وزوجه الإمبراطور ليون الرابع من إحدى أخواته.

ب- مساعي الإمبراطورة إيرين للحد من الخطر البلغاري:

أخذ البلغار بعد سنوات ليست بالكثيرة في لمّ شتاتهم من جديد ليصبحوا بعد ذلك خطراً متجدداً يهدد أمن الإمبراطورية البيزنطية وسلامتها، فبينما كانت الإمبراطورية البيزنطية منهكة في حروبها مع المسلمين، ظهر خطر البلغار، وكان ذلك في عهد الإمبراطورة إيرين، وذلك بإيعاز من الإمبراطور قسطنطين السادس عام ٧٨٩م غير أنها لم تحرز أي نجاح ملموس (١)، ففي عام ٧٨٨م قام البلغار بالهجوم على بند تراقيا غير أن القائد البيزنطي في هذا البند لم يحرك ساكناً من أجل دفع خطرهم فقد تعرض الجيش التراقي لخسائر فادحة نتيجة عدم اتخاذ القائد البيزنطي الذي كان تحت إمرة قسطنطين السادس الحيلة والحذر في أثناء تمرّكه بلا مبالاة على شاطئ ستريموس Stremone غرب أدرنة (٢).

ونتيجة لضعف شخصية الإمبراطور قسطنطين السادس وقلة خبرته وإيمانه بالخرافات فقد قام بالإصغاء إلى منجم كاذب أدعى النبوة، وقد أقنع قسطنطين السادس بنجاحه إن هو خاض حرباً ضد البلغار في هذا العام (٣).

وفي عام ٧٩٢م التقت الجيوش البيزنطية بقيادة الإمبراطور قسطنطين السادس بالجيوش البلغارية وذلك عند حصن ماركلياري Marcallare الواقع عند الحدود البيزنطية فدارت معركة شديدة بين الجانبين هناك (٤). فآثر قسطنطين السادس الهرب على الموت في ساحات القتال مما أدى إلى أسر عدد كبير من الجند والقادة ذوي الكفاءة العالية، واستيلاء البلغار أيضاً على الأمتعة والنقود والخيول وكل ما يخص الحاشية الإمبراطورية (٥)، الأمر

(١) Bury, J. B: A History of the Eastren Roman Empire, London, 1912. P.339.

نقلاً عن: العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٢٩.

(٢) Theophanes: Op. Cit. PP.680-688.

(٣) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٥.

(٤) Bury: Cambridag M. D. H. Op. Cit. P.339.

(٥) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٥.

الذي دفع الإمبراطورة إيرين إلى قبولها بدفع جزية إلى ملك البلغار مرغمة وكان يدعى كارداموس Kardamos^(١)، خير من أن تترج بالجيوش المنهكة وبالإمبراطورية لخوض معارك مخففة لاسيما وأنها كانت في حروب مستمرة من ناحية الشرق مع المسلمين، وقد استمرت هذه الهدنة لمدة عشر سنوات ٧٩٧-٨٠٧م على أنها ليست المرة الأولى، أو كانت هي الإمبراطور الوحيد الذي قبل بدفع الجزية مقابل سلام شعبه، وأمنه، فقد سلفها إلى ذلك العديد منهم، ومن بين أسرتها كان مؤسس الأسرة ليون الثالث الذي سلف وأن دفع إلى البلغار أموالاً طائلة ليكونوا حلفاءه ضد العرب المسلمين.

لقد ظل البلغار متيقظين للغزوات أو للهجمات البيزنطية وكانوا كلما زادت رعونة الإمبراطور قسطنطين السادس، وزاد ضعفه وضعف جيشه، وانهزامه أمام قواتهم كلما طلبوا زيادة الإتاوة.

على أنه من الناحية الاقتصادية أدوا دوراً مهماً من ناحية الوساطة لاسيما خلال هذه الحقبة من حكم الأسرة الأيسورية، إذ بكونهم كانوا يمثلون الدانوب فقد أقاموا علاقات تجارية مع بيزنطة تنظمها المعاهدات بينهما، كما استقر البعض منهم بالعاصمة وذلك وفق قواعد ثابتة، إذ كانت أعمالهم التجارية مزدهرة لاسيما في أسواق سالونيك^(٢)

(١) العريني: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٤٣.

(٢) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، تر: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، عام ١٩٨٥ ص ٩٨.

٢- السلاف - الصقالبة Slovenes:

أ- وصف السلاف وبداية ظهورهم على مسرح الأحداث البيزنطية:

يرجع السلاف - الصقالبة في أصلهم إلى الجنس الآري Aryeny، أو الهند - أوري Indo-European^(١). وهم أجناس مختلفة فبعضهم يدين بالنصرانية، والآخر لا كتاب له ولا شريعة^(٢)، وقد استمروا يتوسعون حتى القرن العاشر توسعاً مطرداً في أوربا نحو الغرب والجنوب، وإن ظل مستواهم الحضاري موسوماً بالضعف؛ إذ إنهم لمّا عجزوا عن التقدم في اصطدامهم بحضارات أخرى أكثر رقياً، وكل ما كان يحدث لهم في هذه الحالة هو أن يتحولوا إلى أقنان أو أتباع للعناصر الأرقى التي يحتكون بها، وذلك بحكم ما هو معروف عنهم من جنوح للمسالمة وعدم المقدرة من الناحية السياسية، إذ كانوا عناصر بشرية غير منظمة تقتقر إلى الوحدة، ولم يكن لها أي تنظيم سياسي، وكان لا يزال في إمكان الإدارة البيزنطية أن تستوعبهم في الكيان الإمبراطوري، بعكس البلغار الذين طوروا نظامهم السياسي والعسكري قبل عبورهم الدانوب وكانوا دائماً مشكلة تواجه الإدارة الإمبراطورية^(٣).

ولم يلبث أن طرأ تغيير ملحوظ على طبيعتهم فتحولوا تدريجياً إلى شعب محارب، وأسسوا دولاً تزعمها بعض القادة، كما أنهم تشربوا بعض الحضارات المجاورة واعتنقوا المسيحية^(٤). غدا السلافيون في القرن السادس ثلاثة شعوب رئيسة منفصلة عن بعضها بعضاً وهذه الشعوب هي: السلافيون الغربيون: وهم البولنديون والتشيكيون والمورافيون، والسلاف الجنوبيون: وهم الصرب والكروات، والسلاف الشرقيون: وهم الروس الذين تفرعوا فيما بعد إلى أهل روسيا العظمى وروسيا الصغرى (أوكرانيا)، وأهل روسيا البيضاء.

وقد وصفهم البيزنطيون وعلى رأسهم بروكوبيوس Procopius بأنهم شعوب قليلة الحضارة يعيشون على ما يزرعونه وبصطادونه غير أنهم كانوا مقاتلين ماهرين، بعد ذلك أخذ السلاف يتوجهون نحو الرعي ويغيرون على أجزاء من الإمبراطورية البيزنطية، مكتفين في البداية بما حصلوا عليه عن طريق السلب ومن غارات يعودون بعدها إلى ما وراء نهر الدانوب، غير

(١) عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص ٦٣١.

(٢) عبد العزيز: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٦٩.

(٣) عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ص ٦٣١.

أن هذه القبائل أخذت تستقر في شبه جزيرة البلقان بصفة نهائية مستغلة غياب الجيوش البيزنطية في الجهات الأخرى^(١).

فقد استقر السلاف في البلقان وتملكوا أراضيهم وأقصوا النفوذ البيزنطي عنه في أثناء حكم الأسرة الهرقلية، وقاموا بعدة غارات على مدينة سالونيك ووصلت تهديداتهم حتى أسوار القسطنطينية، فصالحهم هرقل ودفع الجزية إليهم؛ بسبب انشغاله في الحروب الفارسية^(٢)، غير أنهم عادوا مرة ثانية إلى أسوار العاصمة، لكن مناعة أسوار المدينة واستبسال الأسطول البيزنطي أديا إلى هزيمة قوات السلاف البحرية والبرية وقُتلت أعداد كبيرة منهم فانسحبوا انسحاباً متعجلاً، مما أدى إلى مزيد من الخسائر في المعدات والأرواح^(٣).

أسس السلاف مملكة خاصة بهم في الدانوب تحت زعامة شخص سلافي يدعى سامو Samo عام ٦١٤م.

بدأت القوات البيزنطية تقوي من ضرباتها نحوهم، وذلك في أثناء حكم قسطنطين الثاني فقد أجبرهم على الخضوع إلى السيادة البيزنطية، وأرغمهم على دفع جزية سنوية للإمبراطورية^(٤). أدى انتهاج سياسة جديدة في عهد جستنيان الثاني وقيامه بحملة موفقة ضدهم إلى نقل أعداد كبيرة من السلاف، وعمل على إسكانهم في منطقة الدردنيل ليكونوا خطاً دفاعياً أمام هجمات المسلمين الدائمة^(٥).

وقد عمل الإمبراطور قسطنطين الخامس على الاستفادة من هؤلاء السلاف بأن قام بضمهم إلى داخل الأقاليم البيزنطية وقام باستخدامهم في مجال استصلاح الأراضي الزراعية، وكذلك في القيام بأعمال الري، كما أسكن أعداداً كبيرة من المهاجرين السلاف، نتيجة الضغط البلغاري على البلقان في بيشينا Bithynia حيث كانت تسكن جالية سلافية كبيرة من قبل، فأدت هذه السياسة إلى تقوية العنصر السلافي في منطقة آسيا الصغرى^(٦).

(١) Vasiliev: Op. Cit. P.140.

(٢) عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٧٤-٧٥.

(٣) العريني، الدولة البيزنطية، ص ١١٧.

(٤) عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨١.

(٥) العريني: الدولة البيزنطية، ص ١٥٩.

(٦) العدوي، قوانين الإصلاح الزراعي، ص ١٥٢-١٥٤.

ب- جهود الإمبراطورة إيرين للتخلص من المشكلات السلافية:

أخذ السلاف بعد ذلك في لَمَّ شتاتهم وعادوا إلى مسرح الأحداث مرة أخرى، ويشير قسطنطين السابع بورفروجينيتوس^(١) إلى أن البيلوبونيز غلبت عليها في منتصف القرن الثامن الصفة الصقلبية وطغت عليها الهمجية.

انتشرت في عهد الإمبراطور ليون الرابع في عام ١٧٢هـ / ٧٨٨م هذه القبائل في البلقان بصورة واضحة، لا يمكن تجاهلها، وإن كانت الإمبراطورية البيزنطية هي نفسها من ساعد من قبل على ذلك الانتشار بصورة غير مباشرة، وذلك عندما قام الأباطرة بإسكانهم في داخل أقاليم الإمبراطورية، وما إن وصل ليون الرابع إلى العرش حتى أضحى عليه أن يدفع ثمن سياسة أسلافه، ويقف في وجه هجمات هذه القبائل، لكن مدة حكم الإمبراطور ليون القصيرة لم يكن لها التأثير الكافي، عندما أصبح السلاف بمختلف فروعهم مصدر قلق للإمبراطورية البيزنطية في العصور اللاحقة^(٢)، وبوفاته المبكرة جعل الحمل ثقيلاً على الإمبراطورة إيرين، إذ ترك لها هذه المشكلة الآخذة في الازدياد، وكان عليها أن تدفع ذلك الثمن، وهي الإدارية والسياسية الفذة.

أصبح للقبائل السلافية الآخذة في الازدياد والانتشار الكلمة الأولى والأخيرة في البلقان، وشبه جزيرة البيلوبونيز، وذلك في منتصف القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي، وأخذوا يعملون على إثارة المتاعب للإمبراطورية البيزنطية لدرجة أنهم قاموا بالعمل على تأليب المنازعات الداخلية، وذلك عندما قاموا بثورة في بداية عهد الإمبراطورة إيرين مناصرين بها أخوة زوجها، إذ تزعمتها قبيلة سلافية تدعى فلزتي Velzeti بقيادة ثائر يدعى أكامير Acamer لكن الإمبراطورة بيقظتها الدائمة علمت بتفاصيلها وقامت بإخمادها، وإنزال العقوبة ضد هؤلاء الثائرين^(٣).

وهكذا استطاعت الإمبراطورة إيرين التخلص من هذه الثورة وقائدها، وعلى الرغم من ذلك ثارت قبائل السلاف على إيرين في عام ١٦٧هـ / ٧٨٣م، وأخذت هذه الثورة الجارفة في الازدياد، فأمرت الإمبراطورة بسحب بعض من قواتها المتمركزة في آسيا الصغرى لإخماد هذه الثورة

^(١) بورفروجينيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٥-١٨٦.

^(٢) رستم: الروم، ص ٢٩٦. جوبسون: انتشار الشعوب الصقلبية، ص ٥٢٩-٥٣٤-٥٣٦.

^(٣) Theophanes: Op. Cit. P.679. Finlay: Op. Cit. P.83.

التي اجتاحت مقدونيا كافة وبلاد اليونان ثم البيلوبونيز، وبالفعل تمكنت هذه القوات، وكانت تحت قيادة المستشار ستوراكيوس من تحقيق النصر الحاسم عليهم^(١)، وأسفرت هذه الحملة على إجبار القبائل السلافية على الاعتراف بالسيادة البيزنطية التي نادراً ما قاموا بالاعتراف بها، كما أسفرت هذه الحرب عن دفع ضريبة أو جزية سنوية للإمبراطورية البيزنطية، وقد بلغ من عظمة هذا النصر أن تم الاحتفال به بالقسطنطينية احتفالاً عظيماً عند دخول جيوش القيادة البيزنطية، وقد عادت هذه القوات بأعداد كبيرة من الأسرى، وكان معظم هؤلاء الأسرى من الأقاليم المحيطة بسالونيك واستخدمت الإمبراطورة إيرين هؤلاء الأسرى استخداماً حكيماً، وذلك عن طريق إقحامهم في السلك العسكري أما كجنود أو كجواسيس، أو يبيعهم في الأسواق كعبيد^(٢).

كررت الإمبراطورة إيرين هذه المحاولة التأديبية لقبائل السلاف في العام التالي ١٦٨هـ/٧٨٤م إذ أرسلت إليهم قواتها وعلى رأسهم ابنها قسطنطين السادس مستهدفة إنهاء قوتهم نهائياً من البلقان، وتأكيداً على إدارتها الفذة، وكذلك العمل على التفرغ للشؤون الداخلية^(٣)، وتعدّ هذه هي المرة الأولى التي توافرت فيها للإمبراطورية البيزنطية فرصة فرض سيادتها على قبائل السلاف واعترافهم بالسيادة البيزنطية عليهم، فبعد ذلك لم تقم هذه القبائل بأية تجاوزات على حدود بيزنطة، وذلك حتى نهاية حكم الأسرة الايسورية^(٤).

ثار السلاف مرة أخرى على بعض الأملاك البيزنطية في اليونان على مدينة ماتراس عام ٨٠٥م أي في أثناء حكم نقفور مغتصب العرش، لكنه سرعان ما استطاع قمع ثورتهم وفرض عليهم الاسترقاق، مما أدى إلى فقدانهم استقلالهم وحريتهم بعد أن مضى على سيطرة السلاف الصقالبة على جنوب بلاد اليونان ما يزيد عن قرنين من الزمن، ومع ذلك فإن العنصر السلافي ظل أثره باقياً في تلك الأقاليم ما بقيت الإمبراطورية البيزنطية شأنهم في ذلك شأن قبائل الخزر^(٥).

^(١) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ١٠٤.

^(٢) Vasiliev: Op. Cit. P.317. Oman. Op. Cit. PP.114-127.

^(٣) فرج، وسام عبد العزيز: دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ٩١-٩٢.

^(٤) Fainly: Op. Cit. PP. 81-83.

^(٥) Ostrogorski: Op. Cit. PP.170-171.

ويُنظر أيضاً: سانت موس: ميلاد العصور الوسطى: ص ٢٩٢-٢٩٧.

٣-قبائل الخزر:

أ- أصل الخزر وإقامتهم:

لا تقدم المصادر التاريخية القرائن الوثيقة عن أصل الخزر، وعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين العرب والبيزنطيين يعدونهم شعباً تركياً^(١) غير أن أصل الخزر غير معروف بصورة دقيقة^(٢).

ويمكن الإفادة من حديث ابن فضال عن الخزر في هذا السياق، إذ يصفهم بأنهم أمة خزرية وأنهم يتسمون باسم النهر الذي يجري إلى الخزر من الروس وبلغاريا (إتل)ATL، وكذلك عاصمتهم، وتتألف مملكتهم من قطعتين، واحدة غربي النهر (إتل) وهي الأكبر، وواحدة شرقي النهر، ومسكن الملك في القطعة الغربية، ويتحدث ابن فضال عن بيوتهم المبنية من الطين، وقصر الملك المبني من الآجر، وهو بعيد عن ضفة النهر، ويُلاحظ أن البناء الوحيد بحجر الآجر هو قصر الملك، ويصف ابن فضال هيئة أبناء الخزر، ويجعلهم في صنفين: صنف بلون السمرة يضرب إلى السواد وكأنهم صنف من الهند، وصنف بلون البياض يغلب عليه سمات الحسن، ومنه الرقيق، ويسمى ملكهم خاقان، ومن الطقوس الملكية أن الملك لا يظهر إلا مرة واحدة في مدة زمنية قوامها أربعة أشهر، ويظهر متنزهاً، وينعت بخاقان الكبير، وله خمس وعشرون زوجة، يحق له البقاء في الحكم مدة لا تزيد عن أربعين عاماً فإذا تجاوزها قطع رأسه^(٣).

ويذكر الاصطخري^(٤) أن لأمة الخزر سبعة قضاة في دار الملك، اثنان فيها للمسلمين واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة، واثنان منهما لمن بها من النصارى يحكمان بحكم الإنجيل، وواحد منهم للصقالبة والروس يحكم بحكم الجاهلية، وغالب قوتهم السمك والأرز، وبلغت قوتهم مداها إلى حد نسب إليهم بحر قزوين فيقال "بحر الخزر" كما أدوا دوراً مهماً في الصراع السياسي في تلك الحقبة بين العلاقات البيزنطية الإسلامية^(٥).

(١) الخزر: عرف الخزر طبيياً بأنه انقلاب في الحديقة نحو اللحاظ وهو أقبح الحال. دنلوب. د. م: تاريخ يهود الخزر، تر: أ. د. سهيل زكار، دمشق، ٢٠١٠م، ص ٢٢. وينظر أيضاً الحموي: مصدر سالف، ٣٦٧/٢.

(٢) المغربي: مصدر سالف، ٢٥٨/٢.

(٣) رسالة ابن فضال في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، ص ١٦٦-١٧٠.

(٤) المسالك والممالك، ص ٢٢٤. الحموي، ٢٣٨/٢-٢٤٠.

(٥) ابن فضال، رسالة ابن فضال، ص ١٦٩. الشيخ، محمد مرسى: الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الرابع، الرياض، ١٩٨٠م، ص ٢٥٠-٢٥٤.

ترجع البدايات الأولى للخزر بوصفهم أمة لها شأنها في التاريخ إلى القرن السادس الميلادي، حين تمكنوا من إنشاء دولتهم التي عرفت بدولة الخزر وذلك جنوب روسيا، أو المنطقة التي تعرف بمنطقة السهوب.

وقد بدأ أول احتكاك ما بين مملكة الخزر والإمبراطورية البيزنطية في الوقت الذي حاقت فيه الأخطار بالعاصمة، فقد كان الإمبراطور هرقل يربط بجيشه في لازيقا بعيداً عن مسرح الأحداث، حيث أجرى المفاوضات لإقامة تحالف مع الخزر ضد الدولة الفارسية، ومنذ ذلك الوقت أضحى التفاهم بين البيزنطيين والخزر من أهم خصائص الدبلوماسية البيزنطية في الشرق، فقد قدموا أجلّ الخدمات للإمبراطورية البيزنطية عندما قاموا بمحاربة الفرس على أرض القوقاز وأرمينيا^(١).

ب- علاقات الخزر السياسية والاقتصادية بالإمبراطورية البيزنطية:

أخذت العلاقات البيزنطية الخزرية شكلاً واضحاً في نهاية القرن السابع الميلادي، وذلك عند هروب الإمبراطور جستنيان الثاني من منفاه في جزيرة خرسون لاجئاً إلى مملكة الخزر، فقد رحبت به واستقبله الخاقان بمظاهر التكريم والتشريف، وزوجه من أخته التي اعتنقت المسيحية وأطلق عليها اسم ثيودورا^(٢).

عند سماع الإمبراطور البيزنطي تيباريوس الثالث أرسل إلى خاقان الخزر سفارة بيزنطية يطلب فيها منه إبعاد الإمبراطور المعزول، ووعده بجائزة قيمة إذ سلم إليه جستنيان الثاني حياً أو ميتاً، فأعد خاقان الخزر العدة لذلك مدعياً مساعدة جستنيان الثاني لاستعادة عرشه، غير أن زوجه ثيودورا علمت بخبر هذه الخطة فأعلمته بها فقام بإرسالها إلى أخيها الخاقان بينما اتخذ هو طريقه إلى خرسون في قارب من قوارب الصيد وقام بعقد حلف مع البلغار ساعده بموجبه على استعادة عرشه، وفي أواخر عام ٧١٠م حدثت ثورة عارمة في خرسون لقيت تأييداً كبيراً من قبائل الخزر تمخضت عن مقتل جستنيان الثاني وابنه وعين بدلاً منه الإمبراطور فيليببيكوس^(٣).

^(١) Vasiliev: Op.Cit. P.252.

^(٢) دنلوب د. م.: تاريخ يهود الخزر، ترجمة سهيل زكار، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٩٨.

^(٣) الحيدري، صلاح هادي، دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، منشورات جامعة البصري، البصري، عام ١٩٨٦م، ص ٣١٢-٣١٣.

بلغت قوة الخزر شأنًا كبيراً حتى إنهم قاموا بفرض سيطرتهم على الشعوب والقبائل المتاخمة لمملكتهم لاسيما قبائل البلغار الذين اعترفوا بسيادتهم وقاموا بالنزوح شمالاً من نهر الدانوب وذلك خلال القرن الثامن والتاسع الميلاديين، كما أنهم استطاعوا بسبب كون أرضهم هي الطريق الثاني للتجارة مع بيزنطة، وبسبب سيطرتهم على ميناء خرسون وشبه جزيرة القرم - أن يكونوا تجاراً مع أوروبا والدولة العباسية عبر بيزنطة، وبلغت قوتهم مداها عندما فرض خاقان الخزر على التجارة المارة من أوروبا إلى بيزنطة العشر^(١).

وكانت أهم تجارتهم تجارة الفراء والرقيق وسائر المنتجات الروسية التي خضعت لإشرافهم^(٢)، فهم يعدون بحق أهم مورد لرقيق الصقالبة حيث كانوا يعتدون عليهم فيسيرون بالسبايا ويبيعونهم لبيزنطة مقابل حصولهم على الديباج الرومي وسائر سلع بيزنطة، فقد ظلت دولة الخزر في نظامها الاقتصادي تعتمد على تجارة المرور بين موقع بلادهم التجاري وعاصمتهم أثل Atli، فضلاً عن الزئبق، والرصاص، والشمع، والعسل، والوبر، والسمور التي أمدت به بيزنطة، لاسيما في أثناء عهد الأسرة الأيسورية^(٣).

عمل الخزر بوصفهم وسطاء تجاريين بين بيزنطة وروسيا وممتلكاتها، وذلك لاستقرارهم على مضيق خرسون ونقلهم للبضائع البيزنطية إلى هناك^(٤).

في عهد الإمبراطور ليون الثالث استعان بقبائل الخزر ودخل معهم في تحالفات وعهود وقاموا بمساعدته عند حصار المسلمين للقسطنطينية، بأن ضربوا أملاك المسلمين في القوقاز وأرمينيا، مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى إرسال حملة ضدهم بقيادة القائد حاتم بن النعمان، الذي تمكن من هزيمتهم وأسر بعضهم^(٥).

(١) المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد (ت: ٥٦٨٣/١٢٨٤م)، كتاب الجغرافيا، تح: إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٢٥٨-٢٥٩. ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي (ت: ٩٠٠هـ/٩٠٠م)، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، د، ت، ص ٣٣٦-٣٣٢.

Bury: Op. Cit. P.414.

(٢) الدوري، عبد العزيز: الجغرافيون العرب وروسيا، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالث عشر، بغداد، ١٩٦٦م، ص ١١-١٢.

(٣) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت: ٩٠٣هـ/٩٠٣م)، الأعلام النفيسة، مطابع بريل، ليدن، ١٨٩١م، ص ١٤٢-١٤٣. ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص ٣٣٢. زيفريد هونكه، شمس العرب تستطع على الغرب، تر: فاروق بيضون، ط ٩، دار الأفاق، د، م، ١٩٩١م، ص ١٢.

(٤) العريني: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٩١-٢٩٢.

(٥) د، م، تاريخ يهود الخزر، تر: أ. د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٩٠م، ص ٩٨-٩٩.

كما أدت قبائل الخزر دوراً مهماً في معركة أكرينون حيث لاحق الخزر القوات الإسلامية في كاوكاسوس، غير أن المسلمين تمكنوا من إلحاق هزيمة بهم عام ٧٢٤م في منطقة تسمى اللان وعقدت معاهدة بينهما اتفق الخزر فيها بدفع جزية للمسلمين^(١)، وبذلك استطاع الإمبراطور ليون وكذلك قسطنطين من نقل الصراع مع المسلمين من آسيا الصغرى إلى مناطق أخرى. وطد الإمبراطور ليون الثالث علاقته بالخزر عن طريق رباط المصاهرة الذي كلل به تحالفاته مع الخزر، وذلك بأن قام بتزويج ابنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر التي اعتنقت المسيحية وتلقبت باسم إيرين، حيث أخذ الخزر يقطعون ثمار هذه المصاهرة وتجلى ذلك بحصولهم على تأييد الإمبراطورية البيزنطية^(٢).

ظهر خطر الخزر من جديد في عام ٧٦٣م ليشنت تركيز القوات الإسلامية ضد عدوتها التقليدية بيزنطة، فقد تمكن قائدهم إسترخان الخوارزمي من تهديد منطقة أرمينيا وعاث فساداً في نهب الأراضي وأسر عدداً كبيراً من المسلمين، فأرسل الخليفة حملة كبيرة تحت قيادة القائد جبريل بن يحيى ومعه حرب بن عبد الله وكان مقيماً على الموصل لمواجهة هذا الخطر، ونظراً لضخامة جيش الخزر انهزم العباسيون وقتلت أعداد كبيرة من المسلمين كان من بينهم قائدهم حرب بن عبد الله، لكن الخليفة العباسي كرر المحاولة جاعلاً قواته تحت قيادة حميد بن قحطبة فتخوف الخزر من جيش المسلمين فأثروا التراجع عن مواقعهم^(٣).

غير أن تهديداتهم للمسلمين لم تتوقف في عام ٧٧٥م مما دفع الخليفة العباسي إرسال القائد يزيد ابن أسيد السلمي إلى بحر الخزر لإخماد تمردهم في أرمينيا^(٤).

تعرضت الحدود الإسلامية في أرمينيا للهجوم الخزري في عام ٧٨٧م وأسروا أعداداً كبيرة من المسلمين حيث كان خطرهم في تلك الآونة هادئاً، ثم أخذ يأخذ أسلوب

غارات صغيرة، غير أن الخليفة هارون استطاع صدها عن طريق سد الطرق الرئيسية أمام قوات الخزر^(٥).

(١) الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣٧٠.

(٢) الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٣) عبد العزيز، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية، ص ٢٣١.

عثمان الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ص ١٠٣-١٠٧.

(٤) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، حوادث عام ١٥٨هـ، ٤٦/٨.

(٥) الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٣٧٢.

وكانت من ملامح سياسة الإمبراطورة إيرين السديدة أن تعمل على إثارة حفيظة الخزر عن طريق عيونها ضد الدولة العباسية لتشغلهم عنها ولتتفرغ لشؤونها الداخلية، ففي عام ٧٩٨م تعرضت الحدود الإسلامية في أرمينيا إلى هجوم خزري جارف^(١) كبدوا فيه القوات الإسلامية خسائر فادحة، الأمر الذي أزعج الخليفة هارون فاستعد لغزوهم، وذلك بعدما قام بتوقيع الصلح مع الإمبراطورة إيرين عام ٧٩٩م^(٢).

دفعت قوة مملكة الخزر المتفاقمة إلى أن تكون مصدر تهديد يهدد الحدود البيزنطية في عهد الإمبراطورة إيرين، غير أنها انتصرت على الخزر، ونجحت حملتها العسكرية في التصدي للخطر الخزري، وكان نجاحها حاسماً بدليل أن القبائل الخزرية لم تقم بأي نشاط يذكر ضد الإمبراطورية البيزنطية حتى في أيام الأسرة العمورية^(٣).

وعلى الرغم من ذلك فقد قدمت مملكة الخزر خدمات جليلة للإمبراطورية البيزنطية ضد أعدائها سواء في المجال السياسي أم الاقتصادي، غير أن الأمر لم يكن ليخلو من وجود بعض المناوشات التي استطاعت السياسة الحكيمة إخمادها في مهدها.

٤- علاقة الإمبراطورية البيزنطية بالبابوية:

أ- الزعامة الروحية لكنيسة روما:

عند الحديث عن العلاقات البيزنطية بالبابوية يعني ذلك سير الأحداث الطارئة والمهمة في إيطاليا -مقر البابوية- ليس فقط زمن الإمبراطورة إيرين وإنما الأحداث المتعاقبة المتوالية منذ زمن، لفهم العلاقات البيزنطية البابوية وما وصلت إليه حتى عهد الإمبراطورة إيرين. فقد سابر الحظ البابوية ولمع نجمها إذ ساعدها ظهور نور الإسلام الذي اكتسح بطريركات الشرق كأنطاكية وأورشليم والإسكندرية، على زيادة في قدر أسقفية روما بالنسبة عند الغرب الأوربي والشرق البيزنطي على السواء حيث كانت هذه الأسقفية الملجأ الأمين الذي يجد فيه الناس خلاصهم^(٤).

(١) الطبري: تاريخ الرسل (حوادث عام ١٨٢-١٨٣هـ) ٤٧١/٦-٤٧٢. ابن الأثير: الكامل (حوادث عام ١٨٢-١٨٣هـ) ١٦٢/٦-١٦٣.

(٢) عثمان الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، ص ٢٧٤.

(٣) صبرة، الإمبراطوريتان، ص ٣٥٨.

(٤) اليوسف، عبد القادر أحمد: العصور الوسطى الأوروبية (٤٧٦-١٥٠٠م)، بيروت ١٩٦٧م، ص ٥٨-٦٠.

ففي القرن الخامس الميلادي ظهر أول بابا جاشت في مخيلته فكرة الزعامة الروحية العالمية التي يجب أن تكون لروما والذي طالب بأن تدين جميع كنائس الغرب لكرسيه بالطاعة والولاء وهو البابا ليو العظيم (٤٤٠-٤٦١م) الذي أكد بأن سلطة روما هي سلطة أبدية^(١)، حيث اعترف بها كل من الإمبراطور فالتيان الثالث (٣٦٤-٣٧٨م وجستنيان الأول على أساس الاعتراف بالسيادة لكنيسة روما وأصدرا أوامرها إلى ما عداها من الكنائس للاتحاد معهما، ومن ثم ظهر تقليد آخر يرجع تاريخه إلى ذلك الحين وكان له أثره في زيادة سلطة أسقف روما على سائر الكنائس الغربية ذلك هو منحه الباليوم Pallium وهو وشاح أرقط مصنوع من صوف حمل أبيض يُتخذ رمزاً للرئاسة الدينية وكان الحصول عليه هو الغاية التي ليست بعدها غاية، واعترافاً بالتبعية والخضوع^(٢).

في نهاية القرن السادس الميلادي ولي أمر البابوية رجلاً عمل على تدعيم السلطة البابوية وهو البابا جريجوري الأول (٥٩٠-٦٠٤م) الذي حظي بالإجماع على أنه جدير بلقبى القديس والعظيم والذي يجب أن يعد بحق أباً لبابوية العصور الوسطى.

فكما كان البابا جريجوري أول راهب يرقى إلى مركز البابوية فقد كان أيضاً أول بابا يولي وجهه شطر الشعوب الغربية لايجاد التوازن بينها وبين الشعوب الشرقية فقد عرف عنه الطهر وسرعة انتهازه الفرص بجانب حكمته الإدارية التي تمثلت في إكساب كرسيه سلطة روحية واسعة النطاق فاعترفت له بلاد الغال و بلاد الليبرية وإسبانيا وإفريقية بالسيادة عليها، كما اعترفت له إيطاليا أيضاً بالزعامة الدنيوية والروحية^(٣)، وكانت إيطاليا في ذلك الوقت مكتسحة من الغزاة اللمبارديين فقد قضى سيل البربرية على الإمبراطورية الرومانية الغربية واكتسحها أمامه ولكنه عبثاً حاول أن يزحزح صخرة القديس بطرس^(٤) من مكانها^(٥).

لقد كان أساقفة روما حتى ذلك الحين تابعين من الناحية النظرية إلى مدينة القسطنطينية، وحتى جريجوري الأول نفسه أظهر الاحترام لفوكاس والخنوع لموريس، وكان خلفاؤه يُعينون

(١) العريني: تاريخ أوروبا، ص ١٨١-١٨٢.

(٢) جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية، ٣١٧/٢.

(٣) كانتور: التاريخ الوسيط، ٢٢٧/١-٢٣١.

(٤) عمل خلفاء القديس بطرس على أن يحلوا محل الأباطرة في روما (قلعة البابوية)، ولعل نشأة البابوية بها بالذات يرجع إلى ما تمتعت به هذه المدينة من صفة مقدسة لأنها مدينة القديس بطرس التي أسس بها كنيسة، كما أنه كان أول تلامذة السيد المسيح الذي أمره بقوله (أنت بطرس -أي صخرة- وعلى هذه الصخرة ابن كنيسة). صبرة، عفاف: تاريخ الكنيسة، تر: القس مرقس، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٢١٩.

(٥) كانتور، التاريخ الوسيط، ص ٢٣١.

من الإمبراطور أو نائبه في القسم الغربي - وهو حاكم رافنا - وكذلك يعزلون^(١). ولكن الأحوال التي كانت سائدة في القرن الثامن هيأت للباباوات في روما سبيل الخلاص من البقية الباقية لتلك التبعية التي كانت تربطهم بمدينة القسطنطينية حيث تهيأت هذه الفرصة في سنة ٧٢٦م؛ وذلك أثر النزاع الذي قام حول استخدام الصور والتماثيل، فكان الإمبراطور ليون الثالث شديداً وعنيفاً في تنفيذ ما قصد إليه، وذلك نظراً لعدم توافقه مع عقلية العصر الذي أريد فرضه عليه، إذ رأينا أن هذه الحالة من امتلاك الصور والأيقونات قد ظهرت بظهور المسيحية^(٢).

ب- شرح العلاقة البابوية البيزنطية:

حاول ليون الثالث أن يظفر بتأييد البابا في حركته إلا أنه لم يلق سوى الرفض، وعلى الرغم من أن البابا جريجوري الثاني لم يستجب لرأي ليون فإنه حرص على تجنب الشقاق بين بيزنطة وروما، وحاول أن يخمد ما ساد بإيطاليا من روح الكراهية لشخص الإمبراطور، وذلك يرجع إلى حاجة البابوية للدعم الإمبراطوري ضد الخطر اللومباردي^(٣).

لم يستطع ليون الثالث تنفيذ سياسته الدينية في إيطاليا لبعدها عن مقر الحكم البيزنطي، حيث كان لهذه السياسة أثر بالغ الخطورة في العلاقات بين بيزنطة وروما، ذلك أن البابا جريجوري الثالث ١١٣-١٢٣هـ/ ٧٣١-٧٤١م الذي خلف جريجوري الثاني على البابوية عقد في روما مجمعاً أنكر فيه سياسة بيزنطة اللاأيقونية وعدّ اللاأيقونيين خارجين عن الكنيسة^(٤). أمر ليون الثالث باعتقال الممثل البابوي في القسطنطينية، وبذلك أخفق كل من الإمبراطور والبابا في حمل كل منهما الآخر على التحول عن مذهبه ورأيه، ولم يلبث الشقاق السياسي أن تلا الخلاف الديني، إذ اتسعت الهوة بين القسطنطينية وروما بما حدث من انهيار مكانة الدولة البيزنطية في إيطاليا، فقد انفصل عنها وسط إيطاليا وصار خاضعاً إلى سلطة البابا وازداد ارتباطه بغرب أوروبا، أما الإمبراطور ليون فقد قام باتخاذ تدابير مهمة؛ إذ إن الأقاليم

(١) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ١/ ٣٢٩. رستم: حرب في الكنائس، ص ٢٠-٢١-٢٣.

(٣) سرهنك، إسماعيل الأميرالي (غير معروف تاريخ الوفات): حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية ببولاق،

القاهرة، ١٣١٤هـ، ص ١٤١. Vasiliev: Op. Cit. P259.

(٤) عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ص ١١٢-١١٣.

المصبوغة بالصبغة اليونانية كجنوب إيطاليا "كالابريا" وصقلية وإيليريا^(١)، التي كانت خاضعة حتى ذلك الحين لدوقية روما انفصلت عنها وأضحت خاضعة لسلطان بطيركية القسطنطينية، وأصر ليون على تنفيذ سياسته الكنسية في تلك الجهات حيث فرض الجزية على سكان صقلية وكالابريا، وما كان يحصل عليه البابا من أملاكه البابوية في جنوب إيطاليا من خراج سنوي صار من حق الدولة البيزنطية، ولم تجد نفعاً للاحتجاجات المتوالية من البابا ضد هذه الإجراءات التعسفية، فأصبحت الحدود الجديدة بين سلطة كل من كنيسة القسطنطينية وروما تطابق الحدود التاريخية بين الشرق والغرب، فدخل في ولاية بطيركية القسطنطينية شبه جزيرة البلقان وجنوب إيطاليا، حيث سادت الصفة اليونانية وزادت هذه البطيركية مكانة وثروة^(٢).

هكذا أصبح لبطيركية القسطنطينية الولاية والسلطان على كل ما يخضع إلى سلطان الدولة البيزنطية من أقاليم، وعلى الرغم من خضوع البابا من الناحية النظرية للإمبراطور البيزنطي إلا أنه أخذ يعمل على الخروج والانسحاب من دائرة النفوذ الإمبراطوري. أما أهم نتيجة سياسية ترتبت على النضال اللاأيقوني فقد تمثلت في انسحاب روما من الشرق اليوناني في حين خرجت بيزنطة من الغرب اللاتيني، وبذلك انهارت فكرة الوحدة التي تمسكت بها كل من الإمبراطورية البيزنطية والبابوية^(٣).

كان لهذه الحوادث الإمبراطورية البابوية نتائج فائقة الخطورة وذلك أن ليوثيراند ٧١٢-٧٤٣م ملك اللومبارد قد وجد في هذا النزاع فرصة مزدوجة للكسب والمغانم، فقام أولاً بدور المدافع عن عقيدة الشعب، وأغار تحت هذا الستار على مقر حكومة الإمبراطورية في رافنا ثم عاد ثانية مدعياً بأنه يمثل لأمر مولاه إمبراطور القسطنطينية وكاد أن يستولي على مدينة روما، مما شجع البابا جريجوري الثالث على الالتجاء إلى الفرنجة يطلب حمايتهم عام ٧٣٩م^(٤).

(١) جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ص ٣٦٧-٣٧١.

(٢) Ostrogorski: Op. Cit. P.147.

(٣) Vasiliev: Op. Cit. P.260.

وينظر: لودفيغ، إميل: البحر المتوسط، تر: عادل زعيتير، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٤) Manyo, C: Byzantine Architecture New York, 1976, PP.201-202.

وينظر: هليستر، سز ورن: أوربة في العصور الوسطى، تر: محمد فتى الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، بور سعيد، ١٩٨٨م، ص ١١٧.

ج- دور الفرنجة في تأزم العلاقات البابوية البيزنطية:

لقد برهن الفرنجة على أنهم أعوان صادقون لروما والبابوية، وجاءت الحوادث بعد ذلك لتزيد من حماسهم فكان أن أحرز شارل مارتنل "المطرقة" ١٠١-١٢٣هـ/٧١٩-٧٤١م نصره المبين على المسلمين عام ٧٣٢م في معركة بواتيه ليبرهن على أنه حامي المسيحية ونصيرها الأعظم، وليس من شك في أن الفرنجة يوم أن أجبروا موجة الفتح الإسلامي على الارتداد عن أوربا الغربية، عملوا على تغيير مجرى التاريخ وحوادثه، من هذا اتجه جريجوري الثالث إلى شارل طالباً معونته داعياً إياه أن يكمل انتصاراته من أجل العقيدة المسيحية بتخليص الكرسي المقدس، لكن المنية كانت قد عاجلت شارل كما أنه كان قد تحالف مع اللومبارديين ضد مسلمي الأندلس قبل أن يلبي دعوة البابا^(١).

على أية حال فإن ما أحرزه الإمبراطور قسطنطين الخامس من انتصارات على الأطراف الشرقية والشمالية جعله لا يحافظ على السلطان الإمبراطوري في إيطاليا وانهار معه ما يرتبط بالإمبراطورية الرومانية من فكرة العالمية "أي إمبراطورية متحدة" فازداد التوتر بين روما والقسطنطينية، وكان معروفاً أن البابوية أدركت أهمية مساعدة الدولة البيزنطية لها في مقاومة ضغط اللومبارديين، وأن عليها أن تتغاضى عما حدث من توتر العلاقات بينهما^(٢).

لكنه حدث ما لم يكن متوقعا؛ إذ إنه في سنة ١٣٤هـ/٧٥١م سقطت رافنا في أيدي اللومبارديين وبذلك اختفت أرخونية رافنا التي أقامها البيزنطيون، وانتهى تبعاً لذلك الحكم البيزنطي في شمال إيطاليا ووسطها، ولم يعد في استطاعة البابا اللجوء إلى طلب المساعدة البيزنطية، إذ اشتدت غارات اللومبارديين الذين هم تحت زعامة ملكهم أستولف ٧٤٩-٧٥٦م الذي استأنف الحرب ضد البابوية والبيزنطيين ولصد هذا الخطر فقد قرر البابا زكريا ٧٤١-٧٥٢م التحالف مع البيزنطيين حيث هم أفضل من غيرهم لحماية الممتلكات الإمبراطورية في إيطاليا لكن هذا الحلف لم يكتب له النجاح إذ هزمت قوات اللومبارديين الذين استمروا في زحفهم على مدن إيطاليا فاستولوا على بنفنتو ومنها هددوا أمن روما^(٣).

(١) نادر، البير نصري: تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٢٣-

١٢٥. العريني: أوروبا، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) Vasiliev: Op. Cit. P.165. Ostrogorski: Op. Cit. P.154.

(٣) أبو العينين، سمير عبد المنعم: العلاقات الدولية في العصور الوسطى، ط ٣، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٣١.

ثم توفي البابا زكريا وخلفه البابا ستيفن الثالث ٧٥٢-٧٥٧م الذي تعرض للضغط الشديد من الملك اللومباردي أستولف، إذ طلب الأخير من البابا الاعتراف بسيادة اللومبارديين عليه، ولم يكن البابا يملك سلاحاً غير السلاح الديني، فأصدر قرار الحرمان الكنسي ضد أستولف، لكن هذا القرار لم يُجد نفعاً فاضطرَّ البابا إلى التحالف مع الفرنجة عام ٧٥٣م^(١)، ورحل إلى مملكة الفرنجة، وتقابل مع الملك ببين القصير Pippin short الذي أقسم له على حمايته وحماية شعب روما وكنيستها، فقام البابا بتتويج ببين ملكاً^(٢) على الفرنجة ليكسبه بذلك صبغة شرعية، فيما عُرف بهبة ببين، وذلك في احتفال مهيب أقيم لهذا الغرض في بونثيون Ponthion ، كما توج زوجه برترادا وولديه شارل وكارلمان ومسحهما بالزيت المقدس، واعترف ببين من جهته بحق البابا في حكم روما ورافنا وأنعم البابا على ببين بلقب البطريرك -وهو لقب يختص به الأوكسراخ البيزنطي في رافنا فقط^(٣) -وبعد نهاية الاحتفالات بالتتويج توجه الملك ببين على رأس حملة كبيرة لتأديب اللومبارديين بفرض عليهم رد رافنا والممتلكات البابوية إلى حالتها الأولى^(٤).

وعلمت بيزنطة بكل هذه الأحداث فحاول الإمبراطور قسطنطين الخامس القضاء على هذا التحالف الخطير بأن بعث بسفرائه إلى البلاط الفرنجي عام ٧٤٤-٧٥٦م، وذلك لإقناعه بفض هذا التحالف مع البابا مقابل دفع الجزية للفرنجة وأن يعيد للبابوية أملاكها، لكن هذه البعثة لم تحقق أهدافها فقد صرح ببين للبعثة بقوله: إنه عندما قام بحملته ضد اللومبارديين لم يكن يعمل لصالح الإمبراطور البيزنطي، بل لصالحه الخاص، وبناءً على دعوة البابا قام قسطنطين الخامس بتوجيه وجهته نحو اللومبارد للقضاء على هذا التحالف وإعادة كل من روما ورافنا إلى سالف عهدهما، فبعث بسفرائه إلى الملك دستريوس عام ٧٥٨م لعقد حلف مضاد لحلف البابوية والفرنجة، وعلى الرغم من ذلك لم يفقد الأمل إذ عاود الاتصال بالملك الفرنجي لعله يعود عن قراراته وذلك عن طريق ربط العائلتين برباط المصاهرة حيث طلبت

(١) حاطوم، نور الدين: تاريخ العصر الوسيط في أوربة (من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر)، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٧م، ٩٤/١-٩٥.

(٢) يوسف، جوزيف نسيم: تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ص ٨٢. س، هليستر، أوربة في العصور الوسطى، تر: فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، بور سعيد، ١٩٨٨م، ص ١١٦.

(٣) كانتور، نورمان، التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية، تر: قاسم عبدة قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢٥٦.

(٤) أبو العيينين، سمير عبد المنعم، العلاقات الدولية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٩م، ص ٣١-٣٢.

هذه السفارة يد الأميرة جيزلا Gisila ابنة بيبين لولي العهد ليون الرابع، لكن هذه السفارة- أيضاً- لم تفلح في مسعاها، وذلك لتمسك بيبين بموقفه مع البابوية إذ كان يعمل على تحريضها ضد بيزنطة، بأن جسد لها اعتداءات بيزنطة والأباطرة ضد ممتلكاتها في إيطاليا وأخذ يصورهم على أنهم هراطقة شرقيون مما سهّل حدوث بوادر الانقسام الذي كان على ابنه أن يكمله^(١).

ثم حدث أن روج البابا في روما عام ١٤٣هـ/ ٧٦٠م إشاعة مفادها أن الإمبراطور البيزنطي قد أرسل أسطوله الحربي لمواجهة البابا، وملك الفرنجة، وكان الغرض من ذلك هو قدوم الملك بيبين إلى إيطاليا مرة أخرى لدفع الخطر اللومباردي، إذ تقرر تسليم رافنا، والبنتابوليس، ودوقيه روما هبة إلى البابا فارتفع سلطان البابوية على حساب الإمبراطورية البيزنطية واتسعت هوة الخلاف بين البابوية وبيزنطة مما مهد الطريق لظهور الإمبراطورية في الغرب فيما بعد.

تضاعفت مخاوف البابوية بزواج شارل بن بيبين من ابنة الملك اللومباردي دستريوس، فلم تنقضي سنوات قليلة على وفاة الملك بيبين حتى لاح في الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والبافاريتين واللومبارد تخضع إلى نفوذ الملكة الأم برترادا ولكن الموقف سرعان ما تغير إذ انفصل شارل عن زوجه اللومباردية عام ٧٧٢م فأرسل الملك دسديريوس^(٢) إلى بابا روما هادريان ٧٧٢-٧٩٥م يطلب منه النظر في موقف شارل من ابنته مطالباً منه أن يعترف شارل بحق ابني أخيه كارلومان في ممتلكات أبيهما، غير أن البابا رفض هذه المطالب، وطالب بالأراضي التي ما زالت في حوزة اللومبارديين، فبادر اللومبارد إلى تهديد رافنا وروما من جديد وراسل هادريان شارل وأرسل مبعوثاً من عنده ليشرح الموقف^(٣). فخرج شارلمان على رأس قواته، وبهذه القوات استطاع شارلمان أن يحقق النصر النهائي على

(١) حاطوم، نور الدين، تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٧م، ص ٩٩.

(٢) دايغز، كلالس: شارلمان، تر: السيد الباز العريني، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٦٦. سانت، لزبز موس ه: ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥-٨١٤م)، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، والسيد الباز العريني، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٤٠-٣٤١. لانجر، وليام: موسوعة تاريخ العالم، تر: محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ٤٢٠-٤٢٢.

(٣) هارديل، ج. م. والاس: أوروبا في صدر العصور الوسطى (٤٠٠-١٠٠٠م)، تر: حياة ناصر الحجي، الكويت، ١٩٧٩م، ص ١٣٩-١٤١.

مملكة اللومبارد لتنتهي مملكتهم على يديه إلى الأبد عام ٧٧٤م حيث دخل ملكهم إلى أحد الأديرة ولقب شارلمان بلقب ملك الفرنجة وملك اللومبارد وبطريق الرومان^(١).

بعد هذه الأحداث قضى شارلمان عيد الفصح في روما حيث تقابل مع البابا هادريان الذي استقبله استقبالا حافلا، ومنحه فيها منحة مشابهة لمنحة أبيه وهي أرخونية رافنا من فيرادوكو ماشيو في الشمال حتى أوسيمو في الجنوب الإيطالي.

وهكذا استطاع شارلمان بعد أن قدم مجهوداً لا يضاهاى أن يحرز انتصارات عدة ضد اللومبارد، والسكسون، والمسلمين في الغرب^(٢)، والبافاريتين، كما عمل على نشر المسيحية بين القبائل المتبريرة كالألمان، والسكسون -وهم فرع من الجرمان الغربيين^(٣)- بحد السيف وأن يسدي خدمات جليلة للبابوية التي رأت فيه المنقذ والمخلص لها^(٤).

د - محاولة الإمبراطورة إيرين إقامة الوفاق الديني بين الكنيستين الشرقية والغربية:

عمل شارلمان منذ توليه ملك الفرنجة على إحياء مجد الإمبراطورية الرومانية المنصرم، فأراد أن يكون هو صاحب السبق في هذا المضمار، وأن يحصل على لقب إمبراطور الرومان، وأن يكون هذا التتويج الإمبراطوري من البابوية صاحب الصفة الشرعية المقدسة، أما البابوية من جهتها فكانت ترغب في إعادة السلطة إلى العالم الروماني الغربي مرة أخرى حتى لا تكون السلطة الدنيوية في يد أباطرة الشرق الذين عجزوا عن مد يد العون لها بدخولهم في حروب الأيقونية التي لا جدوى منها^(٥).

كانت هذه الأحداث قبل مجيء الإمبراطورة إيرين إلى عرش الدولة البيزنطية، إذ بتوليها الوصاية والسلطة في الإمبراطورية البيزنطية قد حاولت بشتى الطرق والسبل ترميم هذا الشرخ في العلاقات البيزنطية البابوية، فكان أول ما قامت به بعدما تم عقد المجمع المسكوني السابع والأخير على يديها أن وجهت إلى البابوية في روما وكانت تحت حكم البابا هادريان الدعوة إلى الحضور والمشاركة في هذا المجمع بل ورئاسته^(٦)، فوصلت هذه

(١) اليوسف: العصور الأوروبية، ص ٩٥.

(٢) Einhard: Op. Cit. P.142.

(٣) الدسوقي، محمد كمال: تاريخ ألمانيا، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ١٣.

(٤) Einhard: Op. Cit. p.142.

(٥) عمران، محمود سعيد: معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٧٧-١٧٨.

(٦) أرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ص ١٧٣.

السفارة إلى البابا في آب عام ١٦٦٩م/٧٨٥م ورد عليها في تشرين الأول بالموافقة، ولكن بإرسال مندوب بابوي لحضور هذا المجمع، حيث اعترف من جانبه بتسميته بالمجمع المسكوني فحقق المجمع أغراض البابا بالدرجة الأولى في ضرورة عودة الصور والأيقونات مرة أخرى بعد طول سنين من النضال مع الأسرة الأيسورية على الرغم من كون الكنيسة الغربية أقل كثيراً في استخدامها للصور والتماثيل من الشرق فقد توقعت البابوية وروما أن ما جرى اتخاذه ضدها من إجراءات في أثناء مرحلة النضال اللاأيقوني سوف يتوقف، سواء أكان ذلك في المجال الديني أم في مجال السياسة الكنسية، فأضحت تأمل أن تعود الأوضاع إلى ما كانت عليه -عودة أملاك البابوية المتمثلة في جنوب إيطاليا والليريا- غير أن الأسرة الأيسورية رفضت أن تستجيب إلى تلك الطلبات، ولم تحدث أية إثارة لهذا الموضوع في مجمع نيقية^(١).

توفي البابا هادريان حليف الفرنجة عام ٧٩٥م وتم انتخاب البابا ليون الثالث حيث أثار انتخابه مخاوف شارلمان من قبول سياسته تجاه الفرنجة، لذلك كتب إليه شارلمان يقول "أيها الأب إنك أنت السيد والأب الملك والقسيس والرئيس المرشد للعالم المسيحي كله" وبدأ يرسم للبابا الخطوط العريضة للسياسة التي يجب أن يتبعها، كما أوضح مدى سلطاته الزمنية والروحية، وكان ذلك عام ١٨٠هـ/٧٩٦م، فأرسل البابا ليون الثالث من جهته إلى شارلمان علم مدينة روما، وبدأ في تأريخ جميع المراسيم البابوية بسنوات حكم شارلمان^(٢).

لم يلبث البابا ليون الثالث مدة في منصبه حتى تعرض لثورة شديدة في إيطاليا ألبت عليه الرأي العام، وتزعم هذه الحركة كل من باسكاليس رئيس الكُتاب، ومولس متولي الخزانة فالأول ابن أخت هادريان، أما الثاني فمن أقربائه، حيث عملوا جميعاً من أجل انتخاب بابا آخر غير ليو الذي أوسع ضرباً حتى شارف على الهلاك، مُتهمين إياه بالسيمنية والزنا، والحنث بالإيمان والتزوير، غير أن البابا ليو تمكن من الهرب قبل أن ينفذ فيه قرار بقطع لسانه وسمل عينيه، لاجئاً إلى حامية ملك الفرنجة حيث عبر جبال

(١) رستم: حرب في الكنائس، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ولز، ه، ج: معالم تاريخ الإنسانية في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى: تر: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا، وعبد الحميد يونس، ط ٢، القاهرة، ١٩٦١م، ٨٤٦/٣-٨٤٧.

الألب وتقابل معه في معسكره بالقرب من مدينة باديبورن بألمانيا، وهناك لقي منه الاستقبال الطيب وتقديم المساعدة له ضد أعدائه.

في هذه الأثناء وصلت رسائل من أعداء البابا في روما إلى بلاط الفرنجة يصرون فيها على الاتهامات الموجهة إليه، فعمل شارلمان على استرضاء البابا، وأصر في ضرورة عودته مرة ثانية إلى روما ليكون الحكم الفصل في هذا النزاع في المدينة المقدسة مقر القديس بطرس(١). وقرر أن يلحق به حتى يعاقب المتآمرين، بعد ذلك اتجه شارلمان إلى البابا في إيطاليا للقيام بتبرئته مما نُسب إليه، حيث استقبله على مشارف روما وطاف بالمدينة وقدم شارلمان الهبات والهدايا إلى شعبها، وبعد أيام عقدت المحكمة في قصر اللاتران -أول قصور البابوية في روما- حيث حضر المتآمرون وبعض من الثوار وكذلك شارلمان والكاهن الأعظم لروما والبابا ليون، وتمت فيها تبرئة البابا بعدما أدى القسم بتبرئة نفسه، فقرر شارلمان قتل المتآمرين، لكن البابا ليو توسط عند شارلمان حتى يبذل قرار القتل بقرار النفي إلى أراضي الفرنجة(٢).

رأى البابا ليون أنه يجب عليه أن يرد بعضاً من الجميل لملك الفرنجة كما أنه أمام حزب قوي في روما، فإذا ما عمل على تنويع شارلمان فإنه بذلك سيأمن على نفسه الأخطار ويتمكن من بسط نفوذه ليس على روما وحدها بل على أنحاء إيطاليا كافة، كما أنه نظر إلى بيزنطة على أنها حليف قديم وبعيد عن سير هذه الأحداث(٣).

وجاءت اللحظة المناسبة للبابا ليون الثالث بعد مرور يومين فقط على محاكمته إذ صادف يوم عيد الميلاد لعام ١٨٤هـ/ ٨٠٠م أن ازدحم المسيحيون الرومان أمام كنيسة القديس بطرس في روما للاحتفال بهذا اليوم الديني المجيد، وبعد أن انتهى البابا من تلاوة القداس ركع شارلمان وولدها بيبين وشارل أمام المذبح عندئذ تقدم إليه البابا ليو حاملاً في يديه التاج الذي وضعه على رأس الملك(٤) قائلاً: إلى شارل أغسطس المتوج

(١) Bury: Op. Cit. PP. 701-703.

(٢) كانتور: مرجع سالف، ص ٢٥٨-٢٦٠.

(٣) هليستر: مرجع سالف، ص ١١٨-١١٩. جيبون: مرجع سالف، ص ٣٨٦-٣٨٨.

(٤) Sodney Paiter: A History of the Middle Ages .P. 45.

من الله الإمبراطور الروماني العظيم المحب للسلام، اللهم هبه الحياة الطويلة والنصر"، فصاح الحاضرون جميعاً بهذا النداء، وهو ما كان متبعاً مع جميع الاباطرة الرومان (١). كانت البابوية تؤمن بفكرة قيام إمبراطورية واحدة ولم يكن في حسابها إقامة إمبراطورية جديدة وإنما أرادت أن تجعل الإمبراطورية التي نشأت حديثاً تحل محل الإمبراطورية البيزنطية، إذ أصبح من المسلم به في الغرب أن عرش القسطنطينية يعد شاغراً بعد عزل الإمبراطور الشرعي قسطنطين السادس الذي سملت عيناه عام ١٨١هـ/٧٩٧م وتسلمت إيرين مقاليد الحكم (٢).

أخذ شارلمان يزهو بنفسه إذ أعدّ نفسه إمبراطوراً ليس فقط على مملكة الفرنجة ولكن إمبراطوراً للرومان ويعد نفسه خليفة لقسطنطين السادس الذي أقصي من العرش (٣). لم ينظر البيزنطيون إلى حادث التتويج هذا إلا كونه محاولة صبيانية لإحداث الانشقاق بين البابوية وبيزنطة، وعلى أنه محاولة للثورة على الحكومة الشرعية في القسطنطينية، إذ ربما يقدم على غزو القسطنطينية وعندها سيستولي على التاج بالقوة، وعمل الرغم من ذلك فإن البيزنطيين رفضوا نهائياً الاعتراف بالتتويج (٤) وثاروا ثورة كبيرة على هذا الوضع، لاسيما لكون أصله من البرابرة مما لا يليق بهذا المنصب، بجانب أنه ليس له شرعية لتولي الإمبراطورية البيزنطية (٥).

هـ- التمثيل الدبلوماسي البيزنطي البابوي الفرنجي:

كان شارلمان يعلم جيداً أن توليه المنصب الجديد -إمبراطور الرومان- لن تكون له صفة شرعية إلا باعتراف رسمي من الإمبراطورية البيزنطية، ولعله سيلغي السبب الذي بنى عليه البابا وشارلمان معارضة لحكم امرأة للإمبراطورية البيزنطية، لاسيما إذا حدثت ثورة أسقطتها فتحتهم المشكلة وتزداد سوءاً، ولا يتمكن من فرض سلطانه الإمبراطوري على العالم الروماني، لذلك أخذ يعمل على إيجاد وسيلة يستطيع فيها الحصول على الاعتراف بتتويجه إمبراطوراً من

(١) هارتمان، وباركلاف: الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، تر: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص ١٨٣.. Bury: Op. Cit. P.703.

(٢) Ostrogorsky: Op. Cit. P.156.

(٣) الجنزوري: المرأة، ص ١١٠-١١١.

(٤) عائشة أبو الجدايل: مرجع سالف، ص ٦٢-٦٣.

(٥) زيتون، عادل: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دمشق، ١٩٨٠م، ص ٣٢٨.

الإمبراطورة إيرين نفسها، لذلك اتفق كلٌّ من البابا ليو الثالث وشارلمان على ضرورة التقرب من الإمبراطورة إيرين، بأن أرسل لها بعثة سياسية وذلك من أجل الحصول منها على الموافقة على زواجها من شارلمان وذلك الزواج يجمع شطري العالم الغربي والشرقي في يديه ويصبح رسمياً إمبراطوراً على العالم الروماني بأسره^(١).

قابلت الإمبراطورة إيرين هذه السفارة بحفاوة بالغة، إذ كانت في عام ٨٠٢م، حيث أبقت السفارة في القسطنطينية مدة من الوقت^(٢)، وذلك راجع للتدخل المستشار أيتيوس وإلى عادات وأعراف تتعلق بالدبلوماسية البيزنطية، ولكن حدث أن صادف ذلك إقصاء الإمبراطورة إيرين عن العرش في العام نفسه^(٣).

على أن هذه السفارة لم تكن الوحيدة بين الإمبراطورية البيزنطية ومملكة الفرنجة، إذ سبقتها سفارات عدة كان من بينها السفارة التي بعث بها الإمبراطور قسطنطين الخامس إلى بيبين وكانت واحدة منها من أجل عدم الدخول مع البابوية في وفاق، والثاني من أجل المصاهرة، أما في عهد إيرين فقد مر بنا أن الدبلوماسية البيزنطية في عهدها لم تتوقف، وأنه كان من بين هذه السفارات تلك السفارة التي أرسلتها لإسطنبول يد الأميرة ابنة شارلمان لابنها قسطنطين السادس، ثم السفارة الثانية لتعليمها أصول التقاليد والعادات في البلاط البيزنطي ثم السفارة التي بعث بها شارلمان إلى إيرين مبيناً رغبته في أن تكون إمبراطوريته وثيقة الصلة في التجارة مع الإمبراطورية البيزنطية؛ إذ إنه رأى كيف أن بيزنطة تسيطر على التجارة العالمية، فضلاً عن السفارة التي كانت من قسطنطين السادس وذلك فيما يختص بالعقيدة.

رفض نقفور بعد إبعاد الإمبراطورة إيرين عن العرش الدخول في مفاوضات مع شارلمان، ومنع البطريرك نقفور من أن يرسل للبابا في روما قرارات المجمع على ما جرت به العادة، وأظهر العداء الصريح لشارلمان والبابوية التي تشد أزره ودخل في حروب خاسرة مع شارلمان بعدما فرض عليه هذا الأخير تسليم البندقية والسواحل الدالماشية ونابلي وكالابريا وصقلية مقابل الحصول على اعتراف رسمي من بيزنطة به كإمبراطور^(٤).

(١) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٨. Vasiliev: Op. Cit. P267.

(٢) عبيد، إسحق، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، تقديم، جورج شحاته قناتني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م، ص ٢١٦.

(٣) رستم، الروم، ص ٣١٢-٣١٣.

(٤) دايفز، كلاس: شارلمان، تر: السد الباز العريني، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٩م، ص ١٨٧.

فقام شارلمان بالاستيلاء على أستريا وبعض المدن الواقعة على ساحل دالماشيا والبندقية وبذلك توافر لديه من الوسائل ما تمكنه من أن يحصل من الدولة البيزنطية على ما يريد من الامتيازات^(١).

أما ميخائيل الأول فمن جهته كان على استعداد للاعتراف باللقب الإمبراطوري الذي اتخذه شارلمان لنفسه مقابل استعادة جانب من الأملاك البيزنطية التي فقدتها بيزنطة فقد بعث عام ٨١٢م أحد السفراء معترفين له على قرار الإمبراطور البيزنطي باعترافه بشارلمان إمبراطوراً Basileus، ومنذ هذا التاريخ أصبح يوجد إمبراطوريتان من الناحيتين الواقعية والنظرية^(٢)، إذ لم يكن شارلمان حتى ذلك التاريخ معترفاً به إلا على أنه مجرد إمبراطور لا إمبراطور الرومان، ويرى الأباطرة البيزنطيون أنهم وحدهم أصحاب الحق في هذا اللقب، وأشاروا في وضوح إلى الفرق بين إمبراطور الغرب وبين إمبراطور الرومان في القسطنطينية، على أن الصلة والارتباط بروما يعتبر من أهم مقومات فكرة الإمبراطورية في العصور الوسطى، وعدت الدولة البيزنطية نفسها دائماً الإمبراطورية الرومانية على الرغم من أن اللقب الإمبراطوري لم يُفصح عن ذلك قبل القرن التاسع للميلاد^(٣).

أما الإمبراطورية فقد ارتبطت بروما عن طريق البابوية على أن قيام إمبراطورية أخرى والاعتراف بها يعدّ تحدياً لما للإمبراطورية البيزنطية من الحق في التراث الروماني على أن ما أصاب الإمبراطورية الكارولنجية من التفكك والانقسام وما حدث من نهوض بيزنطة وانتعاشها، هياً لأباطرة الدولة البيزنطية الفرصة لأن يغفلوا ما جرى في سنة ٨١٢م من الاعتراف بالإمبراطورية الغربية^(٤).

(١) دايغز: شارلمان، ص ١٨٦.

(٢) ساليغان، ريتشارد أ: ورثة الإمبراطورية الرومانية "الغرب الجرمانى- العالم الإسلامى- الدولة البيزنطية"، تر: جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص ١١٨-١١٩.

(٣) العريني: أوروبا، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) دايغز: شارلمان، ص ١٨٦-١٨٧. Ostrogorsky: Op. Cit. P.176.

الفصل الخامس

الصراع بين إيرين وقسطنطين السادس على الحكم.

- ١- بلوغ قسطنطين السن القانونية واستمرار إيرين بالوصاية.
- ٢- سياسة الإمبراطور قسطنطين السادس ونتائجها.
- ٣- نشوب الثورات والاضطرابات في بند أرمينيا.
- ٤- تفرد الإمبراطورة إيرين بالعرش البيزنطي.

١- بلوغ قسطنطين السن القانونية واستمرار إيرين بالوصاية:

على الرغم من كل ما حققته إيرين من نجاحات وافرة؛ غير أن طريقها مازال محفوفاً بالمخاطر والعراقيل؛ إذ إن الصعاب ظلت السمة التي تلازم تحركاتها، فقسطنطين كان قد شب عن الطوق، ولم يعد صبيّاً قاصراً، فقد بلغ السابعة عشرة من عمره، وبات قادراً على تسلم زمام الحكم، في وقت لم تبدِ إيرين أية إشارة إلى إمكانية الابتعاد عن السلطة لصالح ولدها. وحتى ذلك الحين راحت إيرين تتعامل مع ولدها، وكأنه طفل صغير، فقد أخذت الإمبراطورة إيرين تبحث عن عروس جديدة لابنها وفق رغبتها، وتيسر لها ذلك عندما اصطفت العرائس من أنحاء العالم كافة، وذلك طبقاً للنظام الذي كان معمولاً به في البلاط البيزنطي ليختار منها العريس عروسه المقبلة، فقام كلٌّ من البطريك فيلارتيس Vellartes وكذلك المستشار البيزنطي أوستراكايوس باختيار العروس المناسبة للإمبراطور المرتقب، فوقع اختيارهما على فتاة من بند بافلاجونيا Paphlagonian بآسيا الصغرى^(١).

فقد كان والدها رجلاً تقيّاً عرف بتقواه وسمعته الطيبة، لذا طلبت الإمبراطورة إيرين منه الموافقة على تزويجها لابنها وكانت إحدى بناته الثلاث وتدعى ماري الأرمنية Maria of Amnia^(٢)، فقد كانت جميلة وذكية ومخلصة، فضلاً عن كون أصولها من عائلة متواضعة وتبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، وفي نوفمبر من عام ٧٨٨م تمت إجراءات الزواج، إذ كان الإمبراطور قسطنطين قد بلغ الثامنة عشر أيضاً غير أنه لم يكن راضياً عن هذا الزواج نهائياً^(٣)، الأمر الذي أثر في حياته السياسية والدينية والاجتماعية في الإمبراطورية البيزنطية فعاش معها في جو ينتقي منه الوفاء، والوفاق.

وعندما بلغ الإمبراطور قسطنطين السادس عام ٧٩٠م الواحدة والعشرين من عمره أراد تولي مهام منصبه غير أنه وجد نفسه مجرداً من أنواع السلطات كافة، فتملكه الغضب بعدما وجد أن المستشار أوستراكايوس والوزير أيتيوس قد سيطرا على مقاليد الأمور في داخل القصر الإمبراطوري وخارجة وكانا مقصداً لأي شخص يبغى طلباً أو حاجة عند الإمبراطورة إيرين، ولا

(١) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(٢) Joseph, MC: Cape, The Empresses of Constantinople, London, 1913. P.92.

ينظر أيضاً: العربي، الدولة البيزنطية، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٣) Diah: Op. Cit. PP.80-81.

يجرؤ أحد بسببهما على زيارته أو حتى السؤال عنه^(١)، لذلك أخذ يعمل بجد على تدبير مؤامرة من أجل التخلص منهما وإبعاد الإمبراطورة إيرين أيضاً عن سدة الحكم بنفيهما إلى جزيرة صقلية، وقد سنحت له الفرصة، لذلك عندما حدثت بعض القلاقل والاضطرابات من عناصر الجيش التي أخذت تطالب بتنصيب الإمبراطور قسطنطين السادس إمبراطوراً منفرداً، انتهز قسطنطين الفرصة وبدأ المواجهة مع أمه ومستشارها ووزيرها، لكن الإمبراطورة تمكنت من تهدئة الأوضاع وأخمدت سعي هذه التمردات وعملت على تحديد إقامة ابنها، كما طلبت من الجيش أن يقسم لها يمين الولاء، معترفاً بها كحاكمة أولى على الإمبراطورية البيزنطية^(٢)، وأرسلت مبعوثاً منها إلى هذه العناصر المتمردة ليوحي إليهم بتسليم أسلحتهم وبهذه الطريقة تجاوب معها جنود العاصمة والأقاليم^(٣)، والبنود الأوروبية وأقسموا على ولائهم لها دون تردد^(٤).

وهكذا أنهت الإمبراطورة إيرين بمهارة وحكمة حركة التمرد تلك باتخاذ الإجراءات الرادعة ضدهم بأن قامت بنفي المتمردين إلى الجنوب وبالتحديد إلى جزيرة صقلية، ووضعت بيتر Peter الذي كان يشغل منصب Magisters تحت الإقامة الجبرية فضلاً عن صديقه البطريرك ثيودور Theodor^(٥).

كذلك أقسمت جميع الفرق والبنود للإمبراطورة إيرين يمين الولاء وعدم اعترافهم بابنها كإمبراطور ما دامت على قيد الحياة، غير أن فرق أو بند أرمينيا رفضت أن تكون السلطة في يد امرأة، أو أن يستمدوا أوامرهم من امرأة فضلاً عن كونهم لا يزالون على ولائهم للسياسة الأيقونية^(٦). لذلك نجد أنهم قد عارضوا الإمبراطورة إيرين في المجالات السياسية كافة، وكذلك الدينية، مما دفع الإمبراطورة إلى كسب ودهم وإرضائهم بأسبل جميعها، فقد أرسلت إليهم أحد خصيانها وهو الكسيس موسيلي Alexius Mosele وقد كان هذا الخصي يشغل وظيفة قائد العيون والطلائع بالقسطنطينية^(٧)، غير أن أهل البند بأرمينيا استمالوه إلى جانبهم ونصبوه عليهم قائداً عوضاً عن قائدهم الأصلي نفقور، منادين بقسطنطين السادس إمبراطوراً منفرداً على الإمبراطورية

(١) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٣.

(٢) Theophanes: Op. Cit. P.457.

(٣) Ostrogorowski: Op. Cit. P.160.

(٤) Ibid: P.160.

(٥) Ibid: P.160.

(٦) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٤.

(٧) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥١-٢٥٢.

البيزنطية^(١)، وقد حذا حذوهم جنود بعض البنود الأخرى لاسيما في آسيا الصغرى، وتمكن رجال الجيش من محاصرة البلاط البيزنطي فخشيت الإمبراطورة إيرين من تأزم الموقف، وخافت من أن تتفق جميع البنود ضدها، لذلك عملت بحكمة سياسية واضحة، إذ قامت بإخراج الإمبراطور قسطنطين السادس إلى قواد الجيش الذين أملوا شروطهم على الإمبراطورة ومستشاريها وألقوا القبض على كل من أستوراكيوس وأيتيوس، ومارسوا عليهما أنواعاً من التعذيب، ثم قاموا بنفيهما إلى جزيرة صقلية^(٢).

ولم تجد الإمبراطورة إيرين أمامها سوى الإذعان للأمر الواقع إذ تنازلت عن العرش البيزنطي لابنها قسطنطين السادس حفاظاً على حياتها وحياة مستشاريها^(٣).

وفضلت الإمبراطورة إيرين الابتعاد عن هذه الضوضاء والبلاط الإمبراطوري ملتجئة إلى قصرها الذي شيدته لنفسها، وهو قصر الأليوثيريان Eleutheria، ويتنازل الإمبراطورة إيرين عن العرش في ديسمبر من عام ٧٩٠م تولى الإمبراطور قسطنطين السادس مهام منصبه بوصفه إمبراطوراً على الإمبراطورية البيزنطية^(٤).

٢- سياسة الإمبراطور قسطنطين السادس ونتائجها:

تتجلى قوة الشعور بالولاء للبيت المالك في التاريخ البيزنطي في الثورة التي عمت العاصمة القسطنطينية، وبنود آسيا الصغرى التي حرضت على المنادة باسم الإمبراطور قسطنطين السادس إمبراطوراً منفرداً على عرش الدولة البيزنطية، وذلك في عام ٧٩٠م، فقد استعان قسطنطين السادس بمن بقي من القادة القدامى كمستشارين ووزراء له، وكان من بينهم القائد ميخائيل لاخاندوراكون الذي رفعه الإمبراطور قسطنطين السادس إلى منصب كبير في الإمبراطورية البيزنطية، إذ بقي هذا القائد على ولائه وإخلاصه للإمبراطور الأسبق قسطنطين الخامس لاسيما فيما يخص سياسته الدينية ووضع القائد الكسيس موسيلي بطريقاً على البند الأرمني^(٥)، وبعد هذه الإجراءات التي قام بها الإمبراطور قسطنطين السادس تجاه هذين القائدين استطاع أن يهدئ من الأوضاع داخل الإمبراطورية البيزنطية ومن ثم بدأ ينظر إلى خارج الحدود

(١) الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ٢٩-٣٠.

(٢) الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ٢٩-٣٠. ينظر أيضاً: Ostrogorowski: Op. Cit. P.160.

(٣) Ibid: P.160.

(٤) Dihl: Op. Cit. P.77.

(٥) Theophanes: Op. Cit. P.967.

البيزنطية حيث كانت الأخطار آخذة في الازدياد، وتراءى له ضرورة أن يوضح مدى سلطته وقوته في معارك طاحنة ضد أعداء الإمبراطورية البيزنطية ليقفوا على مدى قوته وجبروته إذ أمر بإعداد حملة ضخمة عام ٧٩١م لفرق حربية توجه بها صوب عمورية^(١) قاصداً غزو طرسوس^(٢).

وبالفعل وصلت جيوشه الجراراة تلك حتى صحراء ليكونيا بآسيا الصغرى غير أنه لم يحقق أي نجاح يذكر؛ إذ إنه بعد وصوله إلى صحراء ليكونيا عاد أدراجه في أكتوبر من العام نفسه وذلك راجع إلى قلة المياه وافتقاره إلى الكفاءة وحسن الإدارة والمقدرة على الاستمرار في تسيير دفة الحكم^(٣).

وخرج الإمبراطور قسطنطين السادس للمرة الثانية على رأس جيشه ولكنه هذه المرة لم يكن متوجهاً إلى المناطق السالفة بل إلى الجهات البلقانية نحو قبائل البلغار قاصداً تأديبها بعد أن أصبحت قوة لا يستهان بها "وليته كان قائداً شجاعاً حتى تغطي شجاعته على تراجعها إنما كان نعامة في الحروب"، وذلك عندما تقدم لمواجهة البلغار فولى هارباً من هذه المعركة التي حدثت عند حصن ماركيليا Maricla عند الحدود البيزنطية البلغارية^(٤).

تاركاً كبار القواد يقعون في الأسر، الأمر الذي حقق للبلغار نصراً سهلاً على الإمبراطورية البيزنطية ومُهيناً كبريائها حيث أجبر البلغار الإمبراطور على دفع إتاوة سنوية مثلما كانت تدفعها الإمبراطورية للمسلمين، وكانت مطالبة البلغار بزيادة الإتاوة التي تدفعها الإمبراطورية البيزنطية تتناسق وتتناغم مع مواقف قسطنطين السادس المتسمة بالطيش والرعونة، وافتقاد بعض النظر، ولعل صفاته هذه تسببت بمزيد من النكبات والهزائم منيت بها الإمبراطورية البيزنطية، ومما أنهك الجيش بصفة خاصة المعارك التي فرضها الإمبراطور بصورة متتالية، وعلى جهات عديدة، وهذا أدى -أيضاً- إلى تشتت جيشه وإن توافرت له القيادة المحنكة الخبيرة، إذ اعتمد على قادة متمرسين في شؤون القيادة مثل: الكسيس موسيلي، والقائد ميخائيل لاختانودراكون الذي قتل في المعركة، مما جعل خسارة الجيش فادحة بسبب ما عرف به من الشجاعة والإقدام، وكان إجبار

(١) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٣.

(٢) طرسوس: مدينة بنود (ثغور) الشام، بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. ياقوت الحموي: مصدر سابق، ٢٨/٤.

(٣) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٣.

(٤) ابن ناصر: الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١١١. حول هجوم قبائل البلغار على بند تراقيا: ينظر الخريطة التوضيحية رقم ٧.

الإمبراطورية بسبب هزيمتها العسكرية دفع جزية سبباً من أسباب تردي أوضاع الإمبراطورية البيزنطية وعلامة من علامات ضعفها وتراجعها^(١)

هذا فضلاً عن التهديدات العربية الإسلامية التي كانت آخذة في الازدياد متمثلة فيما يُعرف بالصوائف والشواتي^(٢) متخذين طريقين أحدهما بحرياً والآخر برياً عام ٧٩٢م^(٣).

لقد شهد عام ٧٨٧م هجرة مجموعات كبيرة من الأرمن من أراضي الدولة العباسية إلى أراضي بيزنطة^(٤) حيث استقبلهم الإمبراطور قسطنطين السادس على رأس بعثة أرسلتها الإمبراطورة إيرين في أثناء حقبة وصايتها على ابنها، غير أن الإمبراطور قسطنطين السادس لم ينجح في منح هؤلاء الأرمن الأمان والاستقرار^(٥)، ولم يعمل على توفير المناخ المناسب لإقامتهم ليكونوا شوكة وحائط أمان أمام الإمبراطورية البيزنطية من هجمات أعدائها المستمرة لاسيما ضد الخلافة العباسية، أو اتخاذ الإمبراطور قسطنطين السادس سياسة تحريضية نحو بعض الدول والممالك المسببة للاضطرابات والقلق في الإمبراطورية البيزنطية، فوصلت الإساءة إليهم إلى أقصاها عندما قرر قسطنطين السادس عام ٧٩٤م نقل أعداد كبيرة منهم بالقوة إلى جزيرة صقلية، الأمر الذي أثار حفيظتهم وأدى إلى تحول مشاعرهم نحو المسلمين^(٦) لأنهم معروفون بتحالفهم مع الطرف الأقوى وأنهم متقلبون وغير مستقرين على وتيرة واحدة في سياستهم، لذلك فقد كان لحقبة ازدهار القوة العسكرية العباسية وتحول ميزان القوة لصالح الخلافة العباسية في تلك الآونة أكبر الأثر في تحول تأييد الأرمن عن البيزنطيين إلى المسلمين^(٧)، فعمل الأرمن على مساعدة القوات

(١) Theophanes: Op. Cit. P. 940.

(٢) تعريف الصوائف والشواتي: هي الحملات العسكرية الصيفية التي تخرج في أشهر محددة تبدأ في شهر أيار وتنتهي في شهر أيلول من كل عام، أما الشواتي فيقصد بها الحملات العسكرية التي كانت تبدأ في أواخر شهر فبراير وتنتهي في بداية شهر آذار من كل عام. بن جعفر، نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة، ص ٢٥٩. حول تطور واتساع الدولة الإسلامية خاصة العباسية ينظر: الخريطة رقم ٣.

(٣) البعقوبي، تاريخ البعقوبي، ١٦١/٣.

(٤) كان سبب هجرة هؤلاء الأرمن بأعداد ضخمة هو ازدياد الضرائب أو الجزية التي كانت قد فرضت عليهم من الوالي العباسي يزيد بن يزيد بن زائدة، غير أن الخليفة هارون الرشيد تنبه إلى ذلك فقام بعزله عن أرمينية، واستعمل عليها أخاه عبيد الله بن المهدي وفرض هارون الرشيد على أهل السواد العشر الذي كان يؤخذ منهم بعد النصف. الطبري: المصدر السالف، حوادث عام ١٦٣هـ، ٤٤٨/٦. ابن الأثير: المصدر السالف، حوادث عام ١٧٢هـ، ١١٨/٦.

(٥) عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٤٨/٢.

(٦) فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ٣٤٨/٢.

(٧) إسكندر، فايز نجيب: أرمينيا بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص ٢٠.

العباسية ضد الجيش البيزنطي انتقاماً منهم وسلموا إليهم مدينة كمخ^(١)، ولم يتمكن الإمبراطور قسطنطين السادس من تحقيق النصر عليهم لذلك آثر الرجوع إلى العاصمة ناجياً بحياته^(٢).

٣- نشوب الثورات والاضطرابات في بند أرمينيا:

حفزت الحقائق المتجلية أمام ناظري الإمبراطور قسطنطين السادس من اضطرابات، وأحوال متدنية، وتراجع إداري، وسياسي، واقتصادي، وافتقاد الخبرة والكفاءة على العمل من أجل إعادة الإمبراطورية إيرين إلى البلاط الإمبراطوري للاستعانة بمشورتها ونصحها وكان ذلك في عام ٧٩٢م، وقام بالإفراج عن المستشار أوستوراكيوس والوزير أيتيوس والصفح عنهما، ووجه أوامره إلى شعب الإمبراطورية بأن يهتفوا له ولأمه بعبارة العمر المديد لقسطنطين وإيرين.

رحبت غالبية البنود بهذه الخطوة التي خطاها الإمبراطور قسطنطين السادس، غير أن بند أرمينيا لم يرق له ذلك فعمت الاضطرابات في أرمينيا من جديد؛ إذ نادى سكان البند وجنوده بعدم الموافقة على عودة الإمبراطورية إيرين، وكذلك قسطنطين السادس إلى الحكم فضلاً عن احتجاجهم على رجوع كل من أوستوراكيوس وأيتيوس إلى وظيفتيهما منادين بقائدهم الكسيس موسيلي إمبراطوراً^(٣).

فشبت الثورة في بند أرمينيا وبلغ من شأنها أن أعد الإمبراطور قسطنطين نفسه وجيوشه لمواجهة هذا التمرد واستطاع أن يلقي القبض على القائد الكبير موسيلي، حيث أذاقه صنوف العذاب ثم قام بسمل عينيه الأمر الذي أثار السخط العام ضده في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية كافة^(٤).

وعلى الرغم مما حل بقائد البند من عقاب غير أن الثورة استمرت نحو نصف عام من تشرين الثاني إلى أيار ١٧٧هـ/ ٧٩٣م وعمت أرجاء آسيا الصغرى، مما دعا الإمبراطور قسطنطين السادس إلى التصدي لها والقضاء عليها بالسبل كافة، فقد جمعت غالبية الفرق والبنود العسكرية، وبدأت في المفاوضات والتشاور بشأن المناداة بالقيصر نفقور، عم الإمبراطور قسطنطين السادس إمبراطوراً على العرش البيزنطي، غير أن هذه المحاولة كُشفت، ورأت الإمبراطورية إيرين ضرورة أن يأخذ الإمبراطور الإجراءات الرادعة ضد أعمامه حتى لا يعودوا إلى

(١) مدينة كمخ: وهي عبارة عن قلعة عظيمة تقع على نهر الفرات. اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن وهب، الكاتب المعروف بابن واضح الأخباري: كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٠م.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ١/ ٢٢٠.

(٣) Theophanes: Op. Cit. P. 673.

(٤) Ibid: P.675.

مضمار الحكم، فقرر قسطنطين السادس سمل عيني عمه نففور، أما بقية أعمامه الآخرين فكان عقابهم قطع ألسنتهم ليكونوا عبرة لمن تسول له نفسه المساس بالعرش أو الإمبراطور بسوء^(١). وبذلك تخلص قسطنطين السادس من حكام يعدون شرعيين، إذ ما تمت تحيته وإقصاؤه عن العرش، وبذلك تخلص من أي منافس له في الحكم سواء من عائلته أم من قادته الأكفيا، وقد ظن أنه استطاع القضاء على محاولات التمرد التي كانت سائدة ضده عن طريق نفي قادة التمرد إلى جزر عديدة كان من بينها جزيرة صقلية، وتعيين أحد أصدقائه استراتيجوس على البند الأرمني، فيضع حداً لانقلابات الجند وأهالي البند وهو البطريك تيودور^(٢)، وذلك عام ١٧٧هـ/٧٩٣م، لكن الثورة اشتعلت من جديد وبلغت أقصى مداها عندما قام أهل البند بسجن الاستراتيجوس تيودور، وذلك انتقاماً لقائدهم الأسبق الكسيس موسيلي، وبقي هذا البند في غليان مستمر^(٣).

بدأ الإمبراطور قسطنطين السادس العمل من أجل القضاء على هذه الثورات التي زعزت أوضاع الإمبراطورية فهذه تفكيره بعد أخذ مشورة المستشار أستوراكيوس إبالقيام بسمل عيني البطريك أثيوكيوس Athexios قائد الثورة لأنه إذا لم يقبل بهذا العقاب، سيتم انتخابه إمبراطوراً من الجند، لاسيما وأنه أضحى جنزلاً منذ مدة قصيرة، كما أنه مرشح جنود بند الأرميناك لمنصب الإمبراطور، وعندما علم الجند بذلك قاموا بحبس الاستراتيجوس البطريق تيودور عندئذ أرسل الإمبراطور قسطنطين السادس^(٤) قائد بند البوكلار Bukelari على رأس حملة كبيرة لإخماد ثورة بند الأرميناك، غير أن رجال البند تغلبوا عليهم، وذبح نتيجة ذلك عدد كبير من الجند من الطرفين فضلاً عن أن رجال البند ألقوا القبض على قادة هذه الحملة وسملوا أعينهم^(٥). وفي يوم عيد الفصح Easter من عام ٧٩٤م أعد الإمبراطور قسطنطين السادس حملة لمهاجمة بند الأرميناك وضمت هذه الحملة جميع الجند والرجال من أنحاء البنود الأخرى، وبهذا الجيش استطاع الإمبراطور أخيراً القضاء على هذه الثورة وتحقيق النصر الحاسم على ثغر الأرميناك، وألقى القبض على الشخصيات القيادية في البند وقتلهم، وجعل الباقي عرضة للغرامة ومصادرة

(١) Ostrogorski: Op. Cit. P.162.

(٢) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٥.

(٣) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٥.

(٤) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٦.

(٥) Ostrogorski: Op. Cit. P.160-161-162.

الأموال وأحضرهم إلى القسطنطينية وقام بترسيم وجوههم بالحبر الأسود، وبعد ذلك نفاهم إلى جزيرة صقلية وباقي الجزر الأخرى^(١).

وبتلك الإجراءات غير الحكيمة استطاع الإمبراطور قسطنطين السادس القضاء على هذه التمردات والاضطرابات التي قضت مضجعه كثيراً وأخذ الشك يساوره في المقربين إليه كافة، وبصفة خاصة قواده، فأدى به الأمر إلى التخلص من العديد منهم بإعدامهم بقسوة لدرجة أنهم لقبوه بلقب "الطاغية"^(٢)، ويعقب المؤرخ أستروجورسكي Ostrogorowski على هذه الأعمال بقوله "أن التعاطف الذي كان يتمتع به الإمبراطور قسطنطين السادس في ذلك الأقليم -يقصد بالإقليم بند أرمينيا- انقلب إلى عدااء مرير"^(٣).

٤- الإطاحة بـقسطنطين السادس وتفرد الإمبراطورة إيرين بالعرش البيزنطي:

منذ الوهلة الأولى كانت الأمور تسير على غير هدى ما بين الإمبراطور قسطنطين السادس وبين زوجه ماري الأمينية فلم يكن لديه أدنى شعور نحوها^(٤)، وأخذ يشك في إخلاصها، وذلك لإحساسه بأنها فُرِضت عليه فرضاً، وعلى الرغم من ذلك فقد شاعت الأقدار أن يقع قسطنطين السادس في حبال إحدى الوصيفات وتُدعى ثيودوت Theodot وكانت مطلقة واشتهرت بالجمال، وأخذت علاقتهما بالتطور، ففي عام ٧٩٥م قام الإمبراطور قسطنطين السادس بتطبيق زوجه ماري التي أنجبت له ابنتين^(٥) هما إيفيروسين Euphrosyne ويعني اسمها البهجة^(٦)، وكذلك إيرين Irene ويعني اسمها السلام وقد توفيت ابنته إيرين بعد مدة قصيرة من ولادتها، أما الأخت الثانية وهي إيفيروسين فقد كتب لها أن تعيش في القصر الإمبراطوري وقدر لها أن تحمل لقب إمبراطورة بعد مرور ثلاثين عاماً، وذلك عندما تزوجت من الإمبراطور ميخائيل الثاني العموري -مؤسس الأسرة العمورية^(٧).

(١) Ibid: P.160-161-162.

(٢) Dehil: Op. Cit. P.90.- Joseph Gape: Op. Cit. P.99.

(٣) Ostrogorowski: Op. Cit. P.180.

(٤) Joseph: Op. Cit. P.93.

(٥) Ibid: P.93.

(٦) ننع، سهير محمد إبراهيم: دور المرأة في مصر البيزنطية، أبحاث مؤتمر دور المرأة السياسي والحضاري عبر العصور، تنظيم مركز البحوث والدراسات التاريخية بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة القاهرة، تحرير محمود عرفة، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٧٩.

(٧) ابن ناصر: الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٩٧.

وفيما يتعلق بالأم ماريا فقد قامت بارتداء الملابس السوداء وحلقت شعرها متجهة إلى سلك الرهينة والديرية معتزلة الحياة في البلاط البيزنطي بل وفي مجالات الحياة كافة مفضلة سلك الرهينة والدين، لاسيما بعدما اختلق زوجها الإمبراطور قسطنطين السادس قصة من تلك القصص الوهمية التي عاشت وشاعت في الحياة البيزنطية بأنها أرادت التخلص منه بدس السم له^(١).

تزوج الإمبراطور قسطنطين من الوصيصة على الرغم من الكنيسة، معارضا قوانينها وتشريعاتها، فكان موقف الكنيسة الرفض، وإعلان بطلان عقد الزواج، بوصف الزوجة مطلقة، مما يعني أن الإمبراطور يرتكب فعل الزنى، لأن قوانين الكنيسة تعد المتزوج من مطلقة زانيا^(٢)

ومن ثم أضيفت إلى تهمة بطلان الزواج تهمة الزنا^(٣)، خاصة وأن الأباطرة الأيسوريين بصفة خاصة في القوانين المدنية والكنسية قد أحاطوا الزواج بالجلال والوقار وعدوا اتخاذ المحظيات شيئا يشين السمعة، كذلك تأكد تحريم زواج المحرم من ذوي القربى^(٤)، فأدى ذلك إلى ازدياد الأزمة ونتج عنها ازدياد النقمة من حزب المتحمسين من الرهبان والقساوسة على القسيس يوسف الذي بارك هذا الزواج، وأعلنوا أيضاً عدم رضاهم على البطريك تاراسيوس لتجاهله مسلك الإمبراطور وقاطعوا الاحتفالات الدينية التي كان يرأسها هذا البطريق^(٥)، وبذلك بدأ عهد جديد من النزاع بين الرهبان ورجال الدين والكنيسة الأرثوذكسية من جهة، والدولة من جهة أخرى^(٦).

أصبحت جميع الأوساط والنفوس في الإمبراطورية البيزنطية معبأة ضد قسطنطين السادس، وأشير إليه بالإمبراطور الزاني، فأضاع نتيجة سلوكه الأرعن تأييد الحزب الأرثوذكسي كما أضاع وقوف حزب أعداء الأيقونات القديم إلى جانبه على حد سواء، فبدأ واضحاً وجلياً طرده من

(١) منعت قوانين الأسرة الأيسورية الطلاق حيث تشير هذه القوانين إلى الزواج بأنه "الرابط السرمدي الأبدية بحيث يعني وجود شخصين في جسد واحد"، ثم أبيع الطلاق مرة أخرى بسبب سوء تصرف بعض الأشخاص فسمح بالطلاق لارتكاب الزوجة الزنا ومحاولة أحد الزوجين التآمر على حياة الآخر، كذلك جواز الطلاق في حالة أن تنام المرأة خارج منزلها ضد رغبة زوجها ما عدا منزل أهلها، كذلك أن تستحم مع الرجال أو تشرب الخمر أو تذهب إلى المسارح أو ميدان سباق الخيل "ملعب الهيبودريوم" كذلك يجوز الطلاق من المرأة التي تقتل أو تخطف أو تسرق سرقات خطيرة أو تدنس المقدسات أو لإجهاضها نفسها. عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٥.

(٢) العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص ١٧٩.

(٣) Joseph: op. cit. p.93.

(٤) أننع، سهير محمد إبراهيم: دور المرأة في مصر البيزنطية، ص ٧٩.

(٥) عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٥٥.

(٦) أبو جداول، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٦ - رستم، حرب في الكنائس: ص ٤٨.

العرش الذي أصبح أمراً ليس^(١) بالصعب ولاسيما وأن الإمبراطورة إيرين أكدت بإقرارها تشريعات الأكلوجا Euklugs على عدم صحة الزواج الثاني له، وعدّ كل زواج بعد الزواج الأول أمراً غير أخلاقي، كما ينص هذا القانون على أن كل طفل يولد من الزواج الثاني يُعد طفلاً غير شرعي. رأت الإمبراطورة إيرين أنه من الأفضل أن تعود الأمور إلى نصابها وأن تكون هي صاحبة العرش، وأن تعمل على رَأب ما تصدع خاصة وأن البنود لا زالت في غليانها المستمر^(٢)، فضلاً عن تخوف الإمبراطورة من قسطنطين السادس من أن يتخذ سياسة هوجاء نحو السياسة الدينية التي اتخذتها، فعملت على تهدئة الأوضاع في الإمبراطورية البيزنطية حيث شعر قسطنطين السادس بأنه سيكسب كثيراً إذا ما عاد إلى اللايقونية مرة أخرى، ولن يلحق به ضرر إذا ما تخلى عنه رجال الدين الأيقونيون الذين أصبحوا يعلنون على أنه فاسق وزان، وأنه لن يكسب كثيراً بمساعدتهم ولن يخسر كثيراً أيضاً إذا ما تخلوا عنه^(٣)، فمن المعروف أن جده قسطنطين الخامس قد تزوج ثلاث مرات ولم تكن هناك أي معارضة من رجال الدين اللايقونيين، كما أن قسطنطين السادس قد تمتع بشعبية وحب كثيرين من القوات والقادة في الجهة الشرقية ومعظمها كانت تعتقد اللايقونية، فإذا ما نجح في الهرب فسينصب حاكماً عليهم وعندها يتمكن من الإطاحة بأمه إيرين وبالأيقونيين جميعاً، وبذلك لم يتمكن رهبان أديرة ساكوديون Saccaudion في بثينا Bthynia من الوقوف في وجهه، فقد كان على رأس المعارضة الأب Plato وهو رئيس الدير السالف^(٤)، وكان من أشد المعارضين لسلوك الإمبراطور قسطنطين السادس قام بزيارة هذا الدير شخصياً، وقابل إهانتهم الجارحة بقوله "إنني لا أنوي أن أجعل منكم شهداء" غير أن كثرة السخط التي كانت منتشرة بين جميع فئات الشعب، وقد اتسع تمادي رجال الدين في المعارضة كثيراً الأمر الذي أدى إلى نفاذ صبر الإمبراطور قسطنطين السادس، فأصدر أوامره بالقبض على الرهبان، لاسيما رهبان دير ساكوديون، الذي أمر بتعذيبهم ومن ثم نفاهم^(٥).

أُتيحت للإمبراطورة إيرين فرصة كبيرة للنيل من ابنها قسطنطين السادس وذلك في عام ٧٩٧م حيث ولد للإمبراطور ولد ذكر أطلق عليه اسم ليون، فيما كان هو برفقة والدته في منطقة بروسا

(١) Romilly: op. cit. pp.101-102.

(٢) Ostrogorsky: Op. Cit. P.180.

(٣) Romilly: Op. Cit. PP.101-102.

(٤) Ibid: PP.101-102.

(٥) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٣٦.

Pruse-وهي منطقة حمامات طبيعية- فعندما علم الإمبراطور قسطنطين السادس بولادة طفله ترك والدته مع كبار الموظفين الذين كانوا يشكلون الحاشية الرسمية للإمبراطورية البيزنطية فانتهزت عندئذ الإمبراطورة إيرين الفرصة السانحة للتحدث إليهم بعد تقديم الهدايا والعطايا والوعود مقابل تجريد ابنها من حقه في الحكم، فوافقت جميع الطبقات من الموظفين على هذا الاقتراح وضمنتهم إلى جانبها^(١)، إذ لم يكن بالأمر الصعب تحييد مواقفهم إزاء إمبراطورهم الذي أخذ يتخبط في أعماله ضدهم.

وعلى الرغم من ذلك فقد انتظرت الإمبراطورة إيرين حتى يحين الوقت المناسب، وفي شهر أيار من العام نفسه توفي الإمبراطور الصغير ليون ابن قسطنطين السادس فحزن عليه حزناً جماً، وفي شهر يوليو وبينما كان قسطنطين السادس عائداً من حضور حفل لسباق الخيل تحرك بعض حرس القصر الإمبراطوري قصر أمهات القديس لإلقاء القبض عليه فتنبه الإمبراطور قسطنطين لذلك^(٢) فركب إحدى السفن الحربية وعبر بها إلى منطقة بيلاي Pylai بأسيا الصغرى برفقة زوجه ثيودورت لكي يتسنى له الهرب إلى الأناضول^(٣).

في تلك اللحظات عملت الأم إيرين على تجميع الحرس الإمبراطوري بمحل إقامتها في قصر Eicathaisa، أولئك الذين اتفقت معهم قبل ذلك، وتعاونوا على إدخالها القصر الإمبراطوري غير أنها علمت أن الجيش لا يزال متعاوناً مع قسطنطين فانتابها الخوف لذلك، غير أن تفكيرها هداها إلى أن ترسل بعض من رجال الدين ليأمنوها حتى تذهب إلى مكان منعزل، وكاتبت بعض رجالها الذين كانوا برفقة ابنها قسطنطين السادس بإلقاء القبض عليه^(٤)، وهددتهم بفضح أمر العلاقة التي تربطهم بها -وهي قبولهم الرشاوى والهدايا والوعود من الإمبراطورة إيرين- فخافوا من هذا التهديد واستطاعوا أن يقتنعوا قسطنطين السادس بأداء الصلاة في الفجر، ومن ثم قاموا بإلقاء القبض عليه ووضعوه في عربة ونقل إلى العاصمة، وهناك نقل إلى غرفته الأرجوانية وهي الغرفة التي شهدت ولادته منذ أكثر من عشرين عاماً وبنصائح مستشاريها^(٥) وبإيعاز من ستوراكيوس وأيتيوس سملت عينيه عام ٧٩٧م^(٦)، ومهما يكن من أمر فإن سمل العيون كانت

^(١) Theophanes: Op. Cit. P. 674-682.

^(٢) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٧.

^(٣) Theophanes: Op. Cit. P.672-679.

^(٤) أبو الجدايل، المرأة والسلطة في العصور الوسطى، ص ٥٧.

^(٥) Romeilly: op. cit. pp.101-102.

^(٦) Garland, Women and power, P.86.

عقوبة مزعجة لم تبدها الإمبراطورة إيرين، فقد وجدت طيلة حقبة الإمبراطورية البيزنطية و الرومانية أيضاً عمل مثل ذلك كجدع الأنف، وشق اللسان، وقطع الأذن وبتر الأعضاء.

اكتشفت الإمبراطورة إيرين قبل قيامها بأمر سمل عيني ابنها قسطنطين السادس أنه كان يقوم باتصالات سياسية دبلوماسية مع الملك الكارولنجي شارلمان في أكس لاشابل حيث استقبل مبعوث قسطنطين السادس المدعو تيركيستوس Tercistius بكل تقدير واحترام، وعرف عن شارلمان أنه يمقت الأيقونية، وكذلك المجمع المسكوني السابع وذلك فيما عقده بعد ذلك في مجمع فرانكفورت^(١) عام ٧٩٤م^(٢)، والذي شاعت شهرته في الشرق والغرب، فكان من السهل على الإمبراطور قسطنطين السادس أن يعمل على عقد تحالف بين الشرق والغرب على أساس تحالف واتفاق ديني، وهذا ما ينبغي عليه تحول بيزنطة عن سياستها الدينية إلى السياسة اللأيقونية نفسها التي خرجت من مجمع هيريا عام ٧٥٤م، لذلك فقد جاءت كل هذه الأسباب القوية مجتمعة أمام الإمبراطورة إيرين الأمر الذي دفعها هي ومستشاريها إلى القصاص من ابنها الذي عدته ليس مجرد عقبة في سبيل تحقيق نفوذها السياسي فحسب بل عدته مهرطقاً سوف يدفع بمملكته إلى طريق الإثم والظلام^(٣).

وبذلك أبعدت الإمبراطورة الأم ابنها عن دفة الحكم متحملة كل أعبائه، هذا فضلاً عن المجادلات التي حدثت ضدها في الأوساط العالمية.

أما الإمبراطور قسطنطين السادس فهناك عدة تكهنات قد ظهرت حول حياته، ومن هذه التكهنات أن أمه قد أرسلته إلى أحد الأديرة حيث أمضى عشرين عاماً أعمى البصر والبصيرة^(٤).

(١) لقد كتم هادريان بابا روما- أخبار المجمع المسكوني السابع عن شارلمان وطواها طوال مدة انعقاد المجمع، ثم سمح بنقل قراراته إلى اللغة اللاتينية فنقلت مشوهة وانتشرت ووصلت شنيعة إلى بلاط الإفرنج، فاستنكف علماء هذا البلاط للكنيسة منها وهبوا يأنفوها ويتكرمون ودفعوا بها إلى العالم الفرنجي الكوييتوس الذي عرف عنه مصنفه باسم Capitulare de Imaginibus بالكتب الكارولية حيث ظهر فيها شارلمان بمظهر الحكم بين آباء مجمع هيريا وآباء مجمع نيقية، وأفضى على أعمال أولئك وعاب هؤلاء واتهمهم بالافتراء على الأسفار المقدسة وأقوال الآباء، وفي عام ٧٩٤م دعا إلى مجمع غربي في فرانكفورت للنظر في بدعة التبني التي شاعت بعد دخول المسلمين إلى إسبانيا، وفي قرارات المجمع المسكوني السابع وعلى الرغم من وجود ممثلي البابا فإن هذا المجمع شجب أعمال المجمع المسكوني السابع، كما أن شارلمان ومعاونيه أرادوا أن يبينوا أن الهرطقة كانت مقصودة وأن البيزنطيين كانوا يعبدون الصور، كما أنهم أرادوا الحط من قدر قسطنطين السادس وأمه في أعين العالم المسيحي. رستم: حرب في الكنائس، ص ٤٧. صبرة، الإمبراطوريتان، ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) Romilly: Op. Cit. PP.101-102.

(٣) Ibid: PP.101-102.

(٤) توفيق، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠١. ينظر أيضاً: Ostrogorowsky: Op. Cit. P.161.

وهناك من يقول بأن الإمبراطور قسطنطين السادس قد مات في العام نفسه الذي سملت فيه عيناه^(١)، ويقول أومان في كتابه (تاريخ الإمبراطورية البيزنطية)^(٢) إن الإمبراطور قسطنطين السادس قد عاش سنوات عديدة راهباً أعمى، وبقي على قيد الحياة حتى رأى نهاية ما لا يقل عن خمسة من الأباطرة الذين خلفوه على العرش". ولعل أومان يقصد بهؤلاء الخمسة الإمبراطور نقفور الأول وابنه أوستوراكبوس ثم صهره ميخائيل راينجابي ومن ثم ليون الأرمني وبعده ميخائيل العموري.

أما شارلز ديهل Charles Diehl فيقول في كتابه عن حياة الإمبراطورات "لقد بقي الإمبراطور قسطنطين السادس في العزلة يعيش في سكن رائع حيث عاشت معه زوجته الثانية تيودوت التي وقفت معه بشجاعة في أثناء أزمتته، فقد آثرت الانضمام إليه ووضعت له ابناً ثانياً بعد وفاة ابنهما ليون ومرت سنوات حياته في هدوء متناهٍ، وقد نظر إليه الحزب الديني نظرة اشمئزاز، وعدّوا ما حدث له عقوبة عادلة من السماء، بسبب زواجه الفاسق، ويعد ابنه ابن زنى غير شرعي، بحيث تكون هذه العقوبة كالمكافأة المستحقة الدفع إزاء معاملته القاسية التي انتهجها ضد الرهبان، وكذلك لزوجته الأولى ماريا"، وهنا يقول البطريك ثيودور الأستديون "إن الأباطرة المتساوين سيتعلمون ألا يخرقوا قوانين الكنيسة المستمدة من تعليمات الله وأن لا يقوموا بالاضطهادات الآثمة"^(٣).

ويمكن الاعتقاد بأن الإمبراطور قسطنطين السادس، قد عاش فعلاً مدة من الزمن بدليل تعاونه مع الإمبراطور المتعصب نقفور - وهذا ما سيتطرق إليه في الفصل القادم - ومهما يكن من أمر فإن قسطنطين السادس ابتعد عن مسار الحكم سواءً باللجوء إلى الدير أم بالموت، وذلك لعدم السماح له مرة أخرى بالتربع على عرش الإمبراطورية البيزنطية.

تسلمت الأم الإمبراطورة إيرين مهام السلطة بمفردها بابتعاد قسطنطين، وذلك عام ٧٩٨م لتكون أول امرأة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية تتولى مهام هذا المنصب كإمبراطورة منفردة، فهي الإمبراطور البيزنطي الأوحده حسبما لقبها المؤرخون، وبهذا النصر حققت الإمبراطورة إيرين غاية ما كانت تتمناه.

(١) الدبس، يوسف، تاريخ سورية، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٠م، ص ٤٩٤.

(٢) أومان، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٦.

(٣) Diehl: Op. Cit. P. 86. Ostrogorsky: Op. Cit. P.111.

الفصل السادس

السنوات الأخيرة من حكم الإمبراطورة إيرين

- ١- أعمال الإمبراطورة إيرين من أجل تعزيز سلطتها.
- ٢- الصراع بين المستشارين ستوراكيوس وأيتيوس على خلافة إيرين.
- ٣- سقوط الإمبراطورة إيرين واستلام الحكم من وزير ماليتها نقفور.
- ٤- الحروب والأوضاع التي أدت لانتقال العرش البيزنطي للأسرة العمورية.

١- أعمال الإمبراطورة إيرين من أجل تعزيز سلطتها:

حظيت الأسرة المالكة بمشاعر الولاء والاحترام على مر سنوات تاريخ الإمبراطورية العريق مما أتاح للنساء الوصول إلى العرش الإمبراطوري، وذلك نظراً لأن قوانين الإمبراطورية البيزنطية لم تكن تنص على ذكورة الحاكم-كما هو معروف لدى القانون السالي The Salic Law^(١) في الغرب- فمارست جميع الأوغسطات Augustas نفوذاً غاية في القوة، وذلك لسبب واحد على حد تعبير ستيفن رنسيمن^(٢) "إن الحاجة كانت ماسة بل وملحة لبقاء نسخة أنثوية مماثلة للإمبراطور في الأغراض الرسمية".^(٣)

فقد كان للإمبراطورة تنويع خاص بها وهتافات خاصة بالتصديق والموافقة عليها، وذلك لضرورتها الحيوية، كما أن عدد الإمبراطورات لم يكن محدداً فقد كان يشمل أخوات الأباطرة وبناتهم وأمهاتهم إلى جانب الزوجات، فلم يكن من الضروري أن تكون الإمبراطورة زوجاً للإمبراطور^(٤)، وبذلك تكون إمكانية وجود بلاط بدون أوغسطة شيئاً لا يمكن حتى التفكير فيه، فكانت زوج الإمبراطور تُرفع على الدوام دون أي استثناء تقريباً إلى منصب الإمبراطورة عند زواجها أو عند ارتقائها العرش، وقد كان التنويع يمنح الإمبراطورة نصيباً في الولاية والسيادة، وتحظى فعلاً بنصيب في الحكم، فإن لم يكن هناك إمبراطوراً أودعت السلطة الإمبراطورية في يدها، وكانت تستطيع أن تعين وريثاً للعرش، ولم تعد إطلاقاً أن حقب الحكم النسائي هذه عدت غير شرعية يوماً ما^(٥)، ويقول ابن خرداذبة^(٦) في ذلك "لم يكن الملك لدى الروم وراثته ولا كتاب مُتبع إنما هو غلبة، وقد ملكهم نساء ورجال على السواء".

ومن هذا المنطلق تلقبت الإمبراطورة إيرين بلقب أوغسطا، وأصبحت أول امرأة إمبراطور تسيطر على مقاليد الحكم في الإمبراطورية البيزنطية بوصفها حاكمة مستقلة، كما أنها حرصت على أن لا تتعت نفسها في الكتابات الرسمية والمراسيم الإمبراطورية بصفة التأنيث

(١) القانون السالي: هو قانون الفرنجة الساليين The Salians وهم فرع الفرنجة الذي أقام الدولتين الميروفنجية والكارولنجية، وقد جمع هذا القانون الملك كلوفس (٤٨١-٥١١ م) وقد كان ينص على ألا يتولى العرش غير الرجال. بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٨٣-٨٤.

(٢) رنسيمن، الحضارة البيزنطية، ص ٧٢.

(٣) رنسيمن: الحضارة البيزنطية، ص ٧٢-٧٣-٧٤.

(٤) رنسيمن، الحضارة البيزنطية، ص ٧٢-٧٣-٧٤.

(٥) ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص ١٠٩.

Basilissa باسيليسا بل جعلت اسمها بصفة التذكير Basileus بازيلوس، ونظراً لأن مهام الإمبراطور كانت تتضمن أيضاً وظيفة القائد العسكري الأعلى، فإن حق الإمبراطورة إيرين في ممارسة هذه الوظيفة قد أصبح مثار جدل على الرغم من كونها قد تجاوزت الخمسين من عمرها^(١).

أخذ الحلم يتحقق للإمبراطورة إيرين من الآن فصاعداً، وبدأ النجاح والمقدرة على التحكم في شؤون الإمبراطورية يرافقها^(٢)، فقد عملت الإمبراطورة إيرين على التودد إلى شعبها فاكنتسبت حبهم، وذلك عن طريق تخفيض بعض الضرائب بل وإلغاء بعضها الآخر لاسيما على سكان القسطنطينية الذين أحسوا بالرضى تجاه هذه السياسة الحكيمة عادين عصرها عصر رخاء خالص^(٣)، فضلاً عن ما قامت به من أعمال خيرية سواء الدينية منها أم السياسية أم الإدارية حيث كانت تقوم بتوزيع الهدايا والأموال والأعطيات بسخاء على شعب الإمبراطورية البيزنطية، ومن الطقوس المهيبة التي أضفت على الإمبراطورية بهاء وعظمة أنها كانت تخرج في يوم عيد الفصح المقدس في موكب ديني بهيج من كنيسة الرسل المقدسة وهي تركب العربة الذهبية التي تجرها أربعة خيول بلون البياض ويتقدمهم أربع ولاة جند فكان هذا المظهر يثير في نفوس العامة الهيبة الإمبراطورية، وبذلك نجحت الإمبراطورة إيرين في إرضاء رجال الدين ومعظم الشعب البيزنطي، حتى لقبها العديد بلقب "أنقى التقيات"^(٤).

أمرت الإمبراطورة إيرين بهدف كسب حب الكنيسة ورجال الدين باستدعاء طائفة الرهبان والقساوسة المحكوم عليهم بالنفي، لاسيما من ابنها الإمبراطور الأسلف قسطنطين السادس، كما أنها عملت على إعلان قرار الحرمان والعزل ضد القسيس يوسف الذي كان قد أتم مراسيم الزواج الثاني لابنها الإمبراطور عام ٧٩٧م^(٥).

أما في الخارج فقد أخذت السياسة البيزنطية في الاستقرار وذلك بعد قيام الخليفة العباسي هارون الرشيد بحملة ضد الأراضي البيزنطية فسارعت الإمبراطورة إلى كسب وده ودخلت في مفاوضات أمن وسلام معه لتجنب دولتها الدخول في حروب لا طائل منها وبذلك العمل

^(١) Ostrogorowsky: Op. Cit. P.161.

^(٢) Diehl: Op. Cit. P.87.

^(٣) العريني، الدولة البيزنطية، ص ٢٢٨. ينظر أيضاً: Diehl: Op. Cit. P.87.

^(٤) Theophanes: Op. Cit. P.651-652. Diehl: Op. Cit. P.87.

^(٥) Ostrogorowsky: Op. Cit. P.167.

الحكيم أخرت -بل وأوقفت- غزواً إسلامياً وشيكاً كاد أن يؤدي بالإمبراطورية إلى الانحطاط ويدفعها إلى الحضيض^(١) -وبهذه الإجراءات حازت سياسة الإمبراطورة إيرين الداخلية والخارجية إلى جانب سياستها الدينية والاقتصادية رضى الرهبان، وكذلك الأوساط الشعبية والأحزاب المختلفة، لكنها لم تحظَ بالرضى نفسه لدى بعض البنود خاصة في آسيا الصغرى، إذ هم لا يؤيدون سياستها الدينية من جهة، فضلاً عن بقائهم على إخلاصهم للأباطرة السالفين^(٢).

٢- الصراع بين المستشارين ستوراكيوس وأيتيوس على خلافة إيرين:

مرضت الإمبراطورة إيرين في مايو من عام ٧٩٩-٨٠٠م مرضاً شديداً واعتلت صحتها فمهد هذا المرض للتنافس على السلطة بين كبار مستشاريها ستوراكيوس وأيتيوس^(٣)، إذ وقعت الإمبراطورة بين تأثيرين مختلفين لكل منهما، غير أنها تنبعت للأمر على الرغم من اشتداد الخلاف بينهما بصورة بلغ مداها الذروة غير أن كلاهما عمل على ضمان حكم الإمبراطورية البيزنطية لأقاربه بعد وفاة الإمبراطورة، فضم الخصي أيتيوس إلى جانبه نكتاس والي الحرس الإمبراطوري، حيث اعترض كل منهما على ستوراكيوس فقاموا بإخبار الإمبراطورة إيرين بأنه كان يهدف للاستيلاء على عرش الإمبراطورية البيزنطية فازداد حق الإمبراطورة على المخصي ستوراكيوس، وقامت بتعنيفه بشدة متناهية وأنبتته، وقد كان هذا الحدث في قصر هيريا في هذه اللحظات طلب ستوراكيوس بدوره إليها أن تعذره على ما بدر منه، عاداً ما حدث سوء تصرف منه، وأخذ الاحتياطات اللازمة لحماية نفسه، فقد كان ستوراكيوس داهيةً، كما أنه توخى الحذر والحيلة في أفعاله كلها أكثر من الخصي أيتيوس ونكتاس^(٤).

وخلال شهر فبراير من عام ٧٩٩-٨٠٠م أخذ الخصي إستوراكيوس يعد لحركة تمرد في العاصمة منتهزاً فرصة مرض الإمبراطورة إيرين وابتعادها عن المجال السياسي، فانشغل إستوراكيوس بتقديم الرشاوي المالية وكذلك الهدايا، وأخذ يقدمها بسرية تامة إلى الحراس

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث عام ١٨٦ هـ، ص ١٨٦.

(٢) علية الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص ٧٦.

(٣) رنسيان، الحضارة البيزنطية، ص ٧٢.

(٤) Theophanes: Op. Cit. P.651-652. William: L. Langer, An Encyclopedia of World History

Medengl Chronologically Arranged London, 1948. P.76.

الشخصيين للإمبراطورة، فضلاً عن الضباط وبعض قادة الجيش، ووصل به الأمر إلى محاولة إنقاذ الإمبراطور السالف قسطنطين السادس محاولاً منحها لسلطة التي سوف تشاركه فيها زوجه ثيودوت التي رافقته في محنته، غير أن شفاء الإمبراطورة إيرين جعل تحقيق ذلك من المستحيل، فقد علمت بتفاصيل هذه المؤامرة فاستدعت الجميع إلى اجتماع طارئ في قاعة جستنيان، وقد كان هذا الاجتماع اجتماعاً دينياً أدانت فيه الخصي إستوراكْيوس وأصدرت أوامرها إلى الجيش لاسيما الذين هم في خدمة البلاط الإمبراطوري لمنعهم من التعامل مع الخصي إستوراكْيوس^(١)، وبهذه الأوامر والسياسة الحكيمة كسبت الإمبراطورة مرة أخرى هؤلاء الرجال الذين تقانوا في خدمتها لدرجة أن قام المستشار أيتيوس وكذلك نكتاس بالتنازع مع أستوراكْيوس^(٢).

وخلال هذه الأوضاع مرض إستوراكْيوس مرضاً شديداً لدرجة أن الدم أخذ يخرج من فمه وعندما أسرعوا لعلاجهم أعلن الطبيب عن وفاته بنوبة قلبية، وبوفاته الطبيعية تخلصت الإمبراطورة إيرين من حركات التمرد التي عمل على إثارتها، إذ كان أدناً صاغية للسحرة والنسائك المزيفين الذين كانوا يؤكدون له بأنه سيعيش مدة طويلة ويتوج إمبراطوراً على الإمبراطورية البيزنطية، بنى إستوراكْيوس على هذه الترهات والنبوءات الكاذبة، وقام بأفعال تعرض على إثارة التمرد والاضطرابات ضد الخصي أيتيوس في إقليم كبادوكية لكنه لم يطل به العمر، وكان مصير المتمردين العقاب والنفي^(٣).

بعد وفاة المستشار إستوراكْيوس وكلت الإمبراطورة إيرين المهام السياسية جميعها إلى زميله ومنافسه أيتيوس، وبذلك أضحى الطريق مفتوحاً للوزير أيتيوس الذي كان يخطط لجعل العرش يؤول لأخيه الذي كان يدعى ليون^(٤)، وقد ساعده على ذلك زيادة نفوذه في البلاط

^(١) Theophanes: Op. Cit. P.651.

^(٢) Theophanes: Op. Cit. PP.651-652-653. Joseph: MC, Cape, The Emperors of Constantinople, London, 1913. P.99.

^(٣) Theophanes: Op. Cit. P.652-653.

^(٤) لم يفكر الخصي أيتيوس في الاستيلاء على عرش الإمبراطورية البيزنطية بالمعنى الصحيح بل جعل ذلك الأمر لأخيه ليون، وذلك بسبب كونه خصي، فقد كانت بيزنطة جنة الخسيان، فالواقع أن أشرف العائلات النبيلة لم تكن ترى من الصعب عليها أن تنكح هكذا بأبنائها لتساعدتهم على التقدم ولا كان في هذا أية مهانة ولا مساس بالشرف أو الكرامة، نعم أن الخصي لم يكن ليستطيع أن يرث التاج الإمبراطوري ولا هو يستطيع بسبب طبيعته أن ينقل الحقوق الوراثية إلى الغير وهنا يكمن السر في قوته، فالصبي الذي يولد على صلة وثيقة بالعرش كان في الإمكان بهذه الطريقة تحويل مسار حياته إلى ناحية جانبية ثم هو يستطيع بعد ذلك أن يسير قدماً في أمان تام حسبما تمليه عليه مشيئته. ستيفن رنسيمن: مرجع سالف، ص ٢٤٣-٢٤٥.

البيزنطي بل وفي مجالات الإمبراطورية البيزنطية كافة، غير أنه ظل محل استنكار من الوزراء والقادة الآخرين، وذلك لكونه قد جمع في يده قيادة بعض المقاطعات أو البنود الآسيوية، وهما بندا الأوبسيكيون والأناضول، فضلاً عن أنه عمل على جعل أخيه ليون أستاراتيجوس على كل من البند التراقي والبند المقدوني، وهما ما سُميا بالمقاطعات الأوروبية، وذلك تمهيداً لاعتلائه العرش الإمبراطوري بعد وفاة الإمبراطورة إيرين^(١). وبهذه الإجراءات يكون الخصي أيتيوس قد تحكم في مقاليد الأمور في هذه المرحلة وذلك راجع لسوء حالة الإمبراطورة إيرين الصحية، فكان مزهواً مختالاً بنفسه، وأخذ يوجه الأوامر بل ويستبد بها لاسيما تجاه أصحاب المقامات الرفيعة في السلطة، إذ لم يعرهم أي اهتمام، وهم بدورهم أضحوا حانقين عليه الأمر الذي دفع بهم إلى التخطيط من أجل ثورة ضده ووضعها موضع التنفيذ^(٢).

٣- سقوط الإمبراطورة إيرين واستلام الحكم من قبل وزير ماليتها نفقور:

أخذ نجم الملك الكارولنجي شارلمان في هذه الأثناء يعلو أكثر مما يجب بإسدائه خدمات جليلة للبابوية في روما^(٣)، مما أدى إلى ارتفاع شأنه، ورأى البابا ضرورة توحيد شطري الإمبراطورية الرومانية الشرقي مع الغربي تحت اسم إمبراطورية رومانية واحدة، ولكي يتم هذا الأمر كان لابد من تقريب الملك الكارولنجي من الإمبراطورة إيرين بالتقدم لطلب يدها^(٤). غير أن الخصي أيتيوس طلب إليها عدم الموافقة بعد وصول البعثة إلى البلاط البيزنطي، وأخذ في إقناعها بأنها الإمبراطور الروماني الأوحده ولا يجرؤ أحد على زعزعتها من مكانتها هذه إذ كان في نية المستشار أيتيوس أن يغتصب العرش لأخيه ليون، الأمر الذي أخر الإمبراطورة إيرين بالرد على هذه السفارة^(٥).

^(١) Theophanes: Op. Cit. PP.654-655.

ينظر أيضاً: عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ص ٢٧٢.

^(٢) Theophanes: Op. Cit. PP.654-656.

^(٣) Mathias Becher: Charlemagne, Yale University Press, 2003, PP.16-20.

^(٤) Basher: Op. Cit. PP. 16-20.

^(٥) Norwich John Julius: Byzantium, the Early Centuries, London, 1985, P.380.

كان الملك الكارولنجي شارلمان يعرف جيداً أن تنصيبه إمبراطوراً على كل العالم الروماني لا يتخذ صفته الشرعية إلا بإقرار الإمبراطورية البيزنطية نفسها، كما رأى أن دخوله في حرب ضد البيزنطيين سيؤثر في مركزه فتجاهل في الخمسة الأشهر الأولى من تتويجه موضوع الاتصال بالدولة البيزنطية، بعد ذلك أخذ يفكر في ذلك بجدية حيث اتفق مع البابا ليون على ضرورة فتح باب المفاوضات^(١) مع الإمبراطورة إيرين، منتهزاً فرصة وجودها للحصول على اعتراف رسمي بتنصيبه إمبراطوراً رسمياً على العالم الروماني بأجمعه، وفي عام ٨٠٢م أعد شارلمان بعثة من رجال القصر الكارولنجي وممثلين عن البابوية متوجهين إلى البلاط البيزنطي ليعرضوا على الإمبراطورة إيرين مشروع الزواج^(٢).

قابلت الإمبراطورة إيرين هذه البعثة بسعادة غامرة وأحسنّت ضيافتها، وأرسلت ردها على شارلمان مع مندوبها المدعو ليون سباثياريوس Leo- Spathiarius ليعلن له عن موافقتها الشخصية، غير أن الخصي أيتيوس رفض ذلك وآخر مندوب الإمبراطورة مقنعاً الإمبراطورة بعدم الموافقة، خاصة وأنه من سلالة الفرنجة البربرية التي بالكاد تفقه القراءة والكتابة وأقنعها بأن تتزوج من قريبه نكيتاس قائد الحرس الإمبراطوري^(٣).

طال انتظار رجال البعثة الكارولنجية في القسطنطينية، وفي هذه الأثناء استطاع أحد المتمردين داخل القصر الإمبراطوري ويدعى نففور الأول -وقد كان يشغل وظيفة أمين الخزانة- أن يتزعم الثورة ضد الإمبراطورة إيرين^(٤)، ففي مساء ٣١ تشرين الأول من عام ٨٠٢م استغل وجود الإمبراطورة وهي في حالة المرض في قصر الأليوثيريان Ecutherian بعيداً عن العاصمة، طرق بابها مجموعة من الضباط النبلاء بعدما قاموا بمغافلة الحراس بالقصر وأبلغوا الإمبراطورة بالثورة، وطالبوها بالتنازل عن الحكم لنقفور مستولين على ممتلكات القصر الذي أحاطوه بالحراس، وفي فجر هذا اليوم توج نففور الأول إمبراطوراً على الإمبراطورية البيزنطية، وقد تم إجراء المراسم الإمبراطورية في كنيسة آيا صوفيا بالقسطنطينية^(٥).

Vasiliev: Op. Cit. P.327. ^(١)

Vasiliev: Op. Cit. P.327 Ostrogorowsky: Op. Cit. P.115. ^(٢)

Ostrogorowsky: Op. Cit. P.186. ^(٣)

Diehl: Op. Cit. P.90. Joseph Cape: Op. Cit. P.99. ^(٤)

Diehl: Op. Cit. P.90. ^(٥)

وهكذا سمح الابتعاد للإمبراطورة إيرين في قصر الأليوثريان بحيث تكون بعيدةً كل البعد عن البلاط البيزنطي فرصة سانحة للمتآمرين أن يقوموا بتنفيذ مخططهم في جنح الظلام مسيطرين بذلك على القصر الإمبراطوري، ومن ثم إملاء شروطهم على الإمبراطورة إيرين، غير أن أهالي القسطنطينية لم ينسوا فضائل إمبراطورتهم الحكيمة وسخائها وعطفها وبرها، لذلك قامت ثورة عارمة في أنحاء القسطنطينية كافة حيث اجتمع هؤلاء الثوار في الميدان العام "ملعب الهيدريوم" وأخذ الثوار والمتمردون في صب اللعنات على الإمبراطور الجديد، وكذلك الخصي أيتيوس وأخذوا بالهتاف باسم الإمبراطورة إيرين مطالبين بإرجاعها إلى عرش الإمبراطورية البيزنطية^(١).

كان الإمبراطور الجديد نقفور يحمل لقب بطريك، بل وكان عضواً بمجلس السناتو، وشغل وظائف مهمة أخرى كان آخرها المسؤولية المالية -أمين الخزانة- في الإمبراطورية البيزنطية، وقد ساعده في الوصول إلى هذا المنصب المهم مجموعة من الخصيان كان من بينهم الخصي المقرب للإمبراطورة أيتيوس^(٢).

وصل نقفور إلى حجرة الإمبراطورة إيرين فطلبت إليه أن تقضي بقية حياتها في قصر الأليوثريان، فأجابها إلى ذلك، شرط أن تقسم على الصليب وتذكر له جميع الأمكنة التي توجد بها كنوز ومقتنيات القصر، فقد كانت هذه الكنوز مخبأة ومفرقة على عدد من قصور القسطنطينية^(٣).

أظهر نقفور للإمبراطورة إيرين رقة ورحمة، وأحسن الإمبراطور نقفور معاملة الإمبراطورة إيرين، أملاً في تسليمه الكنوز النفيسة التي في حوزتها، شكت الإمبراطورة في نوايا الإمبراطور نقفور، ولكنها نفذت ما طلبه منها، وبهذا نال نقفور ما أراد فقام بالحنث بوعده ونفى الإمبراطورة إيرين إلى أحد الأديرة التي قامت بتشجيده في جزيرة الأمراء، غير أنه لم يهنأ له بال إلا بإبعادها إلى مكان أبعد من ذلك، بسبب خشيته من أن يتآمر الشعب بطبقاته كافة ضده وينصبوها مرة أخرى إمبراطورة على الإمبراطورية البيزنطية، متأثرين بأعمالها المجيدة لاسيما أولئك المؤيدين لسياستها الدينية وكذلك الاقتصادية^(٤).

^(١) Theophanes: Op. Cit. PP.655-661 . Ibid: PP.90-91.

^(٢) Finlay: Op. Cit. P.80.

^(٣) Theophanes: Op. Cit. PP.655-662.

^(٤) John Julcus Norwich: Byzantium. The Early Centures Penruin Zroup London, 1985. P.310.

واجهت الإمبراطورة إيرين في أثناء رحلتها إلى منفاه عاصفة عاتية أنهت حياتها، وذلك في جزيرة ليسبوس Lesbos^(١)، في التاسع من شهر آب من عام ٨٠٣م، وبعد ذلك أمر الإمبراطور الجديد نقفور نقل جثمانها إلى كنيسة الحواري المقدس حيث يدفن جميع الأباطرة^(٢)، وما لبثت الكنيسة الأرثوذكسية أن منحت الغفران للإمبراطورة إيرين، التي لم ترَ فيها إلا إيرين الأثينية الوريعة التي أعادت إلى عقيدة الصور المقدسة جلالها^(٣)، ويومها طويت صفحة في التاريخ البيزنطي وانتهى بموتها حكم أسرة حكمت زمناً طويلاً تحت اسم الأسرة الأيسورية، وتوارى رفاة الإمبراطورة إيرين التي جمعت بين الطموح والتقوى إلى الأبد^(٤).

(١) جزيرة ليسبوس Lesbos: تقع جزيرة ليسبوس في الطرف الشمالي الشرقي للبحر الإيجي في مواجهة شواطئ ديسيا في الشمال الغربي، لأسيا الصغرى، وتعدو أكبر جزيرة في البحر الإيجي، وأهم محاصيلها العنب الذي يُستخدم في صناعة النبيذ، وكذلك القمح. غنيم، الإمبراطورية البيزنطية وكرت الإسلامية، ص ٨١.

(٢) Diah: Op. Cit. PP. 91-92.

(٣) عكاشة: الفن البيزنطي، ص ٢٢.

(٤) Diah: Op. Cit. P.92

٤ - الحروب والأوضاع التي أدت لانتقال العرش البيزنطي للأسرة العمورية:

عُرفت الحقبة التي تلت حكم الإمبراطورة إيرين بكثرة الاضطرابات والتوتر فضلاً عن كثرة الأباطرة الذين لم يدم حكم الواحد منهم سوى حقبة قصيرة، إذ لم يكن بمقدورهم السيطرة على الأوضاع الداخلية والخارجية في حقبة قصيرة، وقد امتدت هذه الحقبة من نهاية عام (٨٠٢م) حتى عام (٨٢٠م)^(١).

اغتنب نفقور الأول (٨٠٢-٨١١م)^(٢) عرش الإمبراطورية البيزنطية بعدما استطاع إبعاد الإمبراطورة إيرين عن الحكم ينتمي نفقور إلى أصول عربية؛ إذ إن جده هاجر إلى بسيديا Pisidia^(٣) التي تعد مسقط رأسه وقد شغل وظيفة وزير الخزانة في عهد الإمبراطورة، ولم يكن من دعائم الكنيسة وعلى الرغم من شهرته بالاستقامة وتأييد عبادة الصور، فإنه فرض سلطانه على رجال الدين، وطلب منهم إظهار الولاء لشخصه؛ مما أدى إلى توتر العلاقات بين حزب الرهبان والسلطين الكنسية والحكومية^(٤).

بعد وفاة الإمبراطور نفقور الأول تولى العرش صهره ميخائيل رانجابي Rangabe الذي كان يتخذ لقب Curopalates، وقد أيد ترشيحه اتباع الإمبراطور وكذلك ابنه أوستراكوس - قبل وفاته - فضلاً عن البطريق نفقور غير أن زوج أوستراكوس الأثينية الأصل وتدعى (ثيوفانو) اعترضت بشدة على هذا الوضع^(٥) لأنها كانت تؤمل أن تتولى مهام الدولة شأنها في ذلك شأن الإمبراطورة إيرين، وقد ترتب على تأثير ثيوفانو على زوجها أن أظهر أوستراكوس سخطه على الوزيرين ستيفانوس Stephanos، وثيوكتستوس Theoktistos، وكذلك صهره ميخائيل وأظهر كراهيته أيضاً لأخته بروكوبيا Procopia زوج ميخائيل؛ إذ إنه شك في أنها كانت تتآمر ضده فأرجأ أوستراكوس قراره النهائي خوفاً من حدوث نتائج سيئة^(٦)، فشاعت في العاصمة الأهواء والنزاعات الشخصية، إذ أُذيع أن الإمبراطور أوستراكوس أراد أن يجعل الحكم في يد زوجه ثيوفانو كما شاع أيضاً أنه أراد أن يرجع إلى دستور روما القديم Lex de

(١) توفيق، عمر كمال: مذكرات في تاريخ الدولة البيزنطية، مكتبة البلدية، الإسكندرية، عام ١٩٥٤م، ص ٩١-٩٢.

(٢) تذكر المصادر العربية بأن نفقور الأول يرجع أصله إلى الأصل العربي . ابن الأثير، الكامل في التاريخ، حوادث عام ١٨٧هـ، ص ١٨٥.

(٣) مدينة بسيديا: وهي مدينة قديمة تقع في جنوب الأناضول بآسيا الصغرى، بروكوبيوس القيصري: الحروب القوطية، ص ١٤٦.

(٤) Vasiliv. Op. Cit. P.271.

(٥) السيد، محمود محمد، تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، عام ٢٠٠٠م، ص ١١٠-١١٢.

(٦) رنسيमान، الحضارة البيزنطية، ص ٦٤-٦٥.

Imperio فيعيد إلى الرومان ما تنازلوا عنه منذ سبعمائة عام من السلطان للإمبراطور، وحرص البطريق نقفور على أن يفتح أوستراكيوس بأن يصلح الأمور المالية لدى الدولة البيزنطية لاسيما سياسة أبيه التي أضرت بفئات عديدة من السكان وأن يتنازل عن العرش لإمبراطور جديد يلقي قبول الناس ويرضون عن حكمه، وذلك راجع إلى المرضه غير أن أوستراكيوس لم يستمع إلى هذه النصائح ودبر مؤامرة بهدف إقصاء ميخائيل عن الحكم، وأمر بسمل عينيه، غير أنه قبل أن يتم تنفيذ هذه الإجراءات جرت الاستعدادات للمناداة بميخائيل إمبراطوراً في ميدان السباق حيث احتشد الجند وأعضاء السناتو في ٣ أكتوبر عام (٨١١م)، وأعلنوا ميخائيل إمبراطوراً على الرومان عندئذ لم يكن أمام أوستراكيوس غير أن يعلن تنحيه عن الحكم، ويلجأ إلى الدير حيث قضى نحبه بعد ثلاثة شهور من وصوله الدير^(١).

تولى من بعده العرش صهره ميخائيل الذي اتخذ اسم أسرته رانجابية مما يدل على تقاوم نفوذ الأسر الكبيرة، فهو كان ينتمي إلى إقليم مقدونيا بآسيا الصغرى وقد تولى العرش عن عمر يناهز الأربعين، وقد اشتهر بدمائة الخلق، ولين الجانب وسرعة الخاطر، غير أنه لم يكن يصلح للمنصب الذي ارتقى إليه، إذ ظل خاضعاً في أثناء حكمه لسيطرة زوجه من جهة، وتسلب البطريك من جهة أخرى، فلم يملك الشجاعة التي تمكنه من أن يتخذ إجراءات عنيفة كالتى اشتهر بها نقفور، كما أنه لم يكن بالقائد الكفاء، إذ عرض جيشه لهزائم عديدة أدت في نهاية المطاف إلى خلعها عن العرش عام (٨١٣م) وتولى عوضاً عنه ليون الأرمني^(٢).

كان ليون الأرمني قائداً بند الناطليق بآسيا الصغرى، وكان توليه السلطة من القادة العسكريين^(٣) وكان من المناهضين للحركة الأيقونية مقلداً أعمال كل من الإمبراطورين ليون الأيسوري وقسطنطين الخامس، لذلك لم يحظَ بالمطلوب من التأييد إذ كان يخشى باستمرار أن يفقد عرشه واشتد خوفه في السنوات الأخيرة من حياته^(٤).

وعلى الرغم من الاحتياطات والتدابير اللازمة التي اتخذها فإنه لم يفلت مما كان مقدراً له عام (٨٢٠م) إذ اغتيل على يد أحد أتباع زميله القديم ميخائيل العموري، وهو الذي استطاع الزواج من ابنة الإمبراطور السالف قسطنطين السادس أيفيروسين، فثبت بزواجه حقه في التاج وتقلد العرش الإمبراطوري مُنهيّاً بذلك حقبة الاضطرابات، وفتح الباب على مصراعيه لتأسيس أسرة جديدة حكمت الإمبراطورية البيزنطية هي الأسرة العمورية.

(١) عاقل، نبیه، دراسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، عام ١٩٦٧م، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢) أفرج، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٣-١٩٤.

(٣) Ostrogorowski: Op. Cit. PP. 175-180.

(٤) ابن ناصر، الدوناتية، ص ٩٧.

خاتمة...

من خلال دراسة شخصية الإمبراطورة إيرين (٧٨٠-٨٠٣م) التي مثلت جانباً مهماً في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وكان لها دورها البارز في التاريخ، وما جربا الوقوف عليه من أعمالها الداخلية المرتبطة بسياساتها في تسيير أمور إمبراطوريتها، وكذلك ما جرى الوقوف عليه فيدورها السياسي المهم مع الدول والأمم المعاصرة لها آنذاك، نجد أنها شخصية فذة يجب الوقوف عندها طويلاً، والاطلاع على أعمالها ودراساتها من جميع الجوانب السياسية والاجتماعية، ومعرفة الأحوال التي جعلت منها إمبراطورة استثنائية تختلف عن غيرها من النساء وصلن إلى سدة الحكم وأصبحن إمبراطورات، هذا الاختلاف ربما له نوازه الاجتماعية والنفسية التي لم يقف عليها البحث بالتحديد، ربما لأن البحث له جانب تاريخي لم يمكنه من الوقوف على حقيقة تلك الأحوال، غير أن البحث ومن وجهة نظر تاريخية يرى أن تلك المرأة كانت تستحق هذا المنصب بجدارة، ربما لأنها لم تلجأ إلى العواطفها ولم تضعف أمام مشاعرها يوماً ما، فقد كانت تقبض على زمام الأمور بيد من حديد وكان تطلعها إلى الحكم هدفاً لم يثنى عنها حتى قلب الأم الذي كان ينبض بين ضلوعها، وكانت وفاة زوجها الإمبراطور ليون الرابع هي الفرصة التي جعلتها وصية على عرش إمبراطورية عظيمة كان الوفاق بين مساعيها الدينية في حالة مطردة بصفة دائمة، إلا أنها استطاعت وفي مدة قصيرة أن تسيطر على الأمور السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية كافة، وأن تظهر براعة في العلاقات الدبلوماسية مع الدول المجاورة لإمبراطورتها جميعها، حتى تتفرغ للتبظيم أمورها الداخلية، وأن هذه الحقبة شهدت أعظم حدث في تاريخ العالم وهو ظهور الإسلام في أيام الأسرة الهرقلية، فكان على هذه المرأة أن تتصف بالدبلوماسية والحكمة لاسيما مع القوة الإسلامية التي كانت تسعى إلى الانتشار على حساب الإمبراطورية البيزنطية، بحكم أنها كانت دعوة دينية عالمية سعى معتنقوها إلى نشر مبادئها كما أراد الله، كما أن هذه الإمبراطورة استطاعت بقوة عزيمتها أن تقضي على المؤامرات والاضطرابات داخل القصر بسبب تنازع مستشاريها أستوراكيوس وأيتيوس.

كما استطاعت بحنكتها السياسية تهدئة الأمور والسيطرة على الاضطرابات التي أدت إلى قيام المجازر والمذابح بين طبقات المجتمع البيزنطي والتي كانت باسم الحروب الدينية، وكانت هذه

الحروب مع بداية ظهور الحركة الأيقونية واللائقونية التي تسببت في تشريد وموت ونفي العديد من الرهبان رجال الدين، تلك الحروب التي كان لها آثارها السلبية والإيجابية في الدولة في الداخل والخارج على حد سواء.

لم يقتصر تميز الإمبراطورة على حنكتها السياسية، بل تعدى إلى ميزات أخرى فقد كانت تحسن تدبر الأمور من أجل دوام حكمها، فعلى سبيل المثال استغلت حالة الجنود المتمردين وقامت بنقلهم إلى ثغور آسيا الصغرى للاستفادة منهم، وبذلك قضت على التمرد داخل الإمبراطورية، وفي الوقت نفسه استطاعت أن تحافظ على آسيا في الخارج، وهذا العمل الناجح إشارة إلى سعة أفق تفكيرها.

كما أن لمسات الإمبراطورة إيرين في الجانب الاقتصادي كانت واضحة وحقيقية، فقد عملت على تخفيف قيمة الضرائب التي أثقلت كاهل مواطنيها لاسيما في العاصمة القسطنطينية وبهذا استطاعت أن تفرض على سكان العاصمة الولاء لها، كما قامت بإصدار أوامرها بسك عملة بيزنطية تحمل صورتها واسمها تتكون من عملة جديدة تتداول في الأعمال التجارية في الإمبراطورية البيزنطية، حتى يتسنى لمعظم مواطني الإمبراطورية تقديم فروض الولاء والطاعة لها بشكل مُرضٍ وليس باستخدام القوة، وهذا ما رأيناه من التعاطف من السكان في عدم حدوث أية ثورة أو حتى ردة فعل عندما قامت الإمبراطورة بسمل عيني ابنها قسطنطين السادس وإبعاده عن العرش.

ويسوغ للإمبراطورة فعلتها هذه بأن ابنها هذا كاد أن يقود الإمبراطورية البيزنطية إلى الهاوية والانحيار بسبب سياسته الداخلية الهوجاء لاسيما فيما يتعلق بمسار سياسته الدينية عند زواجه الثاني، وقد فصلّ البحث في غير سلوك وفعل قام به قسطنطين السادس.

وكذلك بسبب سياسته الخارجية وانهزامه في جميع المعارك التي قادها آنذاك، فكان قرارها بإبعاده عن سدة الحكم مباركاً من رجال الدين الذين لم يدينوا الإمبراطورة قرار سمل عيني قسطنطين، لأن هذه العقوبة كانت قائمة قبل الإمبراطورة إيرين، فعلى مر تاريخ الإمبراطورية الرومانية الغربية والشرقية على حد سواء كانت هناك حوادث أشد قسوة ووحشية من عقاب الإمبراطورة الأم لابنها.

ولربما كان هذا_ كما سلف الذكر من قبل_ سبباً في الوقوف ضد ابنها وإبعاده عن العرش وبالتالي إدخاله إلى حياة الرهبنة والديرية. وعلى الرغم من هذه القسوة والوحشية في تعاملها مع

ابنها الوحيد فإنها امتازت بلقب أُنقى التقيات، وقد بينت الدراسة إخلاصها في معتقدها الديني والتزامها بطوقسه وروحانيته، ومما يقوي استحقاتها هذا اللقب -أيضاً- إبعادها الرجال عن حياتها واتخاذها مستشارين ووزراء من الخصيان.

كما أن حنكتها السياسية الخارجية تظهر جلية وواضحة بقبولها دفع الجزية السنوية لتجنب بلادها وجيوشها ويلات الحرب، التي لم يكن للإمبراطورة إيرين يد في نشوبها، وربما أن هذه الإمبراطورة قد قبلت هذا الوضع استفادة من تجارب الآخرين، فهذا ما قام به الإمبراطور قسطنطين الخامس الذي قام بدفع الجزية إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، وغيره كثير من أباطرة الإمبراطورية البيزنطية قبلوا بدفع الجزية، فما هو إلا تصرف حكيم، فكان على الإمبراطورة إيرين المحافظة على إمبراطورتها وعدم إهدار كرامتها وجهدها في حروب تعلم جيداً أنها ستخرج منها مهزومة، وهذا ما اضطرها إلى دفع الجزية إلى المسلمين والبلغار، على أن حنكة هذه الإمبراطورة توضحها بشدة تلك الهدن وأوقات السلام التي كانت تقيمها مع الدولة العباسية التي مثلت القوى الإسلامية آنذاك، بل ودخلت معها في علاقات اقتصادية وتجارية، وتعددت العلاقة بينها وبين الخليفة العباسي إلى المجال الثقافي وتبادل المخطوطات والكتب الدينية والطبية.

ومما يدل على حنكتها السياسية أيضاً سعيها إلى كسب ود القبائل البلغارية والخزرية بدلاً من الدخول معها في حروب لا جدوى منها، أما قبائل السلاف التي كانت دائماً سبباً في توتر مركز الإمبراطورية البيزنطية لاسيما في شبه جزيرة البيلوبونيز فقد استطاعت القضاء على تمرداتهم بالقوة وبذلك اعترف السلاف بولائهم للإمبراطورية البيزنطية في أثناء عهدها.

ومن ضمن الاستنتاجات التي توصل إليها البحث من خلال دراسة دفع الظلم الذي لحق بشخصية الإمبراطورة إيرين في العصر الحديث يتجلى في أنها قامت، وكما تذكر معظم المصادر العربية والأجنبية، بالتخلص من القادة الأكفيا بإبعادهم عن الشؤون الإدارية والعسكرية، غير أن المتابع لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية خلال حقبة حكم الإمبراطورة إيرين يرى أنه ورد ذكر هؤلاء القادة في المعارك التي خاضتها الإمبراطورة.

كما أن الإمبراطورة إيرين لا تعد مغتصبة عرش الإمبراطورية البيزنطية _ في نظر البابوية وشارلمان _ أو بعبارة أدق كان العرش شاغراً، وهذا ما أكدته ممثلو البابوية (البابا ليون وحليفه شارلمان) لنبد الإمبراطورة إيرين لتوحيد شطري الإمبراطورية الشرقي والغربي، فلو أن كانت

البابوية تعدّ هذه الإمبراطورة مغتصبة أو حتى رأت أن العرش بعد قسطنطين السادس عدّ شاغراً لقامت بالزحف نحو القسطنطينية وتوجت شارلمان إمبراطوراً هناك.

ومن أهم نتائج هذا البحث أيضاً أن الإمبراطورة إيرين لم تكن سبباً في الانشقاق الذي حدث في العالم المسيحي في ذلك الوقت؛ إذ إن البابوية منذ نشأتها الأولى كانت تطمح إلى الاستقلال من تبعية الرومان البيزنطيين، وأكبر دليل على ذلك هو استغناؤها عن طلب المساعدة من بيزنطة نفسها عندما ظهرت في الغرب شخصية قوية متمثلة في دولة الفرنجة وعلى رأسها الملك بيبين القصير ثم شارلمان، فضلاً عن المحاولات الحثيثة التي قامت بها الإمبراطورة من أجل لم الشقاق بدعوة بابا روما إلى الحضور المجمع الديني السابع الذي قام بدعوة من الإمبراطورة إيرين إلا أن الأخير أرسل مندوبين عنه لحضور هذا المجمع الذي نقلت آراءه مشوهة إلى ممالك الغرب التي دعت لعقد مجمع فرانكفورت للحط من منزلة الإمبراطورة وابنها وكذلك الإمبراطورية البيزنطية بل وكنيستها الشرقية.

وعلى الرغم من ذلك فإن الانشقاق الكبير بين الكنيستين الشرقية والغربية لم يحدث إلا بعد عدة قرون وتحديداً سنة ١٠٥٤م أي بعد عقد مجمع القسطنطينية في يوليو من العام نفسه وذلك زمن الأسرة المقدونية.

ولو نظرنا إلى الأحداث الخطيرة التي حدثت بعد وفاة البابا هادريان وكيف أن شارلمان لم يكن يعلم بنوايا البابا الجديد ليون الثالث وكيف استطاع التقرب منه، وكذلك نشوب الثورة ضد البابا من أقارب البابا الأسبق هادريان حليف الفرنجة الأول ضد بيزنطة، لوجدنا أن هناك تخطيطاً مسبقاً من الملك الكارولنجي شارلمان ضده، وهذا ما يفسر لنا كيف أن البابا ليون الثالث وحده قد تخلص من ثورة الرعايا في روما التي قامت ضده، وكيف أنه نجا بأعجوبة من عقوبة شق اللسان وسمل العينين بل والموت، وكيف أنه فرّ لاجئاً إلى شارلمان الذي وعده بالقتصاص ممن كان له يد في هذه الاضطرابات. إذ نجده يقوم بمعاقبتهم ليس بالقتل ولا بالتشريد إلى جزر بعيدة (لسبوس) ولا بسمل العيون كما عهدنا دائماً في العصور الوسطى، وإنما بنفيهم إلى مملكة الفرنجة وكيف صادفت محاكمتهم وكذلك صلاته في كنيسة بطرس بروما ليوم عيد الفصح، وقبوله بالتاج من يد البابا ليون الثالث لوجدنا أن دهاء سياسة شارلمان كانت وراء هذه الأحداث جميعاً.

وكما جرت العادة في حالة عدم الرغبة في حاكم أو إمبراطور تقوم ضده ثورات وتمرد ومنازعات وحروب أهلية حتى يتم قتله أو إبعاده وإحضار غيره _ وهذا ما لم يقف البحث عليه من خلال المراجع التي وقعت بين يدي الباحث _ إلى أن قامت ثورة نقفور الأول _ والتي لم تكن لها مقومات الثورة _ وهو وزير ماليتها الذي استغل سوء حالتها الصحية وتآمر مع بعض رجاله وقام بدخول القصر ليلاً قاصداً مخدعها مجبراً إياها على التنازل عن العرش، واستولى على كل الثروات والكنوز التي كانت موجودة في البلاط البيزنطي، وقدم لها الوعود بإعطائها الأمان ووعداً بمكوئها بقصر اللاتيريان الذي قامت بتشبيده بنفسها، إلا أنه أخلف بوعده لها بمجرد استيلائه على الثروات وقام بإبعادها إلى جزيرة لسبوس لضمان عدم عودتها إلى العرش مرة أخرى.

وهكذا نرى أن حكم الإمبراطورة إيرين لم تُنهه ثورة عسكرية أو شعبية، فهي قد استطاعت أن تكسب حب الناس وجميع الطوائف الدينية، بل إن العديد من الثورات التي قامت في عهد مغتصب العرش نقفور الأول كانت تطالب برجوع الإمبراطورة إيرين إلى العرش، غير أن وفاتها ٨٠٣م عقب وصولها إلى جزيرة لسبوس أنهت فكرة عودتها إلى سدة الحكم.

وبوفاة هذه الإمبراطورة انطوت صفحة مهمة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية التي أدت دوراً مهماً في التاريخ العالمي.

وفي الختام أدعو الله تعالى أن أكون قد وفقت فيما سعيت لأجله، وما قدرت عليه همتي فإن الكمال لله وحده، ومنه استمد العون في استدراك ما فاتني، وهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

والحمد لله رب العالمين

الملحقات

الملحق الأول

تتويج قسطنطين السادس

بعد وفاة قسطنطين الخامس تولى ابنه -ويدعى ليون الرابع الخزري- وقد ورث عن أبيه ثروات ضخمة، أنفقها في البذخ، وكان يكرم الأشراف والنبلاء محباً للرهبان، مما دفع إلى تجمع ولاية الأقاليم مع أعداد كبيرة من الناس ورحلوا إلى العاصمة برفقتهم أعداد كبيرة من الجيش وأعضاء من مجلس الشيوخ وأصحاب الحرف والطبقات المتميزة من المجتمع البيزنطي، حيث طالبوا بأن يتولى ابنه قسطنطين السادس عرش الإمبراطورية البيزنطية، أما هو فبسبب خوفه من أخوته قال: "إن ولدي وهو وحيد وأني متردد أن أعينه في هذا المنصب خشية أن تقوموا أنتم بعد أن أقضي نحبي، وبسبب صغر سنه وتنصبون مكانه أميراً آخر"، فأقسموا له الأيمان المغلظة ألا ينصبوا أحداً غير ابنه وأنهم مصررون على ذلك وأقسم ولاية الأقاليم وقادة الجيشوسكان المدينة ألا يخضعوا إلأى إمبراطور سوى لليون وابنه قسطنطين السادس، وفي صباح اليوم التالي وكان عيد السيدة مريم العذراء توج في ملعب الهيبودريوم بحضور والده والبطريرك والناس جميعاً بمختلف طبقاتهم.

- وديع عبد الله، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٣٦٢.

الملحق الثاني

خطاب شارلمان إلى البابا ليون الثالث عام ٧٩٦م

من الخطاب الذي أرسله إلى البابا ليو الثالث أوضح فيه شارلمان أن واجباته ليست إلا واجبات روحية "شارل برعاية الله ملك الفرنجة واللومبارديين وبطريق الرومان" يبعث بتحياته إلى قداسة البابا ليو "فمنذ أن وقعت اتفاقية مع سلفك الأب المقدس فإنني أرغب أيضاً في عقد معاهدة لا تنفصم عراها معك، معاهدة للحب والإخلاص المتبادل ومن ناحيتك عليك أن تصلي من أجلي وتمنحني البركات الرسولية، ومن ناحيتي وبعون الله فإنني سأدافع عن الكرسي المقدس للكنيسة الرومانية المقدسة، لأن واجبنا أن ندافع عن كنيسة المسيح المقدسة من هجمات الوثنيين والكفرة،

وذلك من أجل تقوية نشر العقيدة الكاثوليكية، فهذا واجبك أيها الأب المقدس أن تساعدنا في حروبنا، بأن ترفع يدك إلى السماء كما فعل موسى عليه السلام، وبشفاعتك ووساطتك فسيحرز العالم المسيحي النصر على الأعداء دائماً تحت سلطة الرب وبالاسم المقدس وباسم يسوعنا المسيح سيمجدون في كل أرجاء العالم، وإلى جانب القوانين الكنسية والطاعة الدائمة لتعاليم الآباء المقدسين فإن حياتك ستصبح مثلاً للقداسة أمام الجميع، ونصائحك المقدسة سيعمل بها في كل مكان في العالم، وسيضيء نورك أمام الناس الذين يسرون على نهجك الصالح، وسيمجدون آباءك الذين هم في السماء، وندعو الله القادر أن يحفظ قداستك من أي ضرر طول السنين من أجل إعلاء شأن كنيستك المقدسة"

-صبرة، عفاف سيد، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٨٩.

الملحق الثالث

من الحوليات الملكية الفرنجية ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠م

في ذلك اليوم المقدس يوم ميلاد السيد المسيح عندما كان الملك شارلمان في روما أمام مذبح الرسول بطرس المبارك وعندما فرغ من الصلاة وضع البابا ليو الثالث التاج على رأسه فهتف شعب روما كله "الحياة والنصر لشارلمان العظيم المتوج من الرب إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام".

وبعد هذا التمجيد وقَّره البابا على طريقة الأباطرة القدامى وبدلاً من تلقيبه بالبطيريك فقد لقب بالإمبراطور أغسطس العظيم.

—صبرة، عفاف سيد، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٣٩١.

الملحق الرابع

المجامع المسكونية

تعد المجامع الكنسية المسكونية ركناً هاماً من أركان التنظيم الكنسي في العصور الوسطى، استلزم انتشار المسيحية وما صاحبه من اتساع نفوذ الكنيسة عقد كثير من المجامع الدينية منذ القرن الرابع من أجل حل المسائل الشائكة التي صاحبت انتشار المسيحية من جهة، وتنظيم شؤون الكنيسة وتدعيم سلطانها من جهة أخرى، ومن هذه المجامع ما اتخذ طابعاً عاماً عالمياً فحضرها الأساقفة من أنحاء العالم المسيحي كافة ليتدارسوا سوياً المشكلات التي واجهتهم في مناطق نفوذهم، أو ليجتنبوا أوجه الخلاف فيما بينهم ويزيلوا سوء الفهم من عقولهم عن طريق الحجة والإقناع، وكانت هذه المجامع تجمع بين أعضاء الكنيسة في الشرق والغرب، حتى كان الانشقاق الكبير الذي حدث في القرن التاسع على عهد البطريرك فوتيوس، الذي انتهت تداعياته في القرن الحادي عشر سنة ١٠٥٤م بالانفصال التام بين الكنيستين، ومنذ ذلك الوقت أصبحت المجامع التي تُعقد في الغرب لا تختص إلا بشؤون الكنيسة الغربية، وقد أحصيت جميعها في عشرين مجعاً، ولكن ما يهم البحث هنا المجامع السبعة التي عقدت في الشرق بكنيسة القسطنطينية، إذ تُعد هي والكتب المقدسة أساساً للعقيدة الأرثوذكسية، فقد دعا كل منهما للاجتماع من أجل البت في نقطة خاصة من نقاط اللاهوت وإصدار حكمه ضد زندقة معينة:

- المجمع المسكوني الأول ٣٢٥م:

عقد المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م برئاسة الإمبراطور قسطنطين الأول (٣٢٣-٣٣٧م) في مدينة نيقية، وقد حضره ما يقرب من ٣١٨ أسقفاً وكانت مهمته مناقشة النزاع الذي نشب بين اثنين من قساوسة الإسكندرية وهما أريوس وأثناسيوس، فقد اعتقد أريوس أن المسيح الابن أدنى مرتبة من الإله (الأب) والأب وحده في نظر أريوس استحق لقب الإله، أما الابن فإنه لم يكن سوى إله ثانوي منخفض في الرتبة والمنزلة، وهو مخلوق غير مولود، أي أن أريوس وضع محاولة جديدة لتأكيد وحدانية الأب، بينما تمسك خصوم أريوس بمساواة الابن للأب في الجوهر وأن الابن غير مخلوق، وفي النهاية لعن المجمع أريوس وحرّم آراءه.

وعلى الرغم من فشل المجمع الأول في استئصال الآريوسية إلا أن النزاع ذاته ساهم في تقسيم الإمبراطورية من الوجهة الدينية، إذ أخذت الآريوسية في الانتشار في القسم الغربي.

والجدير بالذكر أن مجمع نيقية هو أول مجمع مسكوني عالمي نجح في صياغة بعض القواعد الأساسية للعقيدة والإيمان لتكون رباطاً فكرياً يشد المسيحيين في شطري العالم المسيحي، وعُرفت هذه القواعد بقانون الإيمان النيقاوي كما تم الاعتراف رسمياً في هذا المجمع بوجود ثلاث كراسٍ بطيركية في العالم المسيحي مرتبة على الشكل الآتي-روما- الإسكندرية- أنطاكية.

- العريني، السيد الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٣٢.

- المجمع المسكوني الثاني ٣٨١م:

نظر إلى أسقف القسطنطينية في ذلك الوقت على أنه مجرد أسقف مساعد لرئيس أساقفة هرقلية، وهذا بطبيعة الحال لا يتناسب مع العاصمة الجديدة التي يتحتم أن يتمتع أسقفها بمقام أكثر علواً ويتناسب مع مقام العاصمة الجديدة، وعلى هذا سرعان ما جاء المجمع المسكوني الثاني عام ٣٨١م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٩-٣٩٥م) وقد حضره ما يقرب من ١٥٠ أسقفًا ليبت في شأن القوانين التي أصدرها "أما أسقف القسطنطينية فله التقدم في المنزلة بعد أسقف روما مباشرةً لأن القسطنطينية هي روما الجديدة"، غير أن الوضع لم يهدأ على الرغم من أنها لم تهدد أسقف روما كما هددت أسقف الإسكندرية، فقد أخذت العلاقات بين روما والقسطنطينية تسوء، أو بالأحرى بدأ النزاع بينهما، وذلك أن أسقف روما استشاط غضباً من جراء هذا الارتفاع المفاجئ لأسقف القسطنطينية، وافتتح البابا داماسيوس الأول (٣٦٦-٣٨٤م) أولى صفحات النزاع مع القسطنطينية إذ عقد مجمعاً محلياً في روما في العام التالي احتج فيه بشدة على جعل أسقف القسطنطينية بالمرتبة الثانية بعد أسقف روما، وبالتالي رفض الاعتراف بهذه الترقية، وأكد مجدداً الترتيب الذي أقره المجمع المسكوني الأول فيما يتعلق بكرسي الأسقفية في العالم المسيحي، ولم يكن بإمكان أسقف روما الجديدة التي أسست بعد أكثر من ثلاثة قرون من مولد السيد المسيح التراجع إزاء غضب واستياء روما القديمة التي أسست وعاشت أيامها في عهد الوثنية، ولهذا فقد كان على بطريرك القسطنطينية أن يشق طريقه من خلال صراع طويل، ليس ضد بطريرك بابا روما فحسب، وإنما ضد بطريرك الإسكندرية أيضاً، الذي استاء بدوره من تقديم أسقف القسطنطينية عليه.

- بينز، نورمان، الإمبراطورية البيزنطية، تر: حسين مؤنس، الدار القومية، د، م، د، ت، ص ٩٨-٩٩-١٠٠.

- المجمع المسكوني الثالث ٤٣١م:

عقد المجمع المسكوني الثالث بمدينة أفسوس، وذلك لمناقشة الآراء التي طرحها بطريرك القسطنطينية في ذلك الوقت وهو نسطوريوس (٤٢٨-٤٣١م) فقد قال إن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية، ولم يقر بأن المسيح هو من مريم البتول "عليها السلام" وأنها ولدت إله، لذلك لعن المجمع آراء نسطوريوس وحرمه من الكنيسة، وأقر أن المسيح هو ابن الله الوحيد، وأنه تجسد من روح القدس ومن مريم العذراء، وقد جاءت معارضة نسطوريوس من كيرلس بطريرك الإسكندرية، الذي عد المسيح إنساناً اتحدت فيه الطبيعتان، وبذلك تغلب كيرلس على نسطوريوس سياسياً ودينياً بفضل ما لقيه من مساعدة الرهبان وتأييد بابا روما، وعلى الرغم من أن الإمبراطور كان يؤيد نسطوريوس فإن ذلك لم يمنع المجمع المسكوني الثالث من الحكم عليه بالزندقة والإلحاد ونفيه إلى مصر، حيث أمضى بها ما تبقى من حياته، وتطلع كيرلس إلى تزعج الكنيسة الشرقية مما أدى إلى تحالف كنيستي روما والقسطنطينية لمناهضة كنيسة الإسكندرية.

- بينز، نورمان، الإمبراطورية البيزنطية، تر: حسين مؤنس، الدار القومية، د، م، د، ت، ص ٩٨-٩٩-١٠٠

- المجمع المسكوني الرابع ٤٥١م:

جاء المجمع المسكوني الرابع ليدفع بالعلاقات بين روما والقسطنطينية إلى حالة أكثر تعقيداً، فقد دعا الإمبراطور الجديد ماركيان (٤٥٠-٤٥٧م) إلى عقد مجمع مسكوني بخلقدونية بآسيا الصغرى، تقرر فيه تحديد العقيدة الدينية المتعلقة بطبيعتي المسيح فعلاً كلاً من الطبيعتين كاملة مستقلة غير قابلة للانقسام، وكل من الطبيعتين مستقلة عن الأخرى، وأنكر نحلة المونوفيزيتين والنسطوريين، ويُعدّ هذا المذهب وسطاً بين المونوفيزيتية والنسطورية، فالخلاص في مذهب خلقدونية إنما جاء على يد المخلص الذي يُعدّ إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً.

وبذلك خرجت القسطنطينية منتصرة وكان انتصارها مشتملاً على تقرير العقيدة وصياغتها وعلى الأمور المرتبطة بسياسة الكنيسة، إذ استطاعت أن تنتزع اعترافاً بدعاويها ومطالبها وصدارتها للكنيسة وفقاً لما جاء به المجمع المسكوني المنعقد عام ٣٨١م، وبذلك تكون القسطنطينية على قدم المساواة مع روما، وسوف يترتب على ذلك ما وقع فيما بعد من العداء بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب التنافس على الصدارة.

- بينز، نورمان، الإمبراطورية البيزنطية، تر: حسين مؤنس، الدار القومية، د، م، د، ت، ص ١٠٣-١٠٤.

- المجمع المسكوني الخامس ٥٥٣م:

دعا إلى عقد هذا المجمع الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) عام ٥٥٣م، لكي يضع حداً لهذا النزاع الجديد وذلك في القسطنطينية، وحضره ١٦٥ أسقفًا بينهم أفينشيوس بطريرك القسطنطينية وأبوليناريوس بطريرك الإسكندرية وذهنوس بطريرك أنطاكية ونائبان عن بطريرك القدس، وكان البابا فيجيليوس لا يزال في القسطنطينية مع عدد من أساقفة الغرب فدعي إلى الاشتراك في المجمع وترأس الجلسات، ولكنه امتنع فترأس المجمع بطريرك القسطنطينية وأقر قرارات المجامع المسكونية السابقة جميعها، وفي الجلسة الختامية وجه المجمع لوماً شديداً إلى بابا روما لأنه امتنع عن الاشتراك في المجلس، وعدّ جستنيان قرارات المجمع ملزمة، وأكره الأساقفة على قبولها، ونفى من عارضها وفي مقدمتهم البابا فيجيليوس فقد أكره على الإقامة في إحدى جزر مرمرا، ثم وافق فيجيليوس على قرار المجمع فأذن له بالعودة إلى روما، لكنه توفي قبل وصوله وأصر أساقفة الغرب على موقفهم وامتنعوا عن الخضوع إلى قرار المجمع الخامس، وأصر أصحاب الطبيعة الواحدة على متابعة الانفصال وهكذا أخفق جستنيان في تحقيق وحدة الكنيسة إذ وافته المنية قبل تحقيق ذلك.

-أومان، الإمبراطورية البيزنطية، تر: مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٨١-٨٢.

- المجمع المسكوني السادس ٦٨٠م:

في عام ٦٨٠م رتب الإمبراطور قسطنطين الرابع (الملتحي) (٦٦٨-٦٨٥م) في القسطنطينية عقد المجمع المسكوني السادس في قاعة البلاط المقدس، وحضر هذا المجمع ما يقرب من ١٧٠ أسقفًا، في طليعتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ورئيس أساقفة هرقلية وأثينة وأنطاكية والإسكندرية وروما، وتمت قراءة قرارات جميع المجامع الخمسة السابقة، وقد أصر مكاريوس بطريرك أنطاكية على أن للمسيح طبيعتين أو مشيئتين فتم قطعه من البطريركية ونفيه، وتقرر أيضاً بطلان المونوتلستية وإنكار المونوفيزتية وإنكار المونوفيزتية، وعلى الرغم من أن البطريركيات الشرقية قد خرجت من العالم المسيحي إلا أن البطارقة قد شاركوا في هذا المجمع، ونهاية الجلسة وبعد أن تم توقيع قرارات المجمع هتف أعضاء المجمع بحياة الإمبراطور وعدّوه حامياً للكنيسة وشارحاً للعقيدة الصحيحة ومحطماً للهرطقة.

-العريني، السيد الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٥٤-١٥٥.

– المجمع المسكوني السابع ٧٨٧م:

تم الحديث عنه في الفصل الثالث حول الأيقونات، ومع أن الحركة انتعشت ثانية في القرن الثاني إلا أنها كانت سياسية إلى حد كبير وقصيرة الأجل بل وضعيفة أيضاً، ولم تلق الكنيسة بعد انقشاع مذهب التحطيم متاعب من أية زندقة داخلية خطيرة.

الجداول

جدول بالسنوات الهجرية والميلادية
يبين أهم الأحداث المعاصرة للإمبراطورة إيرين
من عام ١٦٤-١٨٧هـ / ٧٨٠-٨٠٣م

السنوات الهجرية	السنوات الميلادية	أهم الأحداث والوقائع
164	780	● وفاة الإمبراطور ليون الرابع "الخزري" وتتصيب ابنه قسطنطين السادس إمبراطوراً على الإمبراطورية البيزنطية، وتولي أمه إيرين الوصاية عليه، وقد كانت هذه الأحداث معاصرة للخليفة العباسي المهدي. ● تعيين البطريرك بولص الرابع بطريكاً على كنيسة القسطنطينية. ● ثورة القيصر نفقور وإخوته على الحكم، ونجاح الإدارة السياسية المتمثلة في الوصية إيرين في إجبارهم على التنازل عن العرش في يوم عيد الفصح بكنيسة آيا صوفيا.
	781	● أعادت الإمبراطورة إيرين تنظيم البنود البيزنطية في منطقة آسيا الصغرى. ● جيوش الروم بقيادة ميخائيل لاخاندراكون وطازاد الأرمني تهاجم الجيوش الإسلامية بقيادة عبد الكبير بن عبد الحميد فيأمر هذا القائد الجيش بالامتناع عن القتال فيغضب عليه المهدي ويسحبه. ● إرسال إيرين السفارة إلى البلاط الفرنجي لطلب يد الأميرة روترودة Rotruda لابنها الإمبراطور قسطنطين السادس، أعقبتها سفارة ثانية لتعليمها ما كان متبعاً في البلاط البيزنطي من قيم وعادات وتقاليده.

السنوات الهجرية	السنوات الميلادية	أهم الأحداث والوقائع
165	781	• اندلاع ثورة صقلية بقيادة البيديوس ومساعي الوصية إيرين في قمعها في العام التالي.
165	782	• استعدادات الخليفة المهدي من أجل تعبئة القوات العباسية وتجهيزها على أكمل وجه، وجعل قيادتها لابنه هارون الرشيد ومعه القادة الأكفيا.
166	782	• عقد الصلح بين الدولتين بعد موقعة خليج البوسفور متضمنة شروطاً عدة.
167	783	• قيام الوصية إيرين بإرسال حملة ضد قبائل السلاف تحت قيادة مستشارها أوستوراكوس، محققاً عليهم نصراً حاسماً، ومجبرة إياها على دفع جزية سنوية إلى الإمبراطورية البيزنطية.
168	784	• العمل على إرسال حملة أخرى إلى مناطق السلاف بقيادة ابنها قسطنطين السادس لتأكيد تبعيتهم إلى الإمبراطورية البيزنطية والولاء لإيرين. • وفاة البطريرك القسطنطيني بولص الرابع وتعيين خلف له على بطريركية القسطنطينية وهو البطريرك تاراسيوس.
169	785	• وفاة الخليفة العباسي المهدي، وتولى الخلافة العباسية من بعده ابنه موسى الهادي. • هجوم البيزنطيين على الحدث وقيامهم باجتياحها فأرسل الخليفة الهادي العباسي حملة لهم بقيادة معيوف بن يحيى، غير أن القوات البيزنطية كانت قد انسحبت منها قبل وصول القوات العباسية.

السنوات الهجرية	السنوات الميلادي	أهم الأحداث والوقائع
170	786	- إصدار الأوامر الإمبراطورية من أجل عقد مجمع ديني عالمي، لكن سرعان ما ألغي بسبب ثورة الجند، غير أن إيرين استطاعت بحكمتها السياسية الانتصار على هذه الانتفاضة و إزاحتها من طريقها. - وفاة الخليفة العباسي موسى الهادي، وتولي الخلافة الإسلامية العباسية من بعده أخوه هارون الرشيد.
171	787	- نجاح الوصية إيرين في الدعوة إلى عقد مجمع ديني مسكوني عالمي وهو السابع والأخير في تاريخ الكنيسة المسيحية بصفة عامة والكنيسة الشرقية بصفة خاصة - هجرة أعداد كبيرة من الأرمن تقدر بنحو اثني عشر ألف شخص إلى أراضي الإمبراطورية البيزنطية واستقرارهم فيها بسبب كثرة الضرائب المقررة عليهم من عامل هارون الرشيد.
172	788	- هجوم قبائل البلغار على بند تراقيا محققة النصر فيها. - إرسال صائفة بقيادة يزيد بن عنبسة الحرثي، فتمكن من الانتصار على قوات بيزنطة في بند الأناضول وقتل القائد البيزنطي ديجينيس Degenis.
173	789	تعرض القوات البيزنطية التي كانت تحت قيادة الإمبراطور قسطنطين السادس لهزيمة منكرة عند حصن ماكيلاري على يد قبائل البلغار.
174	790	- نجاح الأسطول البيزنطي في إلحاق الهزيمة بالأسطول الإسلامي المتوجه من مصر لشن حملة بحرية على قبرص. - ابتعاد الوصية الأم إيرين على العرش وتولي ابنها قسطنطين السادس الحكم إمبراطوراً منفرداً على الإمبراطورية البيزنطية.

أهم الأحداث والوقائع	السنوات الميلادية	السنوات الهجرية
قيادة الإمبراطور قسطنطين السادس الجيش متوجهاً إلى قتال المسلمين ولكنه سرعان ما عاد أدراجه.	791	175
عودة الإمبراطورة إيرين إلى الحكم.	792	175
- حصار حصن ديبسه البيزنطي من الصائفة العباسية التي كانت بقيادة عبد الرحمن ابن عبد الملك. - خروج الإمبراطور قسطنطين السادس من أجل محاربة قبائل البلغار ومقتل القائد ميخائيل لاخاندراكون، وفرار الإمبراطور من ساحة القتال مما اضطرت الإمبراطورة إيرين إلى أن تدفع الجزية لهم.	792	176
اندلاع ثورة أرمينية واجتياحها معظم أرجاء آسيا الصغرى، مما دعا بالإمبراطور قسطنطين السادس إلى الخروج من أجل مواجهتها.	793	177
- تمكن قسطنطين السادس من صد الهجوم الإسلامي جنوب الأناضول، ومنع القوات الإسلامية من الوصول إلى الساحل الغربي. - وفاة بابا روما رئيس كنيسة القديس بطرس هادريان وتولي البابا ليو الثالث خلفاً له - نجاح الدبلوماسية البيزنطية في عقد هدنة مع بلغاريا أعقبتها فترة سلام وهدوء استمرت مدة عشر سنوات على الجبهة البيزنطية البلغارية.	795	179
- اجتياز الإمبراطور قسطنطين السادس منطقة البنود في آسيا الصغرى، وتمكنه من فتح حصن يُسمى الصفصاف في أقصى بوابات قليقية. - وفاة ليو ابن الإمبراطور قسطنطين السادس.	797	181

السنوات الهجرية	السنوات الميلادية	أهم الوقائع والأحداث
		• صدور القرار بشأن سمل عيني الإمبراطور قسطنطين السادس وتحتيته عن الحكم، لتتولى الإمبراطورة إيرين بدلاً عنه عرش الإمبراطورية البيزنطية.
182	798	• تمكن الإمبراطورة إيرين من إحباط ثورة سلافية تزعمتها إحدى القبائل السلافية وتدعى فلزتي Velzeti بقيادة ثائر يُسمى أكامير بهدف إسقاطها. • إرسال الخلافة العباسية حملة بقيادة صالح بن عبد الملك إلى قبادوقيا، وتمكنه من الاستيلاء على حضائر خاصة لستوراكوس، وقد وصلت هذه الحملة حتى أفسوس على الساحل الإيجي.
183	799	• اتخاذ الإمبراطورة إيرين سياسة تحريضية مع قبائل الخزر الذين كبّدوا المسلمين خسائر فادحة، مما أزعج الخلافة العباسية فاستعدت لغزوهم منشغلة بهم عن الجبهة البيزنطية. • عقد هدنة ثانية بين الإمبراطورة إيرين وال خليفة العباسي هارون الرشيد لمدة أربع سنوات تمّ فيها تبادل الأسرى، وقد أشرف على ذلك القاسم بن الرشيد.
184	800	• تتويج ملك الفرنجة شارلمان إمبراطوراً على الغرب المسيحي في كنيسة القديس بطرس في روما على يد البابا ليو الثالث.
185	802	• وصول الوفود والسفراء من البابوية بروما والبلاط الفرنجي من أجل طلب يد الإمبراطورة إيرين لإمبراطور الغرب شارلمان. • ثورة وزير المالية نقفور الأول على الإمبراطورة إيرين وإقصاؤها عن العرش البيزنطي واستيلائه على ثروات القصر.
186	802	• هزيمة القوات البيزنطية أمام القوات العباسية التي كانت بقيادة نقفور نفسه وإرغامه بدفع جزية عن نفسه وابنه ويطاركته.
187	803	• وفاة الأمبراطورة إيرين في المنفى بجزيرة لسبوس، وبذلك أسدل الستار على آخر أفراد البيت الأيسوري.

جدول بأسماء الأباطرة البيزنطيين الوارد ذكرهم في الدراسة

الإمبراطور	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
دقليانوس		305-284
قسطنطين الأول		337-323
فانز		378-364
مارقيان		357-450
جستنيان الأول		365-527
موريس		602-582
فوكاس		610-602
هرقل الأول	21	641-610
قسطنطين الثالث	21	641-613
هراقليوناس	21-17	641-38
وصاية مارتينا	21	641
قسطنز الثاني	48-21	668-641
قسطنطين الرابع	48-38	668-659
هرقل الثاني	61-39	681-659
تيباروس	61-39	681-659
الإمبراطور	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
قسطنطين الرابع "الملطي"	65-48	685-668
جستنيان الثاني "الأجدع"	76-65	695-685
ليو نتيوس	79-76	698-695
تيباريوس الثالث "إيسمار"	86-79	705-698
جستنيان الثاني "الأجدع"	92-86	711-705
تيباريوس	92-88	711-706
فيلبيكوس باردانس	94-92	713-711
أنستاسيوس الثاني	96-94	715-713
ثيودسيوس الثالث	99-96	717-715

740-717	122-99	ليون الثالث الأيسوري
775-740	158-123	قسطنطين الخامس
780-775	164-158	ليون الرابع
797-780	181-164	قسطنطين السادس
790-780	174-164	وصاية إيرين
797-792	181-176	قسطنطين السادس
802-797	186-181	إيرين
التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الإمبراطور
811-802	196-(187-186)	نقفور الأول
811	196	ستوراكوس
813-811	198-196	ميخائيل الأول رانجابه
820-813	205-198	ليون الخامس الأرمني
829-820	214-205	ميخائيل الثاني العموري

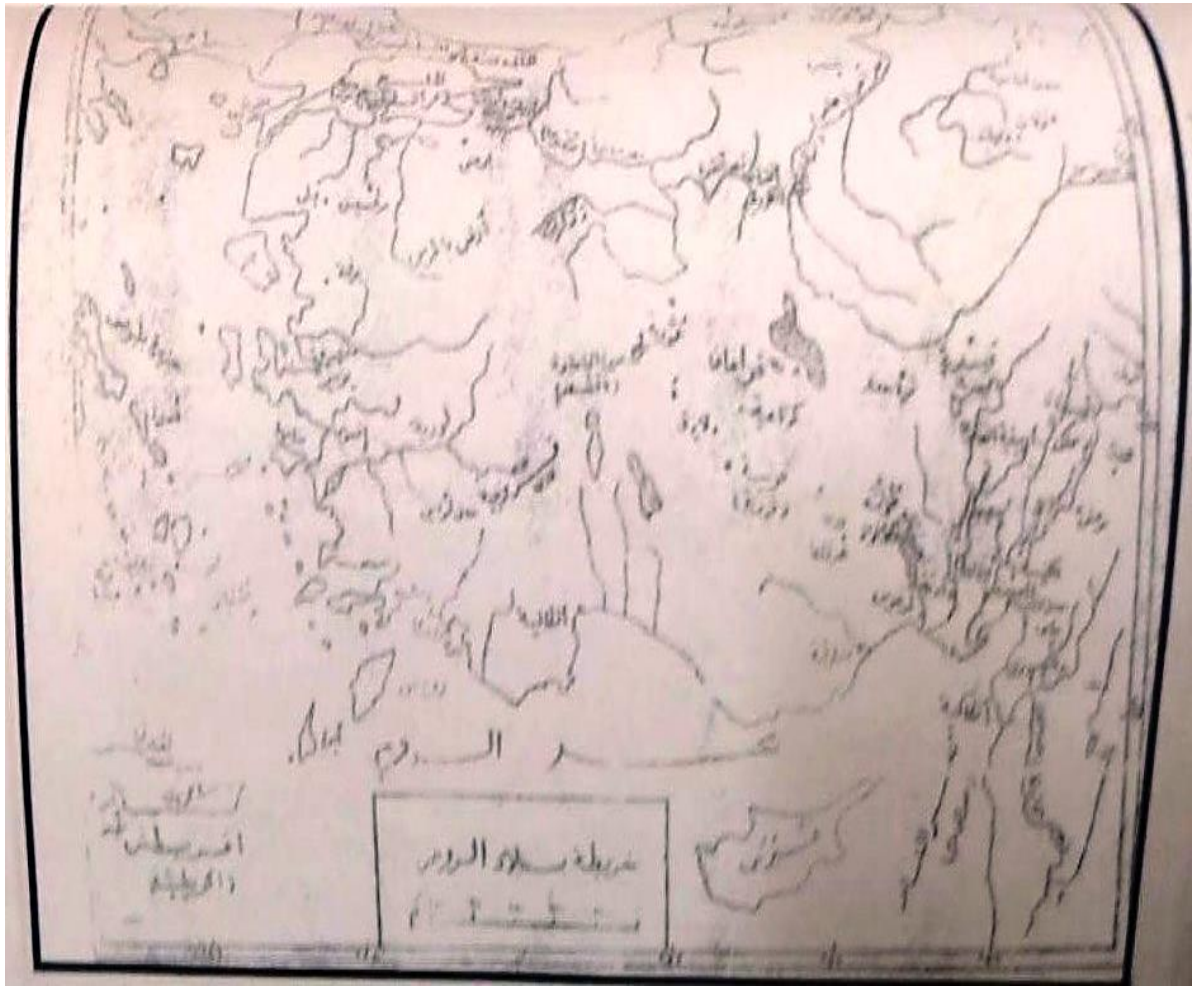
باباوات وبطارقة القسطنطينية وروما الوارد ذكرهم في الدراسة

الباباوات والبطارقة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
أولاً: باباوات القسطنطينية:		
بولس الأول		339-337
جريجوري الأول		381-379
نسطوريوش		431-428
سرجيوس الأول	17	638-610
قسطنطين الأول	57-55	677-675
فيروس	93-86	712-705
يوحنا السادس	96-93	715-712
جرمانوس الأول	110-96	729-715
أناستاسيوس	135-110	752-729
بولص الرابع	168-162	784-780
تاراسيوس	190-168	806-784
نقفور الأول	200-190	815-806
ثيودوتوس مليسنوس	206-200	821-815

باباوات روما:

461-440		أبو العظيم
555-537		فيجيليوس
604-590		جريجوري الأول
638-625	17-4	أونوريوس الأول
642-640	21-19	يوحنا الرابع
701-687	82-67	سرجيوس
731-715	112-96	جريجوري الثاني
741-731	123-112	جريجوري الثالث
752-741	134-123	زكريا
772-768	155-151	إستيفن الثالث
795-772	179-155	هادريان الأول
816-795	201-179	ليو الثالث

الخرائط



خريطة رقم (١) ماجد، عبد المنعم علي المينا: الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، ب، ت، ص ٢٥. (لأقاليم وممتلكات الإمبراطورية البيزنطية)



خريطة رقم (٢) إبنود الإمبراطورية البيزنطية بآسيا الصغرى. العريني، الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٦١.



خريطة توضيحية (٣) لمراكز النشاط السياسي بين الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية في عهد الإمبراطور ليو الرابع. ٧٧٥-٧٨٠ م . . العريني، الباز، الدولة البيزنطية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١٦٢



رسم تخطيطي (٤) لحصار هارون الرشيد في منطقة نيقوميديا في عام ١٦٥هـ/٧٨٢م



خريطة (٥) توضيحية لبند تراقيا أثناء تعرضه لهجوم البلغار عام ١٧٢هـ/٧٨٨م. نقلاً عن وديع عبد الله، وديع فتحي، العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٤٣٠.

الصور



العملة البيزنطية التي قامت الإمبراطورة إيرين بسكها واضعة عليها صورتها وأسمها "إيرين
مستبد وعظيم الرومان

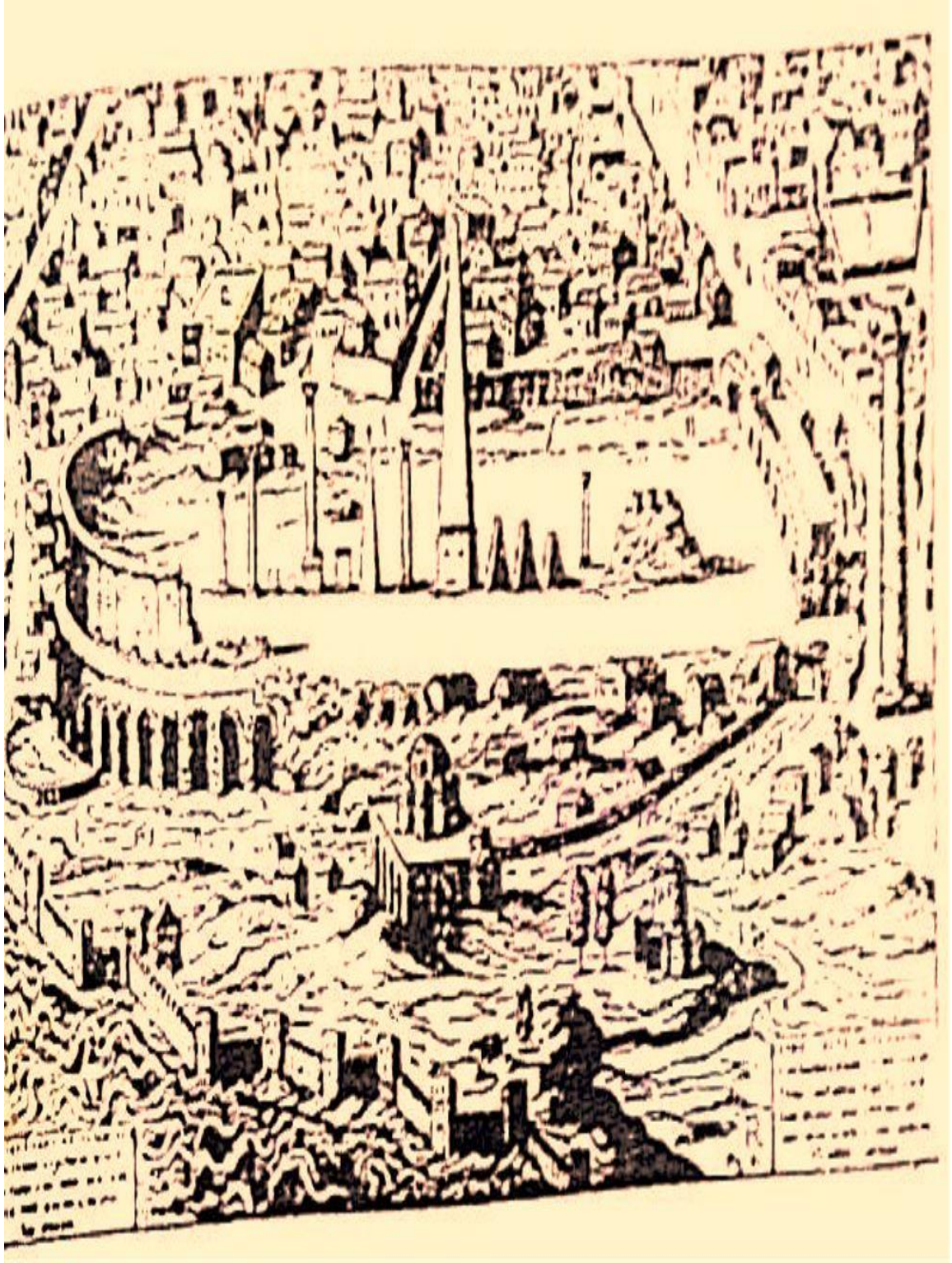
هاملتون، السير جون، ظهور الأمم ٧٣٢-٨٦٧م، تر: عامر بحيري، موسوعة تاريخ العالم،
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د، ت، ص ٤٦٠



هاملتون، السير جون، ظهور الأمم ٧٣٢-٨٦٧م، تر: عامر بحيري، موسوعة تاريخ العالم،
مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د، ت، ص ٤٦٠



الزخارف الجدارية من كنيسة سانت صوفيا- بسالونيك وهي إحدى الكنائس التي شيدها
الإمبراطورة إيرين بين عامي (٧٨٠-٧٩٧م
حامد قادوس، عزت زكي، الآثار القبطية والبيزنطية، الأسكندرية، القاهرة، مطبعة الحضري، ٢٠٠٢م، شكل ٤٠٠،
ص ٣٣٨.



أطلال مضمار السباق البيزنطي "ملعب الهيبديريوم" في القسطنطينية من لوحة مطبوعة بطريقة
الحفر من القرن الخامس عشر الميلادي

عكاشة، ثروت، الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٣م،
ص ٤١.

ثَبِتْ

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر العربية:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم الشيباني (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٢م):
- ١- الكامل في التاريخ، صحح أصوله وكساه ملاحظات عبد الوهاب النجار، بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن الأخوة، محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت: سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م):
- ٢- معالم القرية في أحكام الحسبة، عني بنقله وتصحيحه روبن ليون، مطبعة الفنون، كمبردج، ١٩٣٧م.
- الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي (ت: ٣٩٠هـ/١٠٠٠م):
- ٣- المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة محمد شفيق غريال، دار العلم للملايين، القاهرة، ١٩٦١م.
- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد (ت: ٣٥٦هـ/٩٦٦م):
- ٤- الأغاني، تحقيق عبد الكريم الغرياني، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧٠م.
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد بن يحيى (ت: ٤٥٨هـ/١٠٦٧م):
- ٥- تاريخ الأنطاكي "المعروف بصلة تاريخ أوتيا" حققه ووضع فهارسه، عمر عبد السلام تدمري، لبنان، طرابلس، ١٩٩٠م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت: ٩٣٠هـ/١٠٢٣م):
- ٦- بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، بدون مكان، ١٩٦٠م.
- انيهارد:
- ٧- سيرة شارلمان، ترجمه وعلق عليه عادل زيتون، دار حسان، دمشق، ١٩٨٩م.
- البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن السفير بن بردية الجعفي (ت: ٢٥١هـ/٨٦٤م):
- ٨- صحيح البخاري، مطبعة الحلبي، وأولاده، القاهرة، ١٣٤٥هـ.
- البلاذري أحمد بن يحيى بن جابر (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م):
- ٩- فتوح البلدان، نشره ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.

- بورفيروجيننتوس، قسطنطين السابع، (ت: ٣٤٧هـ/٩٥٩م):
- ١٠- إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.
- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٨م):
- ١١- التاج في أخبار الملوك، تحقيق ونشر دار الفكر، بيروت، ١٩٥٥م.
- التبصرة بالتجارة، حققه حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد النصيبي (ت: ٣٨٠هـ/٩٩٠م):
- ١٢- كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.
- الحموي، القاضي شهاب الدين إبراهيم بن أبي آدم (ت: ٦٤٢هـ/١٢٤٤م):
- ١٣- التاريخ الإسلامي، "المعروف باسم التاريخ المظفري" من البعثة النبوية إلى نهاية الأموية، قام بتحقيقه وقدم له ووضع حواشيه حامد زيان غانم، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨٩م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم، (ت: ٨٦٦هـ/١٤٦١م):
- ١٤- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار القلم للنشر، بيروت، ١٩٧٥م.
- الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):
- ١٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن عبد الله (ت: ٣٠٠هـ/٩١٢م):
- ١٦- المسالك والممالك، باعتناء دي خويه، مطابع بريل، ليدن، ١٨٨٩م.
- الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٢م):
- ١٧- تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة ٤٦٣هـ، دار الفكر، بيروت، ب.ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٥م):
- ١٨- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م.
- الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ/٨٩٥م):

- ١٩- الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن الحافظ (ت: ١٣٤٧هـ/١٧٤٨م):
- ٢٠- العبر في خير من غير، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، ١٩٦٠م.
- ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر (ت: ٢٩٠هـ/٩٠٣م):
- ٢١- الأعلاق النفيسة، مطابع بريل، ليدن، ١٨٩١م.
- سرهنك، إسماعيل الأميرالي (غير معروف تاريخ الوفاة):
- ٢٢- حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٣١٤هـ.
- ابن سلام، أبو عبيد القاسم الهروي الأزدي (ت: ٢٢٤هـ/٨٣٩م):
- ٢٣- كتاب الأموال، تحقيق وتعليق محمد خليل مراس، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨١م.
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/٩٢٢م):
- ٢٤- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م):
- ٢٥- فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، المعادي، ١٩١١م.
- سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، بيروت، ١٩٦٧م.
- فتوح مصر وأخبارها، مطبعة بريل، بغداد، ١٩٣٠م.
- ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
- ٢٦- تاريخ مختصر الدول، وضع حواشيه الأب أنطون، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٥٨م.
- ابن عذاري، أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي (ت: أواخر القرن السابع الهجري/ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي):
- ٢٧- البيان المغربي في أخبار المغرب، "أخبار المغرب"، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٠م.
- ابن الصفوي، خليفة بن خياط البصري، (ت: ٢٤٠هـ/٨٥٤م):
- ٢٨- تاريخ خليفة بن خياط، رواية بقي بن مخلد، حققه أ. د سهيل زكار، القسم الأول، دمشق، ١٩٦٧م.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣١م):

- ٢٩- المختصر في أخبار البشر، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٦م.
- ابن فضلان، أحمد بن العباس بن راشد بن حماد (ت: ٣٠٩هـ/٩٢١م):
- ٣٠- رسالة ابن فضلان "في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصفالية سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م"، حققه سامي الدهان، المجتمع العربي السوري، دمشق، ١٩٨٨م.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٤٢١هـ/١٤١٨م):
- ٣١- صبح الأعشى في صناعة الانشاء، وزارة الثقافة والارشاد القومي، القاهرة، د.ت.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م):
- ٣٢- البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤١م.
- المسعودي، أبو الحسن بن علي بن الحسن بن علي (ت: ٣٤٥هـ/٩٥٦م):
- ٣٣- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والعامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦م.
- التنبية والإشراق، عني بتصحيحه وراجعته عماد إسماعيل الصوي، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٩٣م.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٨٤م.
- المغربي، أبو حسن علي بن موسى بن سعيد (ت: ٦٨٣هـ/١٢٨٤م)
- ٣٤- كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعقب عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.
- المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد البشاري (ت: ٣٨٧هـ/٩٩٧م):
- ٣٥- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة متولي، القاهرة، ١٩٩١م.
- المقرئ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي، (ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م):
- ٣٦- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية، دار صادر، القاهرة، بدون تاريخ.
- مؤلف مجهول

- ٣٧- العيون والحدائق في أخبار الحقائق، "من خلافة الوليد بن عبد الملك إلى خلافة المعتصم"، مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٢هـ/١٣٣٢م):
- ٣٨- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق علي محمد البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦م:
- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت: ٢٠٧هـ/٨١٥م):
- ٣٩- كتاب فتوح الإسلام لبلاد العجم وخرسان، مطبعة المحروسة، القاهرة، ١٨٩١م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت ٦٢٦هـ/١٢٣٠م):
- ٤٠- معجم البلدان، دار بيروت، بيروت، ١٩٥٥م.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري (ت: ٢٩٤هـ/٩٠٤م):
- ٤١- تاريخ اليعقوبي، مطبعة النجف، بغداد، ١٩٣٩م.
- كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٠م.

ثانياً- المراجع العربية:

إبراهيم، سهير محمد أحمد:

١- التطور الاقتصادي في العصور الوسطى الحديثة، كلية التجارة فرع جامعة الأزهر
للبنات، القاهرة، ١٩٩٠م.

إسكندر، فايز نجيب:

٢- أرمينيا بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٣- الفتوحات الإسلامية الأرمنية (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م)، د، م، ١٩٨٣م.

٤- المسلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني المعاصر سيبوس (١١-٤٠هـ/٦٣٢-٦٦١م)، دار الحكمة اليمنية، صنعاء، ١٩٩٣م.

إسماعيل، ليلي عبد الجواد:

٥- الدولة البيزنطية في عهد هرقل وعلاقتها بالمسلمين، القاهرة، ١٩٨٥م.

الباشا، حسن:

٦- دراسات في تاريخ الدولة العباسية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م.

البطائية، محمد ضيف:

٧- الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى، دار الكندي، أريد، بدون تاريخ.

البكري، عدنان:

٨- العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية، دار الشرع للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٨٦م.

التابعي، محمد:

٩- السفارات في الإسلام، مكتبة متبولي، القاهرة، بدون تاريخ.

توفيق، عمر كمال:

١٠- تاريخ الدولة البيزنطية، تقديم محمود سعيد عمران، دار المعرفة الجامعية،

الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

١١- مذكرات في تاريخ الدولة البيزنطية، مكتبة البلدية، الإسكندرية، ١٩٧٤م.

الجمال، محمد جلال الدين:

١٢- أوروبا في مجرى التاريخ "دراسة جغرافية"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،

١٩٦٩م.

الجنزوري، عليّة عبد السميع:

١٣- المرأة في الحضارة البيزنطية، مكتبة الأنجلو المصرية، بدون مكان، ١٩٨٢م.

حاطوم، نور الدين:

١٤- تاريخ العصر الوسيط في أوربا "من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني

عشر"، دار الفكر، دمشق، ١٩٦٧م.

الحديثي، قحطان عبد الستار، وصلاح هادي الحيدري:

١٥- دراسات في التاريخ الساساني والبيزنطي، منشورات جامعة البصرة، البصرة،

١٩٨٦م.

حسن، حسن إبراهيم:

١٦- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي "العصر العباسي الأول

في الشرق ومصر والمغرب والأندلس ١٣٢-٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٧م"، دار الجيل،

القاهرة، ١٩٩١م.

حسن، رضا السيد:

١٧- المعارك والأسر بين العرب والروم، الدار العالمية، بيروت، ١٩٨٥م.

حسن، علي إبراهيم:

١٨- التاريخ الإسلامي العام، "الجاهلية- الدولة العربية- الدولة العباسية"، مكتبة

النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م.

حلاق، حسان:

١٩- تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي "الحياة المالية والاقتصادية والإدارية"،

دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٨م.

٢٠-

حمادة، محمد ماهر:

٢١- الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر العباسي الأول، مؤسسة الرسالة،

بيروت، ١٩٨٢م.

الحلواني، أحمد عبد المنعم عبد السلام:

٢٢- الدين المقارن "المسيحية"، القاهرة، بدون تاريخ.

أبو خليل، شوقي:

٢٣- الحضارة العربية الإسلامية، منشورات الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٨٧م.

الدسوقي، محمد كمال:

٢٤- تاريخ أنطاكية، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

ربيع، حسنين محمد:

٢٥- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٣م.

الرحيلي، سليمان صفيح:

٢٦- العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة في عهدي هارون الرشيد

والإمبراطور شارلمان، دار الهدى، الرياض، د، ت.

رستم، أسد:

٢٧- حرب في الكنائس، بيروت، ١٩٦٧م.

٢٨- الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، دار المكتوف،

بيروت، ١٩٥٥م.

زيتون، عادل:

٢٩- العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور

الوسطى، دمشق، ١٩٨٠م.

سالم، السيد عبد العزيز:

٣٠- دراسات في تاريخ العرب " العصر العباسي الأول"، مؤسسة شباب الجامعة،

الإسكندرية، ب، ت.

بن سليمان، ماري:

٣١- أخبار بطارقة كرسي المشرق، "من كتاب المجلد"، بغداد، ١٨٩٩م.

السيد، محمود محمد:

٣٢- تاريخ الدولة البيزنطية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

الشرقي، إبراهيم:

٣٣- التاريخ الإسلامي خلال أربعة عشر قرناً منذ العهد النبوي حتى العصر

الحاضر، د، م، ١٩٧١م.

الشيخ، محمد محمد مرسى:

٣٤- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

٣٥- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.

الصابوني، علي:

٣٦- روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن، د، م، د، ت.

صبرة، عفاف سيد:

٣٧- الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية،

القاهرة، ١٩٨٢م.

طرخان، إبراهيم علي:

٣٨- الحركة اللايقونية في الدولة البيزنطية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،

القاهرة، ١٩٥٦م.

عاشور، سعيد عبد الفتاح:

٣٩- أوروبا في العصور الوسطى "التاريخ السياسي"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،

١٩٦٤م.

٤٠- أوروبا العصور الوسطى "النظم والحضارة"، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة،

١٩٦٣م.

عاقل، نبيه:

٤١- خلافة بني أمية، دار الفكر العربي، دمشق، ١٩٩٢م.

٤٢- دراسة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،

١٩٦٧م.

العبادي، مصطفى:

٤٣- مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، بيروت،

١٩٦٦م.

عباس، إحسان:

٤٤- العرب في صقلية، دار المعارف، القاهرة، د، ت.

عبيد الله، وديع فتحي:

- ٤٥- العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة، ١٩٩٠م.
عبيد، إسحق:
- ٤٦- الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في مدينة الله، تقديم جورج شحاته قنواطي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١م.
عثمان، فتحي:
- ٤٧- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الثاني، دار الكاتب العربي، القاهرة، د، ت.
- ٤٨- بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، الكتاب الثالث، دار الكتاب العربي.
- العدوي، إبراهيم أحمد:
- ٤٩- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٥١م.
- ٥٠- الأمويون والبيزنطيون "البحر المتوسط بحيرة إسلامية"، الدار القومية للطباعة والنشر، بدون مكان، ١٩٦٣م.
- ٥١- تاريخ العالم الإسلامي "عصر البناء والانطلاق"، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
- ٥٢- السفارات الإسلامية إلى أوروبا في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٩م.
العريني، السيد البار:
- ٥٣- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٨م.
- ٥٤- الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
علي، عبد اللطيف أحمد:
- ٥٥- التاريخ الروماني "عصر الثورة"، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.
علام، نعمت إسماعيل:
- ٥٦- فنون الشرق الأوسط في العصور الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٢م.
عمران، محمود سعيد:

- ٥٧- معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١م.
- ٥٨- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.
- أبو العينين، سمير عبد المنعم:
- ٥٩- العلاقات الدولية في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٩م.
- غنيم، إسمنت:
- ٦٠- الإمبراطورية البيزنطية وكرت الإسلامية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
- فتحي، صفوة نجدة:
- ٦١- العرب في الاتحاد السوفيتي ودراسات أخرى في العلاقات التاريخية والثقافية بين العرب والروس، بغداد، ١٩٨٤م.
- فرج، وسام عبد العزيز:
- ٦٢- دراسات في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- ٦٣- دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية "الإمبراطورية البيزنطية من ٣٢٤-١٠٢٥م"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- ٦٤- العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي، الإسكندرية، ١٩٨١م.
- فرج، نعيم:
- ٦٥- تاريخ بيزنطة "منذ القرن الرابع حتى القرن الثامن للميلاد"، مطبعة طرابيين، دمشق، ١٩٧٧م.
- قادوس، عزت زكي حامد، و السيد، محمد عبد الفتاح:
- ٦٦- الآثار القبطية والبيزنطية، منشورات كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، الإسكندرية، ٢٠٠٢م..
- طارق منصور:

٦٧- بيزنطة والعالم الخارجي "البيزنطيون والعالم الإسلامي"، مصر العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٣م.

محمود، حسن أحمد:

٦٨- الإسلام في حوض البحر المتوسط، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥م.

البير، نصري:

٦٩- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.

خليفة أبو بكر، وصلاح هادي الحيدري:

٧٠- الموجز في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، منشورات جامعة درنة، درنة، ٢٠٠٢م.

سيد، أحمد علي:

٧١- الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالشرق العربي، مركز النشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٣م.

النجار، محمد الطيب:

٧٢- الدولة الأموية في الشرق بين عوامل البناء ومعاول الفناء، دار الكتاب العربي، نشره عبد العزيز الرفاعي، القاهرة، ١٩٦٢م.

محمد الغزالي، الشيخ:

٧٣- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار الكتاب العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

البافي، سامي:

٧٤- الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب في عشرة قرون ٢٦٤ق.م-٧٥٠م، مطبعة العالم العربي، القاهرة، ١٩٩٢م

يوسف، جوزيف نسيم:

٧٥- تاريخ الدولة البيزنطية "٢٨٤-١٤٥٣م، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٧٦- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧م.

٧٧- معالم التاريخ البيزنطي السياسي والحضاري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.

اليوسف، عبد القادر أحمد:

٧٨- الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦م.

٧٩- العصور الوسطى الأوربية "٤٧٦-١٥٠٠م"، بيروت، ١٩٦٧م.

ثالثاً - المراجع المعربة:

أومان:

١- الإمبراطورية البيزنطية، تعريب مصطفى طه بدر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠م.

بروكلمان، كارل:

٢- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين،

بيروت، ١٩٧٤م.

بيرن، هنري:

٣- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى "الحياة الاقتصادية والاجتماعية"، ترجمة عطية

القوسي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦م.

بينز، نورمان:

٤- الإمبراطورية البيزنطية، تعريب حسين مؤنس، ويوسف زايد، الدار القومية، بدون مكان،

د، ت.

جوناتوفه، يوسف عزت باشا مه. ث:

٥- تاريخ القوقاز "يبحث عن أهمية بلاد القفقاس السياسية والحربية وعن منشأ اسمها

وشعوبها وقبائلها وتاريخها الحربي من قديم الزمان"، تعريب خوستوفه عبد الحميد غالب

بك، إسطنبول، ١٩١٢م.

جيبون، إدوارد:

٦- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة محمد سليم سالم، مراجعة وتقديم

أحمد نجيب هاشم، القاهرة، ١٩٩٧م.

دانلوب، د. م.:

٧- تاريخ يهود الخزر، ترجمة أ. د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٩٠م.

داوني، جلا نقييل:

٨- أنطاكية في عهد ثيودوسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس، مؤسسة فرنكلين، بيروت،

١٩٦٨م.

دايفز، كلالس:

٩- شارلمان، ترجمة السيد الباز العريني، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٩م.

رايس، ثالبوث:

١٠- تراث فارس "فارس وبيزنطة"، ترجمة محمد كفاي وآخرين، مراجعة يحيى الخشاب،
أشرف على نشره أ. ج. أ دبيري، دار إحياء الكتب العربية، بدون مكان، ١٩٥٩م.

رنسيمان، ستيفن:

١١- الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي، مكتبة النهضة
العربية، القاهرة، ١٩٦١م.

ساليقان، ريتشاردا:

١٢- ورثة الإمبراطورية الرومانية "الغرب الجرمانى- العالم الإسلامى- الدولة البيزنطية"،
ترجمة جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٥م.

سانت، ل. ب. موس هـ:

١٣- ميلاد العصور الوسطى ٣٩٥-٨١٤م، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، والسيد الباز
العريني، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦٧م.

عطية، عزيز سورىالى:

١٤- العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٢م.
فازيليف، أ. أ:

١٥- العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٣٤م.
فشر، هـ. أ. ل:

١٦- تاريخ أوربا في العصور الوسطى، نقله إلى العربية محمد مصطفى زيادة، والسيد الباز
العريني، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٩م.

القيصري، بيركوبيوس:

١٧- الحروب القوطية، دراسة وترجمة وتعليق عفاف سيد صبرة، "الكتاب الخامس ومنتصف
السادس"، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، بدون تاريخ.

القيصري، يوسابيوس:

١٨- تاريخ الكنيسة، ترجمة القس مرقس، القاهرة، ١٩٥٢م.

كانتور، نورمان. ف.:

- ١٩- التاريخ الوسيط، "قصة حضارة البداية والنهاية"، ترجمة وتعليق قاسم عبدة قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م.
- ٢٠- العصور الوسطى الباكرة "القرن الثالث - القرن التاسع للميلاد"، ترجمة وتعليق قاسم عبدة قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٣م.
- كرستوفر، دوسن:
- ٢١- تكوين أوروبا، ترجمة ومراجعة محمد مصطفى زيادة، وسعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٦٧م.
- كلتي، برناردين:
- ٢٢- فتح القسطنطينية، ترجمة شكري محمود نديم، مراجعة جعفر خصباك، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٦٢م.
- لودفيغ، إميل:
- ٢٣- البحر المتوسط، ترجمة عادل عيتر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م.
- لومبار، موريس:
- ٢٤- الإسلام في مجده الأول من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري، ترجمة إسماعيل العربي، دار الآفاق، الدار البيضاء، ١٩٩٠م.
- لويس، أرشيبالد:
- ٢٥- القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠-١١٠٠م ترجمة أحمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.
- منذر آدم:
- ٢٦- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧م.
- هارديل، ج. م. والاش:
- ٢٧- أوروبا في صدر العصور الوسطى ٤٠٠-١٠٠٠م، تعريب وتقديم وتعليق حياة ناصر الحجي، الكويت، ١٩٧٩م.

هارتمان، وباركلاف:

٢٨- الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م.

هسي، ج. م.:

٢٩- العالم البيزنطي، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٧م.

هلستر. س.:

٣٠- أوربه في العصور الوسطى، ترجمة فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، بورسعيد، ١٩٨٨م.

هونكه ، زيغريد:

٣١- شمس العرب تسطع على الغرب، "أثر الحضارة العربية في أوربة"، نقله عن الألمانية فاروق بيضون، كمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، ط٩، دار الآفاق، د، م، ١٩٩١م.

رابعاً- الدوريات:

بيطار، أمنة:

١- الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢-٣٥٩هـ، مجلة الدراسات التاريخية،

العدد الثالث، دمشق، ١٩٨٠م.

جابر بيلي، فرنستكو:

٢- الإسلام في عالم البحر المتوسط، مجلة الهلال ، العدد الثامن والسبعون، بدون مكان،

١٩٧٩م.

أبو الجدايل، عائشة سعيد:

٣- المرأة والسلطة في العصور الوسطى، مركز البحوث التاريخية، كلية الآداب، جامعة

القاهرة، الحولية الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢م.

الجندي، أحمد:

٤- أسد الثغور، مجلة الثقافة العربية، العدد الثامن، السنة الأولى، دمشق، ١٩٧٤م.

حبيب، زيات:

٥- الصور والأيقونات في الحمامات قديماً، مجلة المشرق، السنة الثانية والأربعون، مكتبة

الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٤٨م.

الحياري، مصطفى علي:

٦- حياة الناس في الثغور "مدينة طرسوس"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الرابع، دمشق،

١٩٨١م.

الحيدري، صلاح هادي:

٧- الصراع بين العرب والبيزنطيين في حوض البحر المتوسط في العصور الوسطى، مجلة

البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الثامنة عشر، طرابلس، ١٩٩٠م.

الداقوقي، حسين علي:

٨- دولة البلغار المسلمين في حوض الفولجا، مجلة المؤرخ العربي، العدد الواحد والعشرون،

بغداد، ١٩٨٢م.

الدوري، عبد العزيز:

٩- الجغرافيون العرب وروسيا، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثالثة عشر، بغداد، ١٩٦٦م.

الشيخ، محمد محمد مرسى:

١٠- الخزر وعلاقتهم بالإمبراطورية البيزنطية، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، العدد الرابع، الرياض، ١٩٨٠م.

الصباح، رشا محمود:

١١- الإسلام والمسيحية في العصور الوسطى، مجلة عالم الفكر، العدد الرابع، المجلد الخامس عشر، الكويت، ١٩٨٤م.

عبد الحميد، رأفت:

١٢- الاضطهاد الروماني للمسيحيين بين الاعتقاد الكنسي والفكر السياسي، مجلة كلية الآداب، العدد الثالث، جامعة الإمارات، أبو ظبي، ١٩٨٧م.

العدوي، إبراهيم أحمد:

١٣- التمثيل السياسي بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثاني المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٤٩م.

١٤- دراسات في التاريخ البيزنطي، المجلة التاريخية المصرية، العدد الثاني المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٤٩م.

١٥- قوانين الإصلاح الزراعي في الإمبراطورية البيزنطية أهدافها والثورات المضادة لها، مجلة كلية الآداب والتربية، العدد الثالث، الكويت، ١٩٧٣م.

العريني، السيد الباز:

١٦- كتاب الحسبة في بيزنطة في القرن العاشر الميلادي، أو كتاب والي المدينة، مجلة كلية الآداب، المجلد التاسع عشر، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٥٧م.

عكاشة، ثروت:

١٧- التصوير الإسلامي بين الحظر والإباحة، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد السادس، الكويت، ١٩٧٥م.

غوانمه، يوسف درويش:

١٨- النظم العسكرية عند العرب المسلمين حقبة النشأة والتكوين، مجلة دراسات تاريخية، العدد الرابع، دمشق، ١٩٨١م.

فرح، نعيم:

١٩- الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في القرن الثامن الميلادي، مجلة دراسات تاريخية، العدد العاشر، دمشق، ١٩٨٢م.

مؤنس، حسين:

٢٠- أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في البحر المتوسط، المجلة التاريخية، العدد الأول، المجلد الرابع، القاهرة، ١٩٥١م.

بن ناصر، خليفة أبو بكر:

٢١- الدوناتية Donatism "من مظاهر المقاومة للسيطرة الرومانية في شمال أفريقيا"، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، جامعة التحدي، سرت، ١٩٩٣م.

خامساً - الموسوعات والقواميس والأطالس والندوات والمؤتمرات العلمية:

بروي، إدوار:

١- تاريخ الحضارات العام "القرون الوسطى"، ترجمة يوسف أسعد داغر وفريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٦٥م.

البستاني، بطرس:

٢- دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، ١٨٨٠م.

بهجت، علي:

٣- قاموس الأمكنة والبقاع التي يرد ذكرها في كتب الفتوح، القاهرة، ١٩٠٦م.

الترماتيتي، عبد السلام:

٤- أزمنة التاريخ الإسلامي، مراجعة وتحقيق شاكر مصطفى، وأحمد مختار العبادي، الكويت، ١٩٨٢م.

جوبسون، ن. ب:

٥- انتشار الشعوب الصقلية أجدادهم وثقافتهم الأولى وكيف اتخذوا سبيلهم إلى التاريخ المدون، موسوعة تاريخ العالم، نشره السير جون أ. هامرتن، أشرف على ترجمته قسم الترجمة بوزارة التربية والتعليم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.

حافظ، أحمد:

٦- أطلس حافظ، تخطيط أقاليم الكرة الأرضية طبيعياً وسياسياً واقتصادياً مطبوعة الفجالة، القاهرة، ١٩٦٠م.

الدبس، يوسف:

٧- تاريخ سورية "من أيام الخلفاء إلى نهاية القرن الحادي عشر"، المطبعة العمومية، بيروت، ١٩٠٠م.

زيادة، نقولا:

٨- تجارة بلاد الشام الخارجية في العصر العباسي ١٣٢-٤٥١هـ/٧٥٠-١٠٥٩م، تحرير حمد عدنان البخيت، محمد يونس العبادي، القسم العربي، عمان، ١٩٩٢م.

عبد الوهاب، لطفي:

٩- بلاد الشام في العهد الأموي "حولية ثيوفانيس مصدر بيزنطي عن بلاد الشام في العصر الأموي" المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، المحاضرة الثالثة، المجلد الأول، عمان، ١٩٨٩م.

عكاشة، ثروت:

١٠- الفن البيزنطي، موسوعة تاريخ الفن "العين تسمع والأذن ترى"، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٣م.

لانجر، وليم:

١١- موسوعة تاريخ العالم، أشرف على الترجمة محمد مصطفى زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

ماجد، عبد المنعم، وعلي البنا:

١٢- الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، القاهرة، د، ت.

مؤنس، حسين:

١٣- أطلس تاريخ الإسلام، القاهرة، د، ت.

نعينع، سهير محمد إبراهيم:

١٤- دور المرأة في مصر البيزنطية، أبحاث مؤتمر دور المرأة السياسي والحضاري عبر

العصور، تنظيم مركز البحوث والدراسات التاريخية بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية

الآداب جامعة القاهرة، بتحرير محمود عرفة، القاهرة، ٢٠٠٢م.

هامرتن، السير جون أ.:

١٥- ظهور الأمم ٧٣٢-٨٦٧م، ترجمة عامر بحيري، مراجعة محمد بدران، موسوعة تاريخ

العالم، نشره بالإنجليزية السير جون أ. هامرتن، أشرفت على ترجمته إدارة الثقافة بوزارة

الصحة والتربية والتعليم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ.

ولز، ه. ج.:

١٦- معالم تاريخ الإنسانية "في المسيحية والإسلام والعصور الوسطى"، ترجمة عبد العزيز

توفيق جاويد، مراجعة محمد مأمون نجا، وعبد الحميد يونس، القاهرة، ١٩٦١م.

سادسا - المصادر والمراجع الأجنبية:

Amann (E):

1-Histoire de l'Eglise, No. 6. L'époque Carolingienne, Paris 1947.

Anastos (M.V):

2-The Cambridge Medieval History Vol. IV. The Byzantine Empire, Part I: Byzantium and its Neighbours, Cambridge, The University Press, 1966.

-Bar Hebraeus:

3-The chronography of Bar Hebraeus, Translated from the Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Oxford University Press, Volume I, 1932.

-Brehier (L):

4-Vie et Mort de Byzance, Paris 1947.

- Baynes. N. E. F:

5-Byzantine Studies London. 1955.

-Baynes and Moss:

6- Byzantium As introduction to East Roman Civilization Oxford University Press, 1962.

- Bury Aman

7- Byzantines, and their World, London. 1973.

-Bury. J.B:

8- The Cambridge Medieval History, H. M. Gwatkin, 11, Cambridge University Press, 1964.

9-A History of the Eastern Roman Empire London, 1912.

-Carlier, G:

10- Fextariarim, Compendium Tom CXXII, Paris, 1864.

-Chariest, Diehl:

11- Byzantine Empire. New York, 1928.

- David, T Ricer:
- 12– The Byzantines, Paris, 1962.
- Densely, M. A. A:
- 13– Finery of Early Medieval Europe 476–911. A.D DASSIS 1960.
- Diehl (C):
- 14–Histoire de l'Empire Byzantine, Paris 1924.
- Einhard:
- 15– The Life of Charlemagne in the World Paris 1963.
- Falhed Anikis:
- 16– Vicar Le mementoes Aikmivete Budapest, 1982.
- Finlay, G:
- 17– History of the Byzantine Empire London, 1906.
- Georgius Hismartistus Mons Cinus:
- 18– Climaseae, Tisme, Cx, Paris, 1863.
- Gibbon, Edward:
- 19– The History of the Decline and the Fall the Roman Empire, vol III,
The Modern Library Chicago, 1952.
- Halen (L):
- 20–Les Barbara's, troieme Edition, Paris 1936.
- Hameln:
- 21–The Medieval and Renaissance World, General Editor Esmond
wright.
- Hodgkin:
- 22– Italy and her Invaders, Oxford, 1896, Vol4.
- Hussey:
- 23– Byzantine World London, 1967.

–Joseph, MC:

24– Cape, The Empresses of Constantinople, London, 1913.

–Lopez:

26– Silk Industry in the Byzantine Empire Speeulm, 1945, Vol XX

–Matthias Becher:

27– Charlemagne, Yale University press, 2003.

–Manyo, C:

28– Byzantine Architecture New York 1976.

–Michel Le Syrien:

29–Chronique de Micwel Le Syrien. Traduite en Francais par J.B. Chabot. Tome II Fascicule 11. Paris 1902. Tome III. Paris 1905.

–Norwich John Julius:

30– Byzantium, the Early Centuries, London, 1985.

–Oman, C.W:

31–The Byzantine Empire London, 1914.

–Ostrogorowsky:

32– History of the Byzantine State, Translated by Joan Hussy. Oxford, 1968.

–Previte–Orton (C.W):

33–The Shorter Cambridge Medieval History, Cambridge University, 1977, V. I.

–Romilly, 1, H. Jenkins:

34–Studies on Byzantine History of the 9th and 10th Centuries Variorum Reprints, London, 1970.

–Sodney, Painter:

35– A History of the Middie Ages 284–1500 London, 1970.

–Theophanes, Gufessor:

36– The Chronicle of Byzantine and Near Eastern, A.D. 284–813,
Thansl Bycyrl Mango and Roger Sea Claren, Don Press. Oxford, 1997.

–Une Societe de Savant de Cens de Lettres:

37– Dictlohnaire. Seconde Edition, 11, Paris, 1975.

–Vasiliev, (A.A):

38–Histoirede 1Empire Byzantin,T.I Editions A Picard Paris, 1932.

–William, L, Langer:

39– An Encylopedia of World History Modern Chronologicolly Arranged,
London, 1948.

–Zananiiri (G):

40–Histoire de 1Eglise Byzantine, Nouvelles Editions Latines Paris
1954.

ملخص الرسالة

The purpose of this study is to highlight the era of Empress Irene (164–186 / 780–803) Irene, this ordinary girl, who came from the city of Athens to become an absolute emperor of the empire? How did she overcome the difficulties and obstacles that hampered her way? Then how successful did she first become the first woman to approach the Byzantine throne (a commandment for her minor son), and finally reach him as an empress who is unique in her quest for the tasks of governance and the conduct of state affairs?

Was the empress Irene in all her mental powers when she ruled the permanent darkness on her son, Constantine VI, with the eyes of his eyes! Or whether she was carrying out her just judgment as a result of the infamous acts that resulted from him and reached the extent of the need to cut her – and her son and part of it – to that ugly way!

That empress had her weight and her strength. She had her successful policy and diplomacy as an empress, but as the representative emperor of the Western Europe at a time when the imperial throne in the west was emptied of an emperor protecting him. The only empire capable of standing up to the Muslim world was the Byzantine Empire, which represented only Eastern Europe. And directing the armies to war whenever necessary, and holding the hymns in full at the appropriate time as well. The best proof of this is what happened between it and the Abbasid Caliph Harun al-Rashid (16 Rabie I 170 AH / 786 AD). Even when the politically lost greatness of the West, the crowning glory of Charlemagne, the emperor of the West (183 AH / 800 AD), increased her attachment to her influence as the sole emperors of Europe. Char-

lemagne was only quicker to send an embassy to marry her and reunite Europe in the east and west. But the timing was not successful, a revolution in Constantinople overthrew the rule of Irene, and ascended the Byzantine throne Emperor Nikphor. In fact, Charlemagne's request to marry Erin was in itself an end in her favor, otherwise the situation would turn out and instead of an embassy carrying wedding flags to the east, the embassies of the war could have reached the east with its loud drums.